سمير شحادة

التحليل النفسي لقوة الاستدلال

تخيل الأحداث قبل وقوعها



دار علاء الدين

التحليل النفسي لقوة الاستدلال

(تخّيل الأحداث قبل وقوعها)

سمير عبده

التحليل النفسي لقوة الاستدلال

(تخيّل الأحداث قبل وقوعها)



الطبعة الأولى: ١٩٩٤ ـ دمشق

اسم الكتاب

التحليل النفسي لقوة الاستدلال

المؤلف: سمير عبده

تصميم الغلاف: لينا عبده

الخطوط: عيسى فرج عيسى

* * *

التنضيد الالكتروني: دار علاء الدين

الاخراج الفني: باسم قمر

الناشر: دار علاء الدين

دمشق: ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٤٢٧١٥٨ ـــ ٤٢٧٣٥٣

تلكس: ٤١٢٥٤٥

فاكس: ٤٢٧١٥٩

* * * * *

المقدمة

هذا الكتاب هو حصيلة دراسات وأبحاث متعددة قمت بها في أعوام متفاوتة، وقد صنفتها ككتاب منذ بعض الوقت، وقمت في الاونة الاخيرة بمراجعتها، وتحديث المعلومات الواردة في أجزاء منها، والان يرى النور ضمن الدراسات السيكولوجية التي أقوم بإعدادها.

والغاية من الكتاب دراسة قوة الاستدلال من زاوية التحليل النفسي بحيث يستطيع القارئ أن يفهم المقصود من قوة الاستدلال والتعاطي النقدي السيكولوجي لها.

واذا كان علماء النفس القدماء قد نسبوا قوة الاستدلال إلى مجموعة من الاحساسات، فإن الامر بالنسبة للمحدثين ليس مقصوراً على مجرد الاحساسات، وإنما يدخل فيه معلومات المرء وخبراته السابقة التي تعطي بدورها معنى للأحساسات التي تعتبر في حد ذاتها لب الاستدلال. فالاستدلال اذن ليس مجرد انطباع صور الاشياء في الذهن، ولكنه أستجابة معينة للأحساسات الراهنة تستخدم فيها الخبرات السابقة، كما تتأثر بإتجاهات الفرد وأسلوبه في الحياة.

وعملية الاستدلال لا تتم إلا بوجود الشروط الآتية:

١ ــ موضوعات فيزيقية لها خصائص مميزة تعتبر كمنبهات خارجية.

٢ ــ ناحية فيزيولوجية تتصل عادة بالحواس وأطراف الاعصاب التي تنقل الاحساسات إلى الدماغ.

٣ ـ ناحية سيكولوجية تتصل بترجمة تلك الاحساسات وأعطائها المعاني اللازمة التي تتلاءم مع الشيء المدرك في مجال استلالي معين.

في كتابي (الخوارق النفسية) لم أكن أرمي إلى دراسة الينابيع الأعمق لبواطن النفس وما يحتور ذلك من أتجاهات ومن نظريات تتضمن الغيبيات والتشويق لمعرفة المجهول، بأكثر من معالجة ما يتصوره الانسان العادي عندما يتحدث عن خفايا النفس وعن منظومة عقائده وعن الوعد الذي يزعم، من جهة أولى، أيضاح جميع ألغاز هذا العالم بتمام يحسد عليه. وكما يقول فرويد، تأكيد وجود (عناية) ملأى بالعطف وهي تسهر على حياته وتحرص على تعويضه، في حياة قادمة من ضروب الحرمان الذي تصيبه في الدنيا.

إن التعليل أو التفسير من أعظم أنماط التفكير، ولذا يستحق أن نحلله مدققين. وهذا التحليل سوف يفيدنا في تقصي أنماط منطقية وحاجات فكرية أخرى. فكما أنه لايوجد حصان بالمعنى الكلي بل نماذج وأفراد من الخيل معينة، كذلك لا وجود للإنفعال بمعنى كلي، بل الموجود أنفعالات خاصة لهامصادر وموضوعات. وكذلك لا يوجد تفكير بمعنى كلي. بل الموجود أنماط معينة من الفكر تتمايز فيما بينها من حيث الغاية والمنهاج.

ونحن نعيش منذ الصغر على قواعد معينة، فالشمس تشرق وتغرب، واليوم مقسم إلى فترات للنوم والأكل واللعب والدرس.والمواد كلها تجري على حسب قواعد. وهناك أيضاً قوانين غير قوانين الطبيعة سنها الانسان لينظم أحواله. ولكي تلعب لعبة الحياة من المهد إلى اللحد يجب أن تعرف هذه القواعد وتتبعها.فمسالك الحياة من الازدحام والتدخل بحيث لا تسمح لك بالمضي خلافاً لهذه القواعد. وقواعد الطبيعة هي أهم أنواع القواعد، فإذا أسقطت شيئاً سقط وأن كان هشاً تحطم. ويمكن أن نسمي

ذلك مثالاً لقانون الجاذبية(*)، ولكن وقائع السقوط والتحطم والصوت هي كل الانطباعات التي تحدث لدى الطفل الصغير. وكلما أسقط الطفل لعبته وأعدتها إليه أسقطها ثانية فتحدث ضجة تثير أنتباهه، وهو اذ يمضي في هذه اللعبة يكتشف بالتجربة قاعدة.

إن القاعدة تقرر كيف تحدث الاشياء عموماً، فالقاعدة تدخل عنصر النظام على الاحداث المتفرقة، وأبن الخامسة لا يعرف أشياء متباينة فحسب ـ كالوقائع والعلاقات التي يحصلها نتيجة للملاحظة ـ بل يعرف كذلك جانباً من القواعد المتعلقة بسلوك أشياء وحيوانات وأناس، كباراً وصغاراً. وأبن العاشرة لديه حصيلة جيدة من القواعد والقوانين والاطرادات في افق أوسع وعلى مستوى أرفع.

إذاً القواعد تنظم الملاحظات، وبغير عادة تبسيط القواعد أوصياغتها يضل العقل ويصبح العالم فوضى.فالنظام أساسي للكون كالنور. واذا جمعنا النتائج المتحصلة من الملاحظة، ومع القواعد أو القوانين يكونان الخطوتان الأولى والثانية في مرحلة المقدمات، وحين نخطو خطوة ثالثة، فإننا اذن نفسر أو نعلل، لأننا نفسر الحادث أجابة عن السؤال الذي يدور فيما اذا كنا نرد الحادث إلى هذه القاعدة أو تلك، فنجعل منها حالة أو جزيئة أو مثلاً.



أن عنوان الكتاب كبير ويتناول فصولاً متنوعة تحاول أن تبين دلالة قوة الاستدلال سواء أكان ذلك عن طريق العلم البحت أو عن طريق الابحاث الروحية، بيد أن تتبعي لذلك هو عن طريق التحليل النفسي.

ومهما كانت المواقف ازاء هذه الروحية، مهما كانت قيمتها،

(*) ادخل مبدأ الجاذبية تفسيراً واحداً على ظواهر شتى ،وثبت منه أن للأرض غلافاً جوياً، وثبت هذا تجريبياً بالطيران ثم العودة إلى الموضع ذاته، وثبت منه أيضاً سبب حدوث الليل والنهار على التوالي، بسبب دوران الارض حول محورها، وثبت أيضاً تعاقب الفصول لأن الارض تدور حول الشمس. كما عرفنا تفسير سقوط الاشياء على الارض لا العكس.وخلاصة القول أن مبدأ الجاذبية هو الذي يفسر لنا عدم سقوط الناس في نصف الكرة الجنوبي عن سطح الارض.

فانني اعتبرها ارضاءات بديلة، مع أنها تعتبر في الواقع أوهام، بيد أن ذلك لا يقلل نجوعها من الناحية النفسية، وذلك من جراء الدور الذي يضطلع به التخيل في حياة النفس.

والآراء لا زالت مشتتة بين العلماء فيما اذا كانت ظاهرة التنبؤ، أو التجاوب العقلي عن بعد، أو الوساطة الروحية والاتصال بالارواح، ظواهر حقيقية أو غير حقيقية، حيّلا دقت على أفهامنا، أو علماً قائماً بذاته، لأن هذه المواضيع تتضمن علما بالرياضيات والفيزياء وعلم النفس، اذا لم نتذكر في هذا الصدد كذلك المعرفة الوثيقة بمبادئ الشعوذة ووسائل الدجل.. كل ذلك جعل من مثل هذه المواضيع مثار أهتمام القارئ العربي.

واذا كان الزمن قد تبدل، والمفاهيم قد تطورت وتغيرت وغزتها الحضارة العصرية. فأصبح المنظار العلمي هو السائد لتفسير مختلف الظواهر الانسانية الغريبة، فإن قصة الشياطين وظهور الأرواح البخسة لا تزال سائدة حتى في أرقى المجتمعات، حيث لا تزال هنالك مجموعة كبيرة من الناس تؤمن بوجود الشياطين، وأمكانية تدخل الارواح وتحكمها بمصير الانسان وأن كانت الفكرة السائدة تقول أن الشرقيين يلجأون في تفسيرهم لمختلف الامور إلى الماورائيات وتدخل عالم الغيب والاقدار، إلاأن احدث الاحصائيات تثبت أن أنكلترا والولايات المتحدة هما أكثر الدول المتقدمة التي تمارس فيها أعمال الشعوذة وتحضير الارواح أو عملية طرد الشياطين. ويبدو أن الشيطان لا يميز بين مجتمع متخلف وآخر متقدم، وأن الشعوب الامريكية تخشى رهبته تماماً كما تفعل القبائل في غابات أفريقيا.

لقد أتجه الانسان إلىالالهة لإشباع تلك الحاجات العملية التي لم يكن يستطيع أن يوفرها لنفسه، أما الحاجات التي لم يكن يصلي من أجلها فكان في مقدوره أشباعها.وكلما ازداد الانسان فهماً لطبيعة وسيطرة عليها، كان أقل أحتياجاً لأستخدام الدين كتفسير علمي، وكوسيلة سحرية للسيطرة على الطبيعة.فإذا

أستطاعت البشرية أن تنتج من الطعام ما يكفي الناس جميعا، لم تعد في حاجة إلى الصلاة من أجل الخبز اليومي، فذلك شيء يستطيع الانسان أن يوفره بجهوده الخاصة. وكلما قطع التقدم العلمي أشواطاً إلى الأمام، كانت الحاجة أقل إلى تكليف الدين بمهمة ليست دينية إلا في حدود تاريخية، لا في حدود التجربة الدينية.وقد جعل الدين الغربي هذا الجانب العلمي ـ السحري جزءاً أصيلاً في عقيدته، وهكذا وضع نفسه في معارضة التطور التقدمي للمعرفة الانسانية. ولا يصدق هذا القول علىأديان الشرق الكبرى، فإن لديها دائماً ميلاً للتفرقة بحدة بين ذلك الجزء من الدين الذي يتناول الانسان، وبين تلك الجوانب التي تحاول تفسير الطبيعة. فالأسئلة التي أثارت مجادلات عنيفة في الغرب ودفعت إلى ضروب من الاضطهاد مثل مشكلة هل العالم متناهي أم لا متناهي،هل الكون أزلي أم لا، وغير ذلك من المشاكل المشابهة ـ هذه الاسئلة قد عالجتها الهندوكية والبوذية في فكاهة رقيقة وسخرية.

فحين كان تلاميذ بوذا يسألونه عن أمثل هذه المسائل كان يجيب دائماً وأبداً (أنالا أعرف، ولا يهمني أن عرف، لأنه أياً كانت الاجابة فإنهالاتسهم في المشكلة الوحيدة ذات الاهمية.كيف نخفف العذاب الانساني).

* * *

قلنا أن عنوان الكتاب كبير وربما لا تكفيه مئات الصفحات، بيد أن دراسة هذا الموضوع، قد تكون فاتحة لدراسات أخرى يسهم بها مثقفينا العرب في تنوير فكر القارئ العربي، فمثل هذه المواضيع قابلة للكثير من الخطل والمزاعم، ويقول فرويد في ذلك أن ((بين الوظائف النفسية يوجد شيء يلزم تمييزه (مقدار العاطفة، ومجموعة الهيجان) أي، شيء له جميع صفات الكمية ـ بالرغم من أننا لا نملك وسيلة لقياسه ـ أي شيء قابل للزيادة والاستبدال والتصريف، ويبسط ذاته من آثار ذكرى فكرة ما كشحنة كهربائية فوق سطح الجسم... ويكفي في الوقت الحاضر أن يبرر وجوده بفائدته من

ناحية ربط الظروف النفسية المختلفة وأيضاحها)).

ولعل من مزايا هذا الكتاب أنه يتيح لنا تقييم الصراعات الدائرة بين أنصار كل من النظرة القديمة والنظرة الجديدة لقوة الاستدلال، ويضعنا في مكان ذي أمتياز نطل منه على خطوط المعركة بمكاسبها وخسائرها. بيد أن كتاباً مثل هذا لا يمكن أن ينجو من الوقوع في الخطا، على الاقل بمعنى أن ما سيجده القارئ فيه لن يتفق مع ما يأمل فيه أو يتوقعه، فالأشياء التي لا تهمه إلا قليلاً سيجدها مدروسة في تطويل غير ضروري والحاح لا مبرر له، بينما سيجد أن نواحي أخرى من الموضوع يرغب في الاستزادة منهاعولجت في أختصار أو حذف كلية. وقد أقتضى مني ذلك لأن مثل هذا الاختصار أو الاستزادة قد عالجتها في كتب لي سابقة مثل (الخوارق النفسية) و(التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية) ومن خلال كتب أخرى.

واذا كان لهذه القصة القاصرة التي تناولت (التحليل النفسي لقوة الاستدلال) والتي تأخذ بالخطوط العريضة في بيان ما أعتور قوة الاستدلال من أوهام ومزاعم في ضوء التحليل النفسي ـ ما زال بسيطاً متواضعاً ـ أن تحفز القارئ إلى الرجوع إلى الكتب الأكثر توسعاً وتفصيلاً في تاريخ قوة الاستدلال وعلاقة ذلك بعلم النفس فسيرضيني هذا كثيراً، لأنه يمكن تعلم الكثير من كتاب سيء، ولو بإثارة روح النقد التي ستساعد القارئ على البحث عما حذفه المؤلف وعلى أستبعاد تحيزاته وتصحيح قصر نظره.

وأرى أن هناك ديناً في عنقي إلى الاخوة غسان ووسيم وسامر عبد الله الذين لولا نقاشاتهم وملاحظاتهم في جلساتنا الفكرية لما كان لهذا العمل أن يكتب. فلهم شكري، وللقارئ العربي الشكر الاكبر.

سمير عبده

ص.ب ٩١٤

دمشق

مدخل إلى الاستدلال

تنشأ الكثير من ألوان العلم الكاذب من التعيين بطريقة أصلية خاطئة للمقدمات وما يليها، وهذا طراز أخر من الخطأ، وأما إرهاق مبدأ صحيح وتحميله ما هو فوق طاقته، فعادة ذهنية توجد غالباً عند من يتبعون مقدمات كاذبة، فإن تجاهل الواضح وأهمال التفسيرات المألوفة والمتبادلة، يحدث خطأ واحداً، كما أن تجاوز حدود الحتمية يحدث الخطأ الاخر. وفي الاعمال والتصرفات ذات الدلالة، وفي الأحلام، وفي سلوكنا عامة يوجد كثير مما لا مفر من عدم تعليله. والنظرة المعقولة إلى مبدأ الحتمية تسلم بهذا الوضع.وتوجه الاسئلة، والأصرار على الظفر بأجوبة دقيقة كل الدقة اذا تجاوزا حداً معروفاً واضح المعالم، لا يعدان علامة حب أستطلاع غير عادي، بل دليلاً على أهتمام غير منظم ولا منسق.

كان أفلاطون ينظر إلى الرياضيات على أنها أسمى صورة للمعرفة. وقد أسهم تأثيره بدور كبير في الرأي الشائع القائل أن المعرفة لا تكون معرفة على الاطلاق أن لم تتخذ صورة رياضية. غير أن العالم الحديث، وأن يكن يتخذ من الرياضيات أداة رئيسة للبحث، لا يقبل هذا الحكم دون قيد أو شرط، وإنما يؤكد أن الملاحظة لا يمكن أغفالها في العلم التجريبي، ويترك للرياضة مهمة أثبات الارتباطات الرياضية مرشداً لكشوف جديدة تعتمد على الملاحظة، غير أنه يعلم أنها لا يمكنها أن تعينه إلا لأنه يبدأ من مادة مستمدة بالملاحظة اللاحقة.فالعلم التجريبي، بالمعنى الحديث لهذه العبارة، يجمع بنجاح بين المنهج الرياضي ومنهج الملاحظة.ونتائجه لا تعد ذات يقين مطلق، بل ذات درجة عالية من الاحتمال، ويمكن الاعتماد عليها بالنسبة إلى جميع الاغراض العملية بقدر كاف ووافٍ.

بيد أن فكرة المعرفة التجريبية كانت خليقة بأن تبدو ممتنعة في نظر أفلاطون.فعندما وحد بين المعرفة وبين المعرفة الرياضية، اراد ان يقول أن الملاحظة لا ينبغي أن يكون لها دور في المعرفة.ولقد قال أحد تلاميذ سقراط في محاورة فيدون (إن الحجج المبنية على الاحتمالات

زائفة). ذلك لأن أفلاطون كان يطلب اليقين، لا الترجيح الاستقرائي الذي ترى الفيزياء الحديثة أنه الهدف الوحيد الذي يمكنه بلوغه.

وإذا كان من المعقول أن اليونانيين لم يكن لديهم علم فيزيائي يمكن مقارنته بعلمنا، وان أفلاطون لم يكن يعلم مدى ما يمكن تحقيقه عن طريق الجمع بين المنهج الرياضي والتجربة، فمع ذلك، فقد كان هناك علم طبيعي واحد أحرز، حتى في أيام أفلاطون، نجاحاً كبيراً بفضل هذا الجمع، هو علم الفلك.ذلك لأن القوانين الرياضية لدوران النجوم والكواكب كانت قد كشفت، بدرجة كبيرة من الاحكام، بفضل الملاحظة الدقيقة والاستدلال الهندسي. غير أن أفلاطون لم يكن على أستعداد للأعتراف بدور الملاحظة في الفلك، وإنما أكد أن الفلك لا يكون علماً إلا بقدر ما تفهم حركات النجوم ب(العقل والذهن). ففي رأيه أن ملاحظات النجوم لا تنبأ بالكثير عن القوانين الخاصة بدورانها، لأن حركتها الفعلية غير كاملة، ولا تخضع للقوانين خضوعاً دقيقاً. ويقول أفلاطون أن من غير المعقول أن نفترض أن الحركات الحقيقية للنجوم (أزلية لا تتعرض لأي أنحراف)، وهو يذكر بوضوح كامل رايه في الفلكي الذي يعتمد على الملاحظة: (فإذا كان ما يدرسه المرء شيئاً حسياً، فإنه سواء تطلع مشدوهاً إلى أعلى، أم خفض عينيه إلى اسفل، فلن تكون هذه معرفة على الاطلاق، اذ لا يمكن أن يكون ثمة علم بالمحسوس، فالنفس في هذه الحالة أنما تنظر الى أسفل، سواء أكان المرء يدرس وهو راقد على ظهره، أم وهو طاف على الماء). وبدلاً من ملاحظة النجوم، علينا أن نحاول الاهتداء الى قوانين دورانها بالفكر. فمن واجب الفلكي أن (يترك السماء المحتشدة بالنجوم جانباً)، وأن يخوض موضوعه بأستخدام (الجزء العاقل بطبيعته في نفوسنا) - (الجمهورية، الكتاب السابع ٥٢٩ - ٥٣٠). أنه لمن المحال أن نجد كلمات أقوى من هذه تعبر عن رفض العلم التجريبي، وعن الاعتقاد بأن معرفة الطبيعة لا تحتاج الى ملاحظة، وانما يمكن بلوغها بالعقل وحده.

أما كيف نفسر هذا الموقف المعادي للتجريبية على أساس نفسي؟ فإن البحث عن اليقين هو الذي يجعل الفيلسوف يتجاهل دور الملاحظة في المعرفة. ولما كان يستهدف معرفة ذات يقين مطلق، فانه لا يستطيع أن يقبل نتائج الملاحظات. ولما كانت الحجج المبنية علىأساس أحتمالات حججاً زائفة في نظره، فانه يتحول إلى الرياضيات بوصفها المصدر المقبول الوحيد للحقيقة. وهكذا فإن المثل الاعلى الذي يتجه الى صبغ المعرفة بصبغة رياضية كاملة، والى جعل الفيزياء من نفس نمط الهندسة والحساب، ينشأ عن الرغبة في الاهتداء الى يقين مطلق لقوانين الطبيعة، وهو يؤدي الى ذلك المطلب الممتنع، وأعني به أن ينسى عالم الفيزياء ملاحظاته، وأن يحول عالم الفلك عينيه بعيداً عن النجوم.

تنتمي الى نظرية الاحتمالات دراسة الاستدلال الاستقرائي، ذلك أن كل ما تستطيع الوقائع الملاحظة أن تفعله هو أن تجعل النظرية محتملة أو مرجحة، ولكنها لا تجعلها ذات يقين مطلق أبداً. ومع ذلك، فحتى عندما يعترف بإندماج الاستقراء في نظرية الاحتمال على هذا النحو، تنشأ ضروب أخرى من سوء الفهم، اذ ليس من السهل ادراك التركيب المنطقي للأستدلال الاحتمالي الذي نقوم به من أجل تأكيد النظريات بالوقائع. وقد أعتقد بعض المناطقة أنهم يجب أن يتصوروا هذا التأكيد على أنه عكس الاستدلال الاستنباطي، ففي أستطاعتنا أن نستمد النظرية من الوقائع بالأستقراء. غير أن هذا التفسير مفرط في التبسيط. فلكي نقوم بالأستدلال الاستقرائي. ينبغي أن تشتمل معرفتنا على مايزيد بكثير عن العلاقة الاستنباطية من النظرية الى الوقائع.

وتوجد ظاهرة بسيطة توضح التركيب المعقد للأستدلال المؤدي إلى تأكيد النظريات. فمجموعة الوقائع الملاحظة يمكن دائماً أن تدخل في أكثر من نظرية واحدة، وبعبارة أخرى فهناك عدة نظريات يمكن أن تستخلص منها هذه الوقائع. ويستخدم الاستدلال الاستقرائي من أجل أعطاء درجة الاحتمال لكل من هذه النظريات، ثم تقبل أقوى النظريات إحتمالاً. ومن الواضح أنه لابد، من أجل التفرقة بين هذه النظريات من معرفة تتجاوز نطاق العلاقة الإستنباطية بالوقائع، وهي العلاقة التي تسري على كل هذه النظريات.

اما اذا أردنا أن نفهم طبيعة الاستدلال التأكيدي، فعلينا أن ندرس نظرية الاحتمالات. وقد تمكن هذا المبحث الرياضي من وضع طرق تسري على مشكلة الدلالة غير المباشرة في عمومها، وهي المشكلة التي يعد الاستقراء الذي يحقق صحة النظريات العلمية مجرد حالة خاصة منها. ويمكن أن نضرب مثلاً للمشكلة العامة من الاستدلالات التي يقوم بها ضابط المباحث في بحثه عن مرتكب جريمة. فبعض المعطيات تكون موجودة، كمنديل ملوث بالدم، وأزميل، وأختفاء أرملة ثرية، وتظهر عدة تفسيرات لما حدث بالفعل. ثم يحاول ضابط المباحث تحديد أقوى التفسيرات احتمالاً، فيسير في أبحاثه تبعاً للقواعد الاحتمالية المقررة، اذ يحاول، مستخدماً كل الشواهدالواقعية وكل معرفته بنفسية الناس، أن يصل الى أستنتاجات، يختبرها بدورها بملاحظات جديدة خططت لهذا الغرض بالذات. ويؤدي كل أختبار، مبني على معطيات جديدة، الى تقوية أو أضعاف أحتمال التفسير، ولكن لا يمكن أبداً النظر الى التفسير الذي تم الوصول اليه على أنه يتصف باليقين المطلق. والواقع أن المنطقي الذي يحاول أن يعبر عن الصيغة الاستدلالية التي سار عليها ضابط المباحث، يجد كل العناصر المنطقية اللازمة في حساب الاحتمالات. وعلى الرغم من أنه يفتقر إلى المادة الاحصائية اللازمة للحساب الدقيق

للاحتمالات، فإنه يستطيع على الأقل أن يطبق صيغ الحساب بمعنى كيفي. وبطبيعة الحال لا يمكن بلوغ النتائج الحسابية الدقيقة، اذا لم تكن المادة المعطاة تسمح بتقديرات احتمالية تقريبية. ونفس هذه الاعتبارات تسري على مناقشة أحتمال النظريات العلمية، التي ينبغي أن تختار بدورها من بين عدة تفسيرات ممكنة للمعطيات الملاحظة. ويتم الاختيار باستخدام البناء العام للمعرفة، الذي تبدو بعض التعريفات ازاءه أرجح من بعضها الاخر.

إن العلم يصر على أدماج نظرية الاحتمال في فلسفة لا تضطر الى الالتجاء الى المعرفة التركيبية القبلية. وتبنى الفلسفة التجريبية في الاحتمال على التفسير الترددي، فالأحكام الاحتمالية تعبر عن ترددات نسبية للحوادث المتكررة، أي عن ترددات تحسب بوصفها نسبة مئوية من مجموع. وهي تستمد من ترددات لوحظت في الماضي، وتنطوي على أفتراض أن نفس الترددات سوف تسري تقريباً في المستقبل. وهي تتكون عن طريق استدلال أستقرائي. فإذا نظرنا الى أحتمال ظهور الصورة عند رمي العملة على أنه أحتمال النصف، كان معنى ذلك أن الرميات المتكررة للعملة سيؤدي الى ظهور الصورة في خمسين في المائة من الحالات. وفي هذا التفسير يسهل أيضاح قواعد المراهنة: فالقول أن نسبة خمسين في المائة تعد أحتمالاً معقولاً لظهور أي وجه من وجهي العملة عند رميها يعني أن أستخدام هذه القاعدة سيؤدي في المدى الطويل الى أن يتساوى الطرفان المتراهنان في الفوز. ولا شك أن مزايا هذا التفسير واضحة، ولكن ما ينبغي عليناداسته هو الصعوبات التي يثيرها. والواقع أن التفسير يثير صعوبتين اساسيتين:

الأولى تتعلق باستخدام الاستدلال الاستقرائي. فصحيح أن درجة الاحتمال هي في التفسير الترددي مسألة تجربة وخبرة، لا مسألة عقل، ولو لم نكن قد لاحظنا أننا نصل بمضي الوقت، عند رمي قطعة العملة، إلى تردد متساو للوجهين، لما تحدثنا عن أحتمالات متساوية. فليس مبدأ السوية إلا سوء تأويل عقلي لمعرفة أكتسبت من التجربة. ويذكرنا سوء التأويل هذا بمغالطات مماثلة وقع فيها المذهب العقلي، كالتفسير القبلي لقوانين الهندسة، ولمبدأ العلية، التي أثبت العلم الحديث بالمثل أنها نتاج للتجربة. غير أن تأكيد أن تردد تكرار الحوادث المتشابهة خاضع لأنماط عددية منظمة، هو أمر لا يمكن أثباته إلا باستخدام الاستدلالات الاستقرائية، ويبدو أنه ينطوي على مبدأ لا يستمد من التجربة. ففيما بين الفلسفة التجريبية وحل مشكلة الاستقراء يقف نقد (هيوم) للأستدلال الاستقرائي، وهو النقد الذي يبين أن الاستقراء ليس قبلياً ولا بعدياً.

أما الصعوبة الثانية في التفسير الترددي فتتعلق بإمكان أنطباق الحكم الاحتمالي على حالة منفردة. فلنفرض أن أحد أقربائي مصاب بمرض خطير، وسألت الطبيب عن أحتمال بقاء قريبي حياً، فأجاب الطبيب أن المريض لا يموت في ٧٥ في المائة من حالات هذا المرض. فكيف يمكن أن ينفعني هذا الحكم الاحتمالي؟ أنه قد يفيد الطبيب، الذي يعالج مرضى كثيرين لأنه يحدد له أية نسبة مئوية من مرضاه لن تموت بهذا المرض. غير أن مايهمني هو هذا الشخص بعينه فحسب، وأود أن أعرف مقدار أحتمال نجاته هو ذاته من الموت. وهكذا يبدو أنه لا معنى للتعبير عن أحتمال حادث منفرد على أساس النسب الترددية.

رغم هذا وذاك. واذا ما أجرينا تحليلاً منطقياً، فقد يكون من العادات المفيدة أن نعزو معنى إلى حكم أحتمالي متعلق بحادث منفرد، اذا كانت التجربة اليومية تقدم إلينا عدداً من الحالات المماثلة.

ويقتضينا الولوج إلى المعرفة التنبؤية الاستعانة بمفتاح الترجيح. فالحكم المتعلق بالمستقبل لا يمكن أن يصدر مقترناً بأدعاء أنه صحيح، اذ أننا نستطيع أن نتصور دائماً أن العكس هو الذي سيحدث، وليس هناك ما يضمن لنا أن التجربة المقبلة لن تحقق ما هو اليوم مجرد خيال. هذه الحقيقة ذاتها هي الصخرة التي تحطم عليها كل تفسير عقلاني للمعرفة.فالتنبؤ بالتجارب المقبلة لا يمكن التعبير عنه إلا بمعنى أنه محاولة، وينبغي أن نعمل حساباً لاحتمال كذبه، فإذا أتضح خطأ التنبؤ، كنا على استعداد لمحاولة أخرى. وهكذا فان طريقة المحاولة والخطأ هي الأداة الوحيدة الموجودة للتنبؤ. والحكم التنبؤي ترجيح، فبدلاً من ان نعرف حقيقته، نعرف نسبته فقط، وهي النسبة التي تقاس على اساس أحتماله.

إن تفسير الاحكام التنبؤية بأنها ترجيحات يحل آخر مشكلة تظل باقية في وجه الفهم التجريبي للمعرفة: وأعني بها مشكلة الاستقراء. فالتجريبية قد أنهارت أمام نقد (هيوم) للأستقراء، لأنها لم تكن قد تحررت من مصادرة أساسية من مصادرات المذهب العقلي، وأعني بها ضرورة البرهنة على صحة كل معرفة. ففي نظر هذا الرأي لا يمكن تبرير المنهج الاستقرائي، اذ لا يوجد دليل على أنه سيؤدي إلى نتائج صحيحة. ولكن الامر يختلف عندما تعد النتيجة التنبؤية ترجيحاً. ففي ظل هذا التفسير لا تكون في حاجة إلي البرهان على صحتها، وكل ما يمكن أن يطلب هو برهان على أنها ترجيح جيد، أو حتى أفضل ترجيح متوافر لدينا.وهذا برهان يمكن الاتيان به، وبذلك يمكن حل المشكلة الاستقرائية. ويقتضي هذا البرهان مزيداً من البحث، فلا يمكن الاكتفاء في تقديمه بالقول أن النتيجة الاستقرائية لها درجة عالية من الاحتمال، بل أنه يستلزم تحليلاً للمناهج الاحتمالية، وينبغي أن يكن مبنياً على أسس هي ذاتها مستقلة عن هذه المناهج.أي أن تبرير الاستقراء ينبغي أن يقدم خارج مجال نظرية الاحتمالات، لأن هذه النظرية الأخيرة تفترض استخدام الاستقراء.

والبرهان لا بد أن يسبقه بحث رياضي، فحساب الاحتمالات مركب على صورة نظام للبدهيات، مشابه لهندسة أقليدس.وهذا التركيب يوضح أن جميع بدهيات الاحتمالات هي نظريات رياضية خالصة، وبالتالي أحكام تحليلية، وذلك اذا ما قبلنا التفسير الترددي لفكرة الاحتمال.والنقطة الوحيدة التي يتدخل فيها مبدأ غير تحليلي هي التأكد من درجة الاحتمال، عن طريق استدلال استقرائي. فنحن نجد تردداً نسبياً معيناً لسلسلة من الحوادث الملاحظة، ونفترض أن نفس التردد سوف يسري كما هو تقريباً على بقية السلسلة هذا هو المبدأ التركيبي الوحيد الذي يبنى عليه تطبيق حساب الاحتمالات. ولهذه النتيجة أهمية عظيمة.فمن الممكن التعبير عن الصور المتعددة للأستقراء، وضمنها المنهج الفرضي الاستنباطي، من خلال مناهج أستنباطية، مع أضافة الاستقراء التعدادي وحده. وأن منهج البدهيات ليقدم إلينا الدليل على أن الرياضي في عصرنا يثبت ما كان (هيوم) يأخذه قضية مسلماً بها.

اذا كان هناك نوعاً معيناً من العقلية يسعى إلى البحث عن أسئلة لا يمكن الاجابة عنها،فإن الرغبة في أثبات أن للعلم قدرة محدودة، وأن أسسه النهائية تعتمد على نوع من الايمان لا على المعرفة، هي رغبة يمكن تفسيرها علىاساس علم النفس، ولكنها لا تجد تأييداً من المنطق. فهناك علماء يشعرون بالفخر عندما تنتهي محاضراتهم عن التطور بدليل مزعوم على أنه ستبقى هناك أسئلة يعجز العالم عن الاجابة عليها.وكثيراً ما يستشهد الناس بآراء هؤلاء العلماء بوصفها دليلاً على هدم كفاية الفلسفة العلمية.ومع ذلك فكل ما تثبته هذه الاراء تدعو إلى الاستسلام لنوع من الايمان. أما من كانت الحقيقة ضالته المنشودة فعليه ألا يستسلم لتحذير الاعتقادات المسلم بها، حتى لا تهدأ في نفسه سورة البحث، ذلك لأن العلم سيد نفسه، وهو لا يعترف بسلطة تخرج عن دائرته.

لقد شحن الهواء في هذا الزمان حرفياً ومجازياً بأفكار جديدة، ونظريات لم تثبت بدليل حاسم، وتنبؤات مثيرة. ولم يعد في الامكان أن تجمع رأيك على قرار مرة واحدة ثم تدعه مستقراً مدى الحياة. فالعقل في يومنا هذا أصبح أكثر مما كان آنفاً أداة، وهذه الاداة ينبغي أن نحفظ عليها حدتها ولمعانها بدوام استخدامها في عناية وحرص. ولم يعد التفكير أحتكاراً يسيطر عليه حفنة من رأسمالي الذهن، بل هو اليوم أمتياز وواجب على الكثرة الغالبة من البشر.

إن الصحة وليدة الحياة الرشيدة، والحق وليد التفكير الرشيد. وهذا قول هين على اللسان، بيد أنه عسير حين التطبيق.فأينما ولينا وجهنا وجدنا عقولنا وقد سممتها الصحافة الصفراء،

ودعاة المذاهب، وأدعياء الطب الاجتماعي، وأدعياء الفنون النفسية، وما إلى ذلك من مستحدثات هذا الزمان. وأعظم من هذا وذاك خطراً ما يتهددنا به تأرجح المزاعم والأهواء وما يأخذ بخناقنا ويجثم علينا من الجهل، وما يطيش بنا من رخاوة العواطف.

والتفكير بالمعنى العام نقوم به جميعنا عن طريق الموهبة الفطرية وبتعرضنا لما يثير تلك الموهبة إلى النشاط والعمل فإن على كل منا أن ينافح في سبيل اللقمة مهما كانت الظروف. ووجود ملكة التفكير لدينا معناه وجود النزعة إلى أستخدامها، ولكن وجود النزعة ليس معناه نشاطها المستمر تلقائياً.

إننا لو تركنا لأنفسنا لأكتفى الكثيرون منا بترك أنفسهم للتيار العام يفعلون مايفعله الآخرون ويرددون أقوالهم وكفى. أما التفكير السديد فيقضي جهداً وتوجيهاً للتيار الطبيعي للعمليات الذهنية نحو هدف معين محدد تحديداً واضحاً.

إن التفكير هو أنكباب العقل على مشكلة تحتاج إلى نشاط تعاوني منظم لطائفة من الأفكار، والنموذج الأول لمثل هذا التفكير نجده متخذاً على الخصوص صورة فعل أو عمل، وعمل الاشياء عن تدبر فكري وأهتمام ونية هو التركيز.

والسياق الصحيح للتفكير السليم يتقدم علىاساس من التحسين في طريقة التفكير أو فنيته، وهو يعترف بالعقبات النفسية أو العراقيل ويتخطاها، فتزداد الفطنة والقدرة على البناء العقلي مما يجعل معتقدات الناس العامة التي يعيشون بها فعلاً أمتن بنيانا وأصلب عوداً. بيد أن هذا التقدم غير مطرد، وفي كل مرحلة من مراحله يقوم الاختصام والخلاف، وهذا لا يدل على تهافت المنهج المنطقي في العمل، بل يدل على أن مجالات المعرفة الانسانية تزداد سعة وتشعباً، وتزداد بالتبعية مشكلات الناس تعقيداً، فتختلف فيها الاراء بإختلاف المعرفة أو بأختلاف الاهواء. وكل استزادة من المهارة المنطقية تعود بالفائدة على تفكير الناس وتقلل مدى الخلافات بينهم، وتخفف الاختصام.

الاستدلال عن غير طريق الحواس

ينشد الانسان العربي الحديث الحرية والاصالة ويريد أن يفكر بذهنية علمية منفتحة على المستقبل، في حين أنه لا يزال متأثراً بترسبات عصور الجهل والانحطاط وسجين ذهنية اسطورية منغلقة. وأبرز مظاهر هذه المأساة، تعطل ملكة الحكم الصحيح، والاستعداد الموروث لقبول الافكار والاراء والاخبار من غير تحكيم العقل أو المنطق، أو أبسط الحقائق العلمية في هذه الافكار والاراء والاخبار، سواء أكان مصدرها المجتمع أو البيئة، أو كتاب أجنبي مضلل.

فالبعض يبني أعتقاده بوجود ظواهر لا علمية، على العلم نفسه، أي أنهم يملكون قوة الاستدلال عن غير طريق الحواس، وأنهم يشكلون الطليعة المتفوقة بالنسبة للجنس البشري الاتي، أي أنهم أوائل من يحمل في جسده هذه الطاقة الجديدة الخلاقة وسيأتي بعدهم كثيرون مثلهم يستخدمون هذه القوة غير العادية.

أننا على اقل تقدير نريد أن نفهم ما هو هذا (العلم الذي يقول)، ما هو موضوعه وما هي طبيعته وفي أي كتاب علمي قرأت هذا القول؟ ومن هو هذا العالم الذي طلع بهذه النظرية وبهذا الاكتشاف؟ وعلى أية حقائق ومستندات علمية أرتكزت فقررت مثل هذا القرار الخطير؟ ونريد أن نفهم ثانياً ما هو المقصود بالأستدلال عن غير طريق الحواس؟ونريد أن نعرف ثالثاً ثمار هذا الادراك على صعيد المعرفة النظرية وعلى صعيد الممارسة الحياتية، ونريد أن يذكر لنا رابعاً، أسماء هؤلاء العباقرة المتفوقين، الذين بدأت الطبيعة تنتجهم في هذا العصر، طالما أنها تؤمن بوجودهم؟ونريد أن يذكر لنا الاسس والمبادئ الجديدة التي أقيمت لبناء معرفة جديدة؟ وإذا كان هؤلاء يشكلون الطليعة المتفوقة حقاً فينبغي أن يسمع بهم العالم وأن يعرف عن ظواهر ادراكهم شيئاً وينبغي أن تستعين بهم الشعوب والامم في سبيل تطوير الحياة والمعرفة.

إن غاية العلم هي الكشف عن العلاقات الثابتة التي تخضع لها ظواهر الطبيعة، فهو يقتضي الاعتقاد بأن جميع الظواهر خاضعة لقوانين طبيعية وأنها مقيدة بشروط معينة، حسب

مبدأ هو مبدأ الحتمية الثابت بثبوت النواميس الطبيعية، فقانون الجاذبية مثلاً، موجود وساري المفعول منذ بدء التكوين وحتى الابد، سواء أدركه البشر أو لم يدركوه، وأنه من المستحيل أن يوجد أنسان يمشي في الهواء لأن في ذلك خرقاً لقانون الجاذبية، الذي هو قانون طبيعي ثابت وكذلك، بالنسبة لبقية القوانين.

يقول كلود برنار: (يجب عليناأن نؤمن بالعلم، أي أن نؤمن بخضوع الحوادث الطبيعية لعلاقات مطلقة وضرورية) ويقول أيضاً: (اذا صادفت حادثة متناقضة الظواهر بحيث لا يمكن ربطها ربطاً ضرورياً باحدى شرائط الوجود المعينة، فلا تتأخر عن تكذيبها لأن العقل يرد هذه الحادثة ويعدها غير علمية). وهكذا نفهم أن العلم لا يقر أطلاقاً الاستدلال عن غير طريق الحواس، والانسان ذي الحس الفائق، لأنها ليست في مجال بحثه الاختباري التجريبي. ولا يكفي البعض أن يجعلنا نعتقد أنه مع العلم فنسند إليه الشواهد الخطيرة الكاذبة ونقف على منتهى ما توصل إليه العلم وما يستشفه من آفاق مستقبلية، فإذا هو يضع آماله وآمال البشرية الاتية في تلك القوة السرية الخرافية، فهو أيضاً، على نفس المستوى من العلاقة مع الفلسفة، فتقول عن هذه القوى (لماذا هي لا تدهش فلاسفة الشرق الاقصى الذين يقولون أن في داخل كل أنسان قوة لو أكتشفها لفعل بها المستحيل؟).

إن أشهر فلاسفة الشرق الاقصى بوذا وكونفوشيوس وزرادشت.. هؤلاء (الدراويش) لم يقولوا بوجود تلك القوة السرية الموجودة في داخل كل انسان. ثم أن علم النفس في اخر ما توصل إليه من بحوث واختبارات وكشوف لم يقل بوجود تلك القوة.وكذلك التاريخ لم يذكر لنا، أنه حدث في وقت ما، أن وجد انسان ما، أكتشف في نفسه تلك القوة وعمل بها ما صنعه الحداد.

والذين يكتبون في مثل هذه المواضيع لا يذكرون لنا مصدراً علمياً أو فلسفياً أو تاريخياً يدعم رأيهم، ومع ذلك، فهم يعتقدون أن (العلم يقول) وأن (فلاسفة الشرق الاقصى يقولون..)ألخ. أننا لنسألهم عن مصدر معلوماتهم الثمينة التي لا مثيل لها في ألف ليلة وليلة، وهل هناك (يوغيون) في العالم استطاعوا أن يقوموا بالأعمال التي ذكروها؟ وهل حدث ووجد في التاريخ رجلاً كان يترك جسده عند أصدقائه ويذهب للنزهة بين الكواكب؟أن هذه التصورات الخرافية البالغة حدها النهائي في الخرافة والغباء شبيهة بقصص سوبرمان وطائر الفضاء.

وفي فصول كتابنا هذا تطرقنا إلى موضوع التنبؤ بالمستقبل وهو ليس أمراً مستحيلاً ومقتصراً على اليوغيني (أي من يمارس اليوغا).

والاستدلال من غير طريق الحواس هو معجزة، والمعجزة كما يحكي عنها القرآن والانجيل هي خرق لقوانين الطبيعة بقصد البرهان الحسي على وجود قوة روحية عليا تسيطر على الكون، هي قوة الله! والمعجزة هي بالاصل تدليل على وجود الله بالبراهين الحسية لأن البشر كانوا يطلبون دائماً من الانبياء أن يضعوا أمامهم آية تدل على أنهم مرسلون من لدن الله، وأنهم ليسوا سحرة، والمبارزةالكبرى التي حصلت بين موسى والسحرة كانت من هذا النوع.ولو كان هناك أنسان واحد يتمتع بحس فائق في عهد أحد الانبياء مثلاً، لعرقل جميع مشاريعه، وكان يستطيع وبكل سهولة أن يقنع الناس أنه أيضاً من الانبياء طالما أن برهان الأنبياء هو معجزاتهم، والانسان الذي يكون استدلاله عن غير طريق الحواس أقدر من النبي على صنع المعجزات بإعتبار أنه يملك قوة صنع المعجزات في أي وقت يشاء بينما النبي لا يملك هذه القدرة، ولكانت الغلبة كاملة لصالح الاستدلال عن غير طريق الحواس.

* * *

يمكن ان نشبه الباراسيكولوجي بالاشعة تحت الحمراء، فنحن لا نراها بالعين المجردة ولكن نستطيع أن نراها بمناظير مختلفة، أذن العالم به أشياء محيرة جداً ولكن الانسان محدود بأجهزة لها مدى معين.

بيد أنه توجد قدرات في بعض الافراد تفوق الافراد الاخرين تماماً كما توجد قدرات فنية وذكائية كذلك توجد قدرات التي نسميها ما فوق النفسية ومن أمثلة ذلك توارد الافكار والشفافية ونقل الجماد بواسطة الفكرة، ويوجد معامل حتى في الاتحاد السوفيتي ولكن أتضح من الابحاث أنه لايمكن تدريب الانسان علي ذلك. وعلمياً ممكن تغيير هذه الظواهر، فإذا أعتبرنا المخ جهاز ارسال واستقبال، والمخ مهيأ لأستقبال فكرة والفكرة ما هي إلا موجة كهربائية وأقرب شيء لذلك الأم النائمة عندما يحدث حادث لأبنها تقوم فزعة من نومها وتشعر أن أبنها أصيب بشيء، فجهاز الاستقبال لدى الام مستعد لأستقبال أية أشارة والابن عندما أصيب بالحادث فكر في أمه فأنتقلت الفكرة وعندما نستمع مثلاً إلى محطة اذاعية ما فنحن نلتقط موجات واذا قارنا المذياع مثلاً بالمخ فهو شيء في غاية الضآلة بالنسبة للمخ.

وعلى سبيل المثال قامت مباحث واسعة النطاق لأدراك كنه تلك الحاسة الغريبة التي يتمكن المكفوف والاصم بواسطتها من الاستعاضة عن حاستي البصر والسمع ـ تلك الحاسة التي يسميها بعضهم (الحاسة السادسة) ويسميها غيرهم (الحاسة المعوضة). ومن ذلك ما رواه واحد ممن يوثق بصدقهم وهو أن رجلاً كفيفاً من متخرجي معهد بركنس الامريكي للمكفوفين يدعى (بنسون) ركب ذات ليلة قطار السكة الحديدية راجعاً إلى بلدته، ولما وصل القطار إلى

المحطة التي يجب ان ينزل فيها نزل وسار إلى بيته ماراً ببلاد ريفية، وظل يسير ستة أميال في وسط الحقول حتى وصل إلى بيته من دون أن يستدل عليه من عابر سبيل.

وروت سيدة من أهالي ولاية كونكتكوت أن عمها كان صياداً وأصيب بالعمى ومع ذلك ظل يمارس مهنته فيخرج بالقارب وحده ويبتعد عدة أميال عن الشاطئ حتى في الليل ثم يعود إلى المكان الذي أقلع منه.

ووصف أحد الطلبة المكفوفين القوة الغامضة التي يستعين بها المكفوف على معرفة اتجاهه وتلافي العثرات في أثناء سيره فقال (أنها قوة كامنة توجد في كل أنسان وبواسطتها يميز الاشياء ولو لم يستعمل حاستي البصر واللمس. وأن الاشياء غير العاقلة تنبعث منها مؤثرات غامضة يعرفها الجسم ويعمل بموجبها). وقال أحد المكفوفين (اذا سرت في الطريق فأني أسمع ((صوت)) الشجرة أو عمود المصباح أو ما إلى ذلك فكأن لتلك الشجرة او لذلك العمود صوتا خفيفاً ينبهني على الخطر ويجنبني أياه. فتنقبض عضلات وجهي وتظل منقبضة ما دمت في منطقة الخطر فاذا خرجت منها زال ذلك الانقباض).

إن هذه القوة الغامضة التي يتمتع بها الأعمى هي حقيقة علمية معروفة. وقد روى العلماء أمثلة كثير تؤيدها.وروى أحد الصحفيين الامريكيين أن رجلاً من أهالي مدينة بلونتفيل يدعى بارجر وقد ولد أعمى كان يتاجر بالخيل، وكان لشدة ممارسته هذه التجارة يعرف وقع حوافر كل حصان في بلدته، فكان اذا أقدم الفلاحون راكبين خيلهم يخاطب كل فلاح بأسمه قبل أن يفاتحه هذا بكلمة اذا كان يعرف الفلاح من وقع حوافر حصانه، وليس ذلك فقط بل كان اذا وضع يده على الحصان عرف عنه من الصفات ما قد يخفي على المبصر.

وأغرب منه كفيف آخر يدعى هوكس كان يستطيع معرفة لون الحصان من امرار أصابعه على جلده. وقد علل بعضهم هذه الحاسة الغريبة بقولهم أن بعض الالوان تجعل شعر الحصان ليناً أو خشناً وأن حاسة اللمس ـ كغيرها من الحواس ـ تستدق بحيث يستطيع الاعمى بواسطتها أن يميز بين الألوان.

وفي أواسط القرن الثامن عشر أشتهر في بلدة دمفريز باسكوتلندا رجل مكفوف يدعى ويلسون كان يحمل أعمدة طويلة من الخشب أفقياً على كتفه ويسير بها في شوارع البلدة الضيقة بسرعة مدهشة وهو يتلافى المارة بخفة ورشاقة عظيمتين فلا يمس أحد كأنه رجل مبصر، وكان هذا الرجل يعيش منفرداً وكانت غرفة نومه مرتبة ترتيباً يدل على كثير من حسن الذوق.

ويقول أحد الثقات في مسائل العميان ((أن هنالك أشياء يظهر فيها بعض المكويين بفقد البصر مقدرة فائقة يتعذر تعليلها وهي أدعى الى الدهشة من تمييز الألوان عن طريق لمسها، فمن ذلك أن بعض المكفوفين يستطيعون سلك الخيط في الابرة بأن يضعوا طرف الخيط على اللسان ويضعوا الى جانبه طرف الابرة (من جهة سمها) وبذلك يتمكنون من سلك الخيط في الابرة. ومنهم من يستطيع اصلاح بعض الآلات الدقيقة ـ كالساعة وآلة الكتابة وغيرهما ـ بأن يستبدل بعض الاجزاء الدقيقة بغيرها. وبعضهم يستطيع أن يمر يده على صفحة اعتيادية مطبوعة فيعلم تماماً أين تكون الكتابة وأين يكون الفراغ ويستطيع أيضاً أمرار أصابع يده على هامش تلك الصفحة الأبيض حيث لا توجد أية كتابة)).

ان أمثال الاعمال المدهشة التي أشرنا اليها معروفة عند الكثيرين وبعضهم يأبى أن يعللها بوجود (الحاسة السادسة) في الانسان لأن في أستطاعة أي أنسان أن يكتسبها بطول الممارسة والاختبار، وهي من قبيل الخبرة التي يكتسبها (متذوقو) الخمور أو الدخان اذ يستطيعون أن يميزوا بين اصناف الخمور أو الدخان.وطائفة (المتذوقين) في بعض البلدان يربحون الاموال الوفيرة.

فيما يعلل بعض العلماء قدرة الرجل الكفيف على السير في طريقه بقوة كامنة يسمونها (الذاكرة العضلية). فالكفيف قد يستطيع السير في طريق غير مألوف مسترشداً بتقلص عضلات وجهه وجسمه أو بتمددها وبذكريات مرتبطة بذلك التمدد أو التقلص.

* * *

ويختلط الشعور بالنسبة لما يسمى الشعور عن بعد، فالبعض يعده من قبيل أنتقال الافكار لكنه يحصل على مسافات بعيدة، كما أن هناك حوادث تحصل عفواً كأن يشعر شخص في ساعة معينة بانقباض أو يميل الى البكاء وهو لايدري لذلك سبباً ثم يجد بعد مدة أن في تلك الساعة نفسها مات له عزيز بعيد عنه أو كان في حالة خطرة، والحوادث من هذا النوع غير قليلة.

وربما كانت جمعية المباحث النفسية البريطانية هي أحدى المؤسسات التي خلطت بين (علمية) علم النفس و(غيبيات) هذا العلم، والفكرة التي راجت بين أعضاء هذه الجمعية الأعتقاد الجازم بالأستدلال من غير طريق الحواس. وتذكر احدى نشرات هذه الجمعية حادث جرى بين سيدتين انكليزيتين من أعضائها أسماهما ميلز ورامسدون: أتفقت هاتان السيدتان على تعيين ساعة في كل يوم تنصرف الأولى فيها الى أرسال بعض الافكار لصديقتها والثانية تتفرغ لأستقبالها وهما على مسافة عشرين ميلاً، وأتفقتا أيضاً أن تدون السيدة رامسدون يومياً

ما يصل إليها من الأفكار التي أرادت نقلها في دفتر مخصوص مع ذكر أحوالها الشخصية وقتئذ.فلما كان يصلها كتاب السيدة ميلز المتبوع بما شعرت به كانت تحتسب محتوياته ازاء مذكراتها الشخصية لأجل المقابلة فكانت المذكرتان في الغالب متفقتين.

إن خطورة هذه الظواهر تزداد اذا ما كانت مركبة. مثلاً، معتوه (بركيه عفريت) يقطن بيتاً مسكوناً بالاشباح، فالخسائر في مثل هذه الحال تكون فادحة.

بيد أنه تحدث أحياناً حوادث غامضة تنسب بسبب غموضها من جهة وبسبب طبيعتها من جهة أخرى إلى العفاريت، لأن تفسيرها المنطقي كان متعذراً على (البشرالعاديين). فأحد هذه الحوادث المشهورة وقع في مدينة باريس سنة ١٨٤٥ حيث كانت السلطات حينذاك تقوم بعمليات هدم بين السوربون والبانتيون عندما وصل الهادمون إلى مكان تعذرت مواصلة العمل فيه .. يومها نشرت صحيفة (لاغازيت دي تريبونو) مجلة المحاكم - في الثاني من شهر شباط ١٨٤٦ وصفاً للحادث قالت فيه: (كان يوجد في مكان الهدم بيت يملكه تاجر خشب من طابق واحد. هذا البيت الذي يفصله من ورشة الهدم حاجز عريض كان يضم جدار المدينة القديم، كان يتعرض كل ليلة لسيل من القذائف تسبب خسائر كبيرة بسبب حجمها وعنفها، إلاأن البيت أصيب بثقوب عديدة وتحطمت نوافذه وأبوابه). والجدير بالذكر أن حجم القذائف والمسافة التي تنطلق منها يستبعدان أمكان قيام (أيد بشرية) بمثل هذا العمل، (وهذا ما يؤكد مصداقية القصة).

ويتابع راوي الخبر أنه رغم رقابة الشرطة وكلاب الحراسة، تعذر الاهتداء إلى المعتدين. وقد أجرى السيد دي ميرفيل تحقيقاً تبين بنتيجته أن حجارة مسطحة كانت تدخل من فجوات النوافذ إلى داخل الغرف فتسبب ذعر صاحب البيت. وعدا ظاهرة الاعتداء الخارجي، كان ثمة ضجيج متعدد الاشكال، مثل القرع العنيف الذي يبدو أحياناً من فعل جبار، والخفيف البسيط والركض السريع، وسحب الاثاث، ووقع الخطوات، والصياح والزمجرة وغيرها، كذلك كانت الابواب والنوافذ تفتح بعنف وكان الاثاث يطير ويسحق على الجدار أوعلى الارض!!

وحظ فرنسا من هذه (الخرفنات) كبير، فبين اعوام ١٩٢٥ - ١٩٥٠ عرفت هذه البلاد وحدها ٣٧ تحقيقاً رسمياً حول حوادث من هذا النوع، انما دون نتيجة. ويبدو أن جان باتيست ماري فياني ١٧٨٧ - ١٨٥٩ قسيس مدينة آرس المشهور، قد أختير ضحية للظواهر غير الطبيعية التي عذبته سنوات عديدة أبتداء من سنة ١٨٢٤ في حين أن المعروف أن مثل هذه الظواهر تكون عادة قصيرة الامد. وفي حالة القسيس، كان من البدهي أن ينسب الامر إلى

الشيطان، ولا سيما أن بيت القسيس تحول إلى حلبة لعبث رهيب يتمثل في أصطدامات تحدث ضجيجاً لا يمكن تصوره. وفي بعض الليالي، كانت ستائر سرير القسيس تنتزع وتلقى خارجاً.

أما شارل ريشيه فهو (عالم) ولكنه يؤمن بالاستدلال عن غير طريق الحواس، وقد حفلت مذكراته بكثير من هذه الحوادث (الغامضة).ومما يرويه عن (جولر) المستشار الوطني في مدينة نيدلسدروف أن بيته ظل خلال ١٢ يوماً من ١٥ إلى ٢٧ آب ١٨٦٢ مسرحاً لظواهر غامضة.كانت الموائد والمقاعد تنقلب فجأة، وضجيج رهيب يهز البيت من عاليه إلى أسفله، كما لو كانت هناك عشرات المطارق تعمل معاً. وكانت الصور وغيرها تنتزع عن الجدران وتسقط على الارض، كما كانت اللوحات تقلب بحيث يصبح وجهها إلى الحائط، وكانت الاحجار تتساقط من كل جانب رغم أغلاق الابواب والنوافذ، ثم توالت الحوادث الغريبة أثناء النهار لمدة ستة أسابيع مع صيحات وموسيقى وغناء، وتقليد لصوت تكسير الخشب، وأملاء الساعات.

من القصص الاخرى في هذا الشأن حادثة وقعت عام ١٩٠٨ وكانت ضحيتها اسرة يدير ربهامصنعاً للأثاث في (لوفان).لقد بدأت الحادثة بسرير يفسد توضيبه بأستمرار، فتشكو الخادمة من ذلك، لكن صاحب البيت يسخر منها، فتؤكد أن البيت مسكون، لكن الرجل يرفض أن يصدق. ولما عجزت الخادمة عن أقناعه، وضبّت السرير وخرجت من الغرفة، فتوجه الرجل إلى غرفة مجاورة لتنظيم ثيابه، فإذا به يشاهد في المرآة ملاءات السرير في الغرفة الاخرى تتطاير وتسقط أرضاً، فأصيب بالذعر، وأندفع إلى الخارج لا يلوي على شيء. بعد بضعة ايام وجد في نفسه الشجاعة ليروي على عماله ما جرى، ثم ليجري تفتيشاً جماعياً لكل يحيط بالبيت، وللبيت نفسه.مع ذلك بعد أعادة ترتيب السرير طارت الملاءات والمخدات وسقطت ارضاً،هنا لم يجد الرجل مفراً من استدعاء القسيس الذي راح يتلو الصلوات لكن هذا لم يجد شيئاً. وقد سئلت الخادمة عما اذاكانت تجد الجرأة لتنام على هذا السرير، فأجابت بالإيجاب إلا أنها ما كادت تستلقي عليه حتى راحت تصيح: (لقد جاءوا.. لقد جاءوا!..) وعندما وصل من في البيت إليها وجدوها ملقاة على الارض مع كل ما على السرير. وأستدعى رجال الشرطة، فلم يعثروا على شيء، إنما تفاقمت الحوادث الغامضة. فقد بدأت الابواب الداخلية تغلق ومفاتيحها تختفي.ومرة أضطر رب البيت إلى تحطيم أحد الابواب ليخرج زائراً جاء لزيارته.وفي يوم آخر سقطت مفاتيح الابواب كلها دفعة واحدة على رأس الخادمة أثناء نزولها إلى القبو. وقد أستمر هذا الوضع خمسةأسابيع، ثم بدأ يتراجع بالتدريج حتى توقف نهائياً دون أن يتوصل أحد إلى تفسير منطقي لما حدث.. بعضهم نسب الامر إلى زوجة صاحب البيت المتوفاة.

ورواية أخرى تقول أنه حدث في القرن الخامس عشر أن بيت (الكسندرو) سكنته روح شريرة يصفها الكسندرو بقوله: (كان البيت يمتلئ فجأة بزمجرة رهيبة تشمل الغرف كلها، لكن عندما نقترب من البيت حاملين النور نشعر بوقع خطوات هاربة.ذات ليلة انزلق الشبح تحت سريري.ولما كنت أرى الباب لا يزال مغلقاً فقد صممت على الا أصدق ماأسمع، لكن فجأة رأيت يد الشبح تمتد من تحت السرير وتطفئ نور الغرفة.بعد أطفاء النور بدأ الشبح يقلب رفوف الكتب وكل ما في الغرفة وهو يصدر أصواتاً تجمد أطرافنا لأن الاصوات الحادة أيقظت كل من في البيت. وقد كان النور مضاء في الغرفة التي تجاور غرفتي، لذا شاهدنا خيال الشبح وهو يفتح بابها ويفر منها. الشيء المدهش في هذا كله هو أن أحداً لم ير الشبح سواي، رغم أنهم جميعاً كانوا يحملون الانوار في أيديهم.

في جزيرة جاوة يسمى هذا النوع من الاشباح (غوينوارنا)، وقد سمع حاكم الجزيرة ذات يوم عن كوخ تنهال الحجارة عليه، فأمر بتطويقه برجال الشرطة، وبعد تنفيذ الامر دخل الى الكوخ فتلقى فوراً دفعة من الحجارة وجهت الى صدره مباشرة. ووقع حادث مماثل في (سومطرة) عام ١٩٠٦ حيث كان يقطن ساكن أجنبي يدعى غروتنديك في بيت صغير مع خادمه، وأثناء الليل أحس بالحجارة تتساقط عليه، ولما فتح عينيه لم يصدق مارأى، فقد كانت الحجارة تهبط ببطء، كما لو أنها معروضة على شاشة سينمائية بطريقة التصوير السريع الذي يظهر الحركة بطيئة. وقد أرسل الرجل خادمه ليتفقد ماحول البيت فلم يجد شيئاً، فأضطر الى أطلاق النار من مسدسه، لكن تساقط الحجارة بقي مستمراً وهرب الخادم مذعوراً.

يروي أميل تيزاني في كتاب له عنوانه (وراء الرجل المجهول) بعضاً من تحقيقاته أثناء عمله في سلك الدرك الفرنسي. وقد وضع الكاتب لائحة للحوادث الخارقة التي حقق فيها، وخاصة تساقط الحجارة، ورجع في بحثه الى العصور القديمة، عندما (أمطرت السماء) حجارة سنة ٥٥٠ على بيت (هيليبوس) طبيب (تيبري) أبن الملك مكوفيس، وعندما ظلت الحجارة تنهال ثلاثة أيام متوالية على الغرفة التي كان أمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يحتضر فيها سنة ٩٥٩ . ثم روى تفاصيل الحوادث التي وقعت في مختلف بلدان العالم في النصف الأول من القرن العشرين، وقال أن العلماء والشرطة ورجال الدين والمؤرخين والصحف توافروا على دراسة هذه الظواهر دون أن يتوصلوا الى تعليل منطقي لها.

ويسرد بعد هذا العرض السيد تيزاني اعتماداً على معلوماته الخاصة وتحقيقاته الرسمية، حادثاً نموذجياً قال أنه وقع في بيت السيدة (أ) نتيجة لعمل غير واع أقدمت عليه أبنتها الصغيرة البالغة الخامسة عشرة من عمرها. ويبدأ الحادث عندما قدمت السيدة شكوى الى دائرة

الشرطة، تقول فيها أن ملاءات السرير كانت تشد وتتصلب، ثم تصبح لينة وتتساقط أرضاً، وأن الستارة حول السرير تطول بمعدل ٢٥ سنتمتراً لتلمس الارض ثم تصبح صلبة كالخشب. وأضافت السيدة، أنها قفزت وأستقرت على مقعد جانب السرير. ثم سمعت صوت صدمة، وشاهدت مزهرية موضوعة على مائدة صغيرة تبتعد عن المائدة، وكانت هي وحفيدتها على مسافة بضعة أمتار منها. وقال شاهد آخر، أنه رأى نحو كيلو غرام من السكر يتساقط من فوهة كيس علىالارض دون أن يمسه أحد وعلى مسافة مترين من الام وحفيدتها. أما في اليوم التالي فقد أبلغت السيدة أن حفيدتها لا تستطيع الجلوس على مقعدها، فأرسل شرطي إلى البيت لمعرفة السبب فقرر أنه شاهد أربع مرات على التوالي المقعد يرتفع عن الارض، ويقذف الفتاة ارضاً.(كما لو أن ذراعين غير مرئيتين كانتا تسيطران على المقعد). كذلك شاهد الشرطي حذاءاً نسائياً موضوعاً على رف يرتفع ٢٥٠ سنتمتراً عن الارض يطير من على الرف ويجتاز الغرفة ويسقط على السرير. وشاهد أيضاً سكيناً تسقط على أرض الغرفة تحت المائدة، وكرة من السلك الحديد تسقط قرب السرير. يومها تلقى أميل تيزاني، وكان ضابطاً في الشرطة برتبة نقيب أذناً بقضاء ليلة في بيت السيدة الشاكية.فلاحظ أثناء الليل أن تيار هواء بارداً عصف في الغرفة رغم أغلاق الباب والنوافذ، وأن شيئاً ما كاد أن يلامس الضابط قبل أن يسقط على مسافة أربعة أمتار من وراء السرير. ولما تفحص هذا الشيء وجد أنه عبارة عن طاحونة قهوة طارت من المطبخ.

وفي ذلك طلب الضابط من الفتاة أن يبقى معها فقط حول المائدة المستديرة. وأغلق قفل الباب بالمفتاح؛ لكن بعد قليل، تحطم المصباح المعلق فوق رأسيهما بتأثير وعاء معدني طار من المطبخ وأصطدم به.وبعد حوالي اربع ساعات نهض الضابط، وأبتعد ببصره بضع لحظات عن الفتاة، فإذا بها تمسك بزجاجة وتحاول أن تضرب بها جدتها.ولما سئلت الفتاة عن السبب أجابت: (شيء ما كان يأمرني بأن أمسك الزجاجة وأن أحطمها على رأس جدتي. ولما نظر الضابط إلي، أمرني هذا الشيء نفسه باعادة الزجاجة إلى حيث كانت). وبعد نوم السيدة وحفيدتها، لاحظ الضابط أن الفتاة تمر بأظافر يديهاعلى خشب السرير لتوهم بوجود ظاهرة جديدة، كذلك تظاهرت بالسقوط على الارض.

حين جاء زوج السيدة (أي جد الفتاة) في اليوم التالي، أصيب بالذعر، حيث أرتفع معطفه الذي وضعه على حاجز السلم، وأتجه الى السرير دون أن يلمسه أحد. فقال الرجل لزوجته فوراً:أذهبي من هنا، كل شيء سيتحطم من جديد. وهنا، أمر الضابط بنقل الفتاة الى أحد المستشفيات حيث أعترفت أنها هي التي كانت وراء هذه الحوادث.

وشرح الضابط ذلك أنه كان ينتظر مثل هذا الأعتراف، إلا أنه لا يستطيع أخذه مأخذاً جدياً، فالذي كان يحدث كان يفوق قدراتهاالبشرية، والاهم أن يقال أنها كانت تخضع لتأثير نفساني تقليدي.

فحين عادت الفتاة إلى بيت ذويها وجهت إلى الضابط رسالة قالت فيها:(أريد أن أعتذر لك، مقدرة الجهد الذي بذلته لإعادة الهدوء إلى بيت جدتي، كما أريد أن أعتذر عن الاعترافات غير الصحيحة التي أدليت بها. أنني أعرف جيداً أن كل ما حدث في بيت جدتي أنما حدث بالرغم مني، وخارج نطاق ارادتي، إلا أنه كان يحدث فقط أثناء وجودي في البيت، وكنت فخورة بذلك قليلاً، لذا قلت أنني قمت بكل ما وقع في البيت. أنني لاأستطيع تفسير السبب الذي حملني على الادلاء بهذا الاعتراف فقد كنت أشعر أحياناً بأنني مدفوعة بقوة ما إلى العمل خفية على تنفيذ ما لم أعد أراه يحدث حولي، لكنني لا اذكر أنني أمسكت بالزجاجة وحاولت تحطيمها على رأس جدتي. بالنسبة إلى الحوادث الاخرى أجدني عاجزة عن أيضاح ما حدث).

من الكتب العجيبة و(الطريفة) في موضوعها كتاب (المجهول والمشاكل النفسية) لمؤلفه كاميل فلاماريون.فهذا الكتاب يحوي لائحة بحوادث نسبها إلى عناصر طبيعية تبدو أحياناً مرئية مثل الصاعقة وأحياناً أخرى غير مرئية.فهو يقول: ذات مرة، أنتزعت نار السماء (أي الصاعقة) المفاتيح عن أقفالها ووضعتها في حذاء.كما أنتزعت مرآة من قاعدتها وأنزلتها إلى الارض برفق، وحطمت سريراً وقذفت به خارجاً، أما الاطفال الثلاثة الذين كانوا نائمين عليه فلم يصابوا بأذى، وقتلت امرأة علقت ثيابها على شجرة، وصعقت راهباً وهو على مذبح كنيسة، وقذفت رجلاً في الخمسين من عمره دون أن يصاب بشيء، وأحالت جسم رجل آخر إلى رماد لكنها ابقت ثيابه سليمة، في حين أحرقت ثياب رجل آخر وأبقته سليماً، ونشرت هباب مدفأة على وجوه مجموعة من الاشخاص كانوا يرقصون، وفتتت عقداً ذهبياً على صدر امرأة، وأنتزعت كل المسامير في أحد المقاعد وقذفت بها إلى سقف البيت، وضربت رجلاً دون أن تجرحه، إنما تركت على صدره رسماً لشجرتين موجودتين على مسافة مائة متر منه.

ويشير كاميل هذا بعد روايته لهذه الحادثة أن الطبيعة غامضة في حد ذاتها، وتصرفاتها (أي الطبيعة) أكثر غموضاً وأثارة.

وطالما أن الطبيعة على هذه الشاكلةفلا بأس أن نورد قصةأخرى من هذا القبيل.

في شهر آذار من عام ١٩٦٨ أصيب السيد فاينيل ـ شارع ليمبورغ في فيرفييه ـ بذعر شديد

بسبب قرع عنيف كان يهز البيت كله ويستمر أحياناً ساعة كاملة، فيذع أبنته الصغيرة والخادمة في حالة يرثى لها.

وقد نسب الامر أولاً إلى حفريات تجري في الحي، لكن القرع كان يحدث في الليل بعد توقف عمليات الحفر، فأتهم أهل الحي السيد فيل وهو صاحب مرآب - بأنه هو الذي يفعل ذلك على سبيل الاعلان لمرآبه، لكن أحد رجال الشرطة الذي بات ليلة في بيت الرجل، سمع القرع بنفسه ولمس آثاره، وبالتالي برأ صاحب المرآب من التهمة التي حاول أهل الحي الصاقها به لأنهم لم يجدوا تفسيراً معقولاً لما يحدث بالنسبة لعقولهم.

والقصص من هذا القبيل لا (تصدق) على حسب قول من ينسجها، أو يضع لمسات لوقائعها بشكل (يوحي) أن هناك حوادث واستدلالات من غير طريق الحواس، وربما كان الاسلوب عن طريق استحضار الارواح، كما كان الشأن حين شرع زوجان يشكلان أسرة (دوبون) في القيام بذلك مما جعلهم يواجهون أضطرابات مزعجة أستمرت من ٢٧ أيلول ١٩٦٦ إلى ١١ كانون الثاني ١٩٦٧ . فقد حدث مرة أن تحركت أداة حادة ورسمت صليباً على جبين الزوج، في حين أنتزع بعض شعر زوجته.وحدث مرة أخرى أن تحطمت أطباق الطعام كلها، وقد بلغ ذعر الزوجين المسكينين حداً اصيبا معه بالبكم.وفي النهاية توقفت الظاهرة بحادث مضحك، اذ اصيبت الزوجة بضربة عنيفة على مؤخرتها ومن ثم توقف كل شيء.

المهم في هذه الظواهر كلها، ليس الذعر فقط، وإنما فقدان بعض الناس الثقة بالنفس، وأحياناً السيطرة على الاعصاب. ومن البدهي أن من يعتقد أن بيته مسكوناً يضطر لمغادرته، طالما ظل أعتقاده قائماً لمثل هذه الامور.

* * *

قلنا أننا في دراسة الاستدلال عن غير طريق الحواس يجب أن ننهج المنهج العلمي، فما هو هذا المنهج وما الذي يقضي به؟ على الباحث العلمي أولاً أن يخلي ذهنه من كل رأي سابق لم يقم على اساس التحري، ثم عليه أن يجمع أكبر قدر من الحوادث والوقائع الداخلة في مجال بحثه، حتى اذا أجتمع منها القدر الكاف أمكنه أستخراج قاعدة لتعليلها جميعاً، ثم يعمد الباحث إلى تحقيق هذه القاعدة والتأكد من صحتها فإذا ثبت لديه بالتجربة والاختبار أنها تنطبق على جميع الحالات قررها نهائياً وأعتمدها قانوناً عاماً.

أفرض أني أردس فعل الحرارة في المعادن، فأني شرعت في التجربة بمعادن مختلفة، فإذا

وجدت النتيجة في جميع الحالات تمدد المعدن بفعل الحرارة وضعت مبدئيا هذه القاعدة وهي (أن الحرارة تمدد المعادن) ثم عمدت بعد ذلك إلى توسيع مدى البحث والاختبار والمقابلة حتى اذا تأيد هذا القانون في كل مرة قررته وجعلته في صيغته النهائية.

وبعبارة أخرى أن العلم في تحريه يقطع أربعة أدوار:

١ ـ جمع الحوادث والوقائع.

٢ ـ تعليلها تعليلاً أولياً.

٣ ـ تحقيق هذا التعليل بتطبيقه على حوادث ووقائع منوعة.

٤ ـ تقرير التعليل نهائياً.

وفي الواقع أن الانسان لا يستطيع أن يجزم جزماً قاطعاً (أي موثوقاً بصحته مائة في المائة كما يقال) إلا فيما يتعلق بالحوادث والوقائع المفردة. لنفرض مثلاً أني وجدت قطعة من الحديد تمددت بفعل الحرارة ثم وجدت ثانية قطعة من النحاس تمددت كذلك، ثم في مرة أخرى قطعة من الرصاص، فهذه الحوادث المفردة ثابتة لا شك فيها، ولكني حين أود أن أستخرج منها قانوناً عاماً ينطبق على ما سواها ـ فأقول أن جميع المعادن تتمدد بالحرارة ـ ففي هذه الحال لا يكون حكمي نهائياً ويبقى قولي معرضاً لخطر استكشاف معدن جديد قد يكون له خواص أخرى تلجئ إلى تعديل حكمي السابق أو تقييده بتحفظ.

هذا هو باختصار-وأخشى أن يكون أختصاري مخلاً ـ أسلوب البحث العلمي، وهذا هو الاسلوب الذي يجب أن نتوخاه في دراسة الاستدلال عن غير طريق الحواس.

وأول ما يطلب منا ألا نركن إلى رأي سابق في هذا الموضوع-سواء أوحته إلينا عقائدنا الراسخة أم أميالنا الخفية أم ما تصبو إليه نفوسنا. بل يجب أن نبحث ونجمع الحوادث والوقائع ونحققها التحقيق الوافي، وحينئذ نرى هل يكفي ما أجتمع لدينا من البيانات الموثوق بها لأتخاذ موقف معين.

وينبغي ألا تحول غرابة الشيء دون التسليم به، فمعظم ما نجهله نستهجنه في أول الأمر ولا نتصور صحته إلا بمشقة: افرض أن سائحاً جاء يوماً إلى قوم لاعهد لهم بالمغناطيس وقال لهم أنه أكتشف معدناً له خاصة جذب الاشياء إليه، لا شك أنهم يكذبونه ولا يحفلون بدعواه.

كذلك كان من الصعب على الانسان ـ قبل الاختراعات العلمية التي تمت في مائة العام

الاخيرة ـ أن يتصور شيئاً مما تحقق اليوم وأصبح مألوفاً في حيز الظواهر الطبيعية اذ ليس من شيء خارج الطبيعة وإنما هناك أشياء شملها علمنا الحاضر، وأشياء لم يشملها بعد، ولا بد قبل قبولها بحظيرته من أن تؤدي الامتحان.

وتقودنا هذه الاعتبارات مرة أخرى إلى المسألة التي لا زالت موضع خلاف والخاصة بطبيعة الغرائز البشرية وعددها، والى أي مدى يمكن الاستفادة من تطبيق مفهوم الغريزة على الكائنات الانسانية، وشهد الاهتمام بهذه المسألة مداً وجزراً وفقاً لمدى توفر البراهين الجديدة، فقدم لنا سيرل بيرت بفكرته عن (التحليل العاملي) مساهمة أصيلة، قال بمقتضاها بوجود عاما ((يدعى في بعض الأحيان (ايه) أو الانفعالية العامة بما في ذلك طبعاً من إشارة إلى نظرية ماكدوغال عن العلاقة بين الغريزة والانفعال)) يمثل بالنسبة لكافة مظاهر الانفعالات الغريزية ما يمثله العامل (ج) بالنسبة للعمل الذهني، ويميز الافراد وفقاً لشدة استجاباتهم لكافة أنواع المواقف الانفعالية، وبالاضافة إلى ذلك فقد وجد أيضاً عاملين يمكن أعتبارهما قطبين متضادين وهما يمثلان الانفعال السار وغير السار على التوالي، وهكذا نجد أن آراء ماكدوغال المتعلقة بربط انفعالات كيفية معينة بغرائز معينة تتطلب تعديلاً كبيراً في ضوء ما ظهر من أدلة على سيولة الانفعالات وقابليتها للتبدل، فالخوف يفسح الطريق للغضب، والعناد يتحول إلى خضوع خلال ثوان قليلة.

وقد حاول ماكدوغال محاولة شهيرة لأثبات ما قال به لامارك من توريث الخصائص المكتسبة، فقام بتجربة ليبين كيف يمكن ان تنتقل ردود فعل غريزية بعينها خلال أجيال من الفئران إلا أن نظريته واجهت نكسة أخرى عندما فشلت الولايات المتحدة لإعادة اجراء التجربة على أيدي باحثين آخرين (درو ١٩٣٩) في تأكيد هذه النتائج التي تعتبر اليوم راجعة إلى أخطاء تجريبية.

وهناك ميدان آخر يرتبط بشكل دقيق بطبيعة الغرائز ويجعل من الانسان اسير الاستدلال عن غير طريق الحواس ألا وهو علم نشوء الطبائع، اي الدراسة المقارنة للسلوك لدى الانواع المختلفة، وهو موضوع أثار أهتمام علماء النفس بسبب أهمية نتائجه في فهم المقابلات العصبية للسلوك وكذلك بسبب تشابه تلك النتائج مع الاستجابات التي تظهر أحياناً لدى الانسان، وقد تطور هذا الموضوع من العمل الرائد الذي قام به علماء الحيوان في أوربا وعلى الاخص لورنز وتينبرجن (١٩٥١) اللذان كانا من أوائل من جربوا أثر الظروف المعدلة تجريبياً على الانشطة غير المتعلمة، كبناء الاعشاش والمداعبات الزوجية والعناية بالصغار، وقد ظهر للتو أن

مثل هذا السلوك يشتمل على عناصر نمطية جامدة بدرجة كبيرة بالاضافة الى عناصر مرنة بدرجة كبيرة ايضاً، وأن بعض أشكال الطقوس السلوكية تنتقل من جيل للذي يليه بالضبط كما تنتقل السمات التشريحية للنوع. ولا تتم هذه الحلقات المتتالية المحكمة من السلوك إلا إستجابة لأنماط معقدة من التنبيه فقط، ويبدو الامر وكأن لدى الحيوان ميكانيزم تنفيسي فطري ينتظر الاثارة الملائمة كالقفل الذي ينتظر المفتاح، على نحو ما قال به ماكدوغال، وتضمن (نوعية) المنفس ألا تحدث الاستجابات الغريزية بشكل عادي إلا في الظروف الملائمة فقط. وهكذا فإن الأشكال والحركات والاصوات التي تميز النوع هي التي تستثير وحدها سلوك التزاوج ويمكن التعرف على المكونات الحسية التي تشتمل على (منفس) فعال بالتجربة، ولذلك يكون من المستطاع التوصل إلى أنشاء نماذج تستثير ردود الفعل الغريزية لدى الحيوان، رغم أن النموذج قد يبدو لعين الانسان غير واقعي بدرجة كبيرة.

ومثل هذا الأمر يفتح البحث في هذه الامور الباب أمام عدد من التساؤلات الخصبة، فمن المهم جداً أن نحدد أي نوع من أنواع السلوك يتميز بالمرونة بحيث يمكن تعديله بسهولة باستخدام التشريط وأيها أنماط جامدة. ومن الطبيعي الا تنطبق هذه الاكتشافات بشكل مباشر على الانسان، ولكنها تتعلق بدرجة كبيرة في بعض الاحيان بالمحاولات الرامية إلى فهم العناصر الغريزية في الاستجابات البشرية، ففي مجال السلوك الجنسي، مثلاً، كشفت الدراسات في مجال الحيوان عن عدد من الحقائق الهامة فيما يتعلق بالصلة بين الاستجابات الجنسية والموضوعات التي تثيرها (سواء ما كان منها جنسياً غيرياً أو مثلياً) وكذلك عن الارتباط بين الاستجابات العدوانية ـ الخضوعية وسلوك المعاشرة الجنسية (فوردوييتش ١٩٥٢). فالطريقة التي يمكن للخبرة الفردية بواسطتها أن تربط الاستجابات الغريزية بمثيرات غير عادية تعتبر ذات أهمية قصوى لفهم عمليات التعلم. ومما هو معروف في هذا الخصوص سلوك (التتبع) لدى صغار الطير التي يمكن بسهولة أن تتعلق بالمجرب أو أي موضوع متحرك آخر يحل محل الام الطبيعية، والشيء الملفت في هذه الظاهرة هو أن استجابة (التتبع) هذه لا تحدث إلا اذا قدم المثير في مرحلة محددة تماماً من مراحل التطور (من ١٣ إلى ١٦ ساعة في حالة صغار البط) تلك الملاحظات إلى تجديد الاهتمام بمراحل التعلم الحساسة سواء عند الحيوان أو الانسان فتعلم الكلام بالمحاكاة لدى الاطفال يتم بسهولة أكبر في الفترة ما بين عام وعام ونصف من عمر الطفل، وقد أشار رسل ديفيز (١٩٥٧) إلى حالات من الاضطراب في الكلام مرجعها إلى الصدمة التي تحدث في هذا الطور الحرج، وقد تجمع قدر وافر من الدلائل يبين أنه مع نضج الجهاز العصبي تتغير القدرة على تقبل أنماط التعلم المختلفة، فالأستجابات الشرطية مثلاً يصعب

غرسها والابقاء عليها في الرضع، ومن ناحية أخرى فالرضع الذين يبلغون من العمر ستة أسابيع، كما في حالة أفراخ الطير، يكونوا على أتم أستعداد للإستجابة لأي شيء يمثل الام، بحيث أنه في هذه السن يمكن أستثارة استجابة الابتسام عن طريق استخدام أقنعة (أهرنيز ١٩٥٤). وقد يتكون تعلم الاستجابات الاجتماعية ـ بدرجة كبيرة ـ من التعلق المبكر للأنماط الغريزية بالمنبهات الاجتماعية.

وقد أتضح أن الحيوانات التي تعزل خلال فترة حرجة من فترات تطورها تظل متخلفة دائماً من حيث أستجاباتهاالاجتماعية عندما تستأنف الصلات العادية، فالكلاب التي تستخدم في الارشاد مثلاً يصعب تدريبها ما لم تكن ربيت بأستمرار بين جدران المنزل وفي صلة وثيقة بالناس.

مما ذكرناه يستخلص مدى كون الانسان المتعلق بالاستدلال ماسوشيا ـ ساديا، وبدون أن يدري يعذب الغير ويعذب نفسه من خلال تخيلاته الوهمية وأيخافه الغير ونفسه بحوادث لم تقع حقيقة ، أو أنها وقعت، ولكن حرّف وقائعها خياله المرضّي وجعل اللامنطقي هو الصحيح فإذا هي ارتدادات لخلل نفسي يظهر من خلال الاستدلال.عن غير طريق الحواس.

بين السحر والاستدلال

أتأتي قوة الاستدلال عن طريق السحر..

البعض يعتقد بذلك ويلجأ إلى السحرة في حال فقدان قريب أو مال وغير ذلك.

ويدل هذا على أن الانسان لا يزال يقبل القوى اللامنطقية في حياته، وأن الانسان المعاصر، لا زال يظهر خلالا بقيت من ماضيه البعيد. وكثير من نشاطاته الحاضرة مشتقة من طرق الحياة القديمة جداً، أنتقلت ثقافياً من جيل لجيل.. ولو أنها غالباً ما أنتقلت مشوهة إلى حد كبير.فمثلاً الاحتفال بأعياد (الكرنفال) يمكن تتبع أثرها إلى أندفاعات أساسية في طبيعة الانسان لا تتناسب مع حياة المجتمعات المتقدمة، ومع ذلك فهي تطلب أن تقبل ما بين حين وآخر ولأيام عدة ـ أثناء الكرنفال ـ يسمح للقوى غير المنطقية أن تسيطر على القانون والنظام بصورة رمزية على الأقل.

ومنذ آلاف السنين، وفي العصور القديمة، كان الطبيب الساحر في العصور البدائية يقنع مريضه بأن الارواح الشريرة هي سبب مرضه، ويعالجه باخراج هذه الارواح الشريرة من جسده بطرق كانت تأتي دائماً بنتائج باهرة! وكان الاطباء في القرون الوسطى يقولون لمرضاهم أن هناك خللاً في ميزان السوائل الاربعة التي تكوّن الجسم، ثم يشرعون في (فصد) دماء المريض لأنها أسهل السوائل أستخراجاً.

ويمكن أن يطلق الان على مثل هذه المعالجة اسم (العلاج التأثيري)، وهو يتلخص في أن نعطي المريض تشخيصاً بسيطاً للمرض يستطيع أن يفهمه كسبب لما يعانيه من أضطراب، ثم نقدم له على هذا الاساس علاجاً. وقد يرى البعض في هذا نوعاً من الخداع، ولكنه في الحقيقة نوع من العلاج النفسي بطريق ملتو.

إن عالم السحر عالم عجيب وغريب.. عالم القوى المجهولة الكامنة في داخل الكائن

البشري وخارجه.. عالم تنسجم فيه القدرة على التأثير والايحاء، سواء في الافكار والحواس أو في الاجسام والأشياء(*).

واذاكان بعض البشر يتمتع بخاصية الأفكار والتخاطب عن بعد والتنبؤ بالاحداث وغيرها، فإن السحر شيء آخر يختلف تماماً.

إن المعنى اللغوي لكلمة السحر في اللغة العربية تعني مفاتيح الغيب.. والمسحور هو المخدوع أيضاً، لأنه يرى ما يخالف الحقيقة. فالسحر كما يقول الفخر الرازي (أعلم أن لفظ السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر سببه، ويتخيل على حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله).

وربما كان جهل الانسان القديم بما يحدث من حوله سبباً في أعتقاده في السحر.. فظلام الجهل كان يخيّم علىالغابات الكثيفة والاماكن النائية التي لم يستكشفها بعد.. وكذلك وجود الصحارى الواسعة، والمغارات وغيرها. ولهذا كان السحر يمثل جانباً هاماً وحيوياً من حياة الأقدمين.. فالتمائم السحرية توغلت بعيداً في نهار وليل الانسان القديم، حيث أنها تحرس الزرع من أمراضه وحشائشه الضارة، وهي تعين على جودة الصيد وزيادته، وهي في النهاية تحرس جثة محنطة في أنتظار عودة الروح مرة ثانية في الحياة الاخرى.

إن جهل الانسان كان سبباً مباشراً في دخول السحر إلى الديانات القديمة، حيث استغله الكهنة في التأثير على الشعوب بأسم الالهة التي أخترعوها.. بل وصل شأنه إلى الطقوس الدينية والتضحية والصلاة.. فلا يزال كثير من الصلوات جزءاً من طبيعة العزائم السحرية، التي يتمتم بها المصلي، ويتلوها مرة بعد أخرى وهو مؤمن بهذا التكرار.

والطلاسم واللعنات والدعوات الصالحة هي أمور تطورت عن السحر.

وقد طرق الانسان مسالك السحر المختلفة في محاولته جذب معونة المخلوقات الاخرى غير المرئية، وشهدت الحضارات في سورية القديمة ومصر والهند والصين وأمريكا الجنوبية مشاهد مختلفة قام بها الأطباء السحرة لمعالجة مرضى النفس والبدن ومساعدة المرأة الحامل على الولادة.

(*) جيء لبركيز بكبش ذي قرن واحد في وسط جبهته، وقال أحد العرافين أنه نذير من نذر الآلهة، فأمر أنكساغوراس بفتح رأس الحيوان واظهر للحاضرين أن مخه قد نما في مقدم الجبهة بدل أن يملأ جانبي الجمجمة كلها،فنشأ من نموه على هذا النحو قرن الكبش الوحيد. وقد أثار أنكساغوراس مشاعر السذج بتفسير سقوط الشهب علىأساس القوانين الطبيعية، وأرجع كثيراً من الشخوص الاسطورية إلى تجسيم المجردات العقلية.

اذن السحر قديم في حياة الانسان وله أنواع مختلفة، أي أن له طرقاً متعددة الوسائل والأغراض. فهناك نوع من السحر يقوم على عبادة الكواكب وأستغلالها، أوأستغلال طاقاتها الخفية في قضاء الحاجات. وهذا النوع من السحر عرف في حضارة الاشوريين في شمال العراق، في آشور ونينوى، وكذلك وجد في حضارة الكلدانيين في بابل.

وهناك سحر يقصد به التأثير في الأجسام والأنفس، ذلك أن ما يؤثر في النفس يؤثر في الجسد، والعكس بالعكس، والساحر هنا يملك وسيلة تأثير خاصة يؤثر بها في نفس وجسد الشخص المراد سحره، ويكون التأثير حسب قدرة الساحر الشخصية ودرجة علمه في علوم السحر، والنوع الثالث من السحر هو الذي يستعان فيه بالمخلوقات غير الآدمية مثل الجن أو الارواح الشريرة وغير ذلك.

وتطور السحر في العصور الوسطى إلى حيث كان السحرة يصنعون تماثيل صغيرة تشبه الشخص المراد التأثير عليه، ثم يضعون فيها مجموعة من الأبر.. كل واحدة منها تمثل هدفاً أو غرضاً من أغراض الساحر.

وكان هنود أمريكا الجنوبية في بيرو القديمة يحرقون الدمى أو العرائس الصغيرة التي تمثل أشخاصاً بعينهم. وكانوا يسمون ذلك (أحراق الروح)، وهذا يعني أصابة المسحور بضرر شديد يقترب من الموت!(*)

واذا كان السحر قد بدأ بالخرافة، فإنه أنتهى في العصر الحالي إلى أن اصبح فرعاً من العلوم.. فإن أغلب سكان العالم المتحضر في أوربا يلبسون التمائم والمداليات، ويضعون حدوة الفرس على مدخل بيوتهم، ويؤمنون بالابراج، معتقدين في قدرتها على مساعدتهم وحمايتهم!

ويعود أكبر الفضل لابقراط وخلفائه في أنهم حرروا الطب من الدين والفلسفة.. نعم أنهم يشيرون في بعض الاحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء، كما نرى ذلك في كتاب (التنظيم)، ولكن النغمة السارية في صفحات المجموعة كلها هي وجود الاعتماد الكلي على العلاج الطبي. وتهاجم رسالة (المريض المقدس) صراحة النظرية القائلة بأن الأمراض ترسلها الالهة، ويقول مؤلفها أن للإمراض جميعها عللاً طبيعية بما في ذلك الصرع نفسه الذي يفسره الناس بأنه تقمص الشيطان جسم المريض(وما زال الناس يعتقدون بأنه من عند الالهة لعجزهم

(*) يعتقد الهنود في أدغال البرازيل أن أحدهم اذا ضل الطريق في الغابة فإن مخلوقاً نصفه رجل ونصفه طائر ينقذه ويحتفظ به في عشه ثم يحمله فوق منقاره ليعود به إلى أهله، ويسمون هذا الطائر بـ(الأناقو). ويحاول الهنود في هذا الاعتقاد أن يفسروا ما يستعصي عليهم فهمه أحياناً.

عن فهمه، ويتوارى المشعوذون والدجالون وراء الخرافات ويلجأون إليها لأنهم لا يجدون علاجاً ناجعاً لهذا الداء، ومن أجل هذا يطلقون عليه أسم المرض المقدس حتى لا ينكشف للناس جهلهم الفاضح).

وهناك حقيقة أخرى، وهي أن بعض كبار علماء البشرية قد بدأ حياته بتعلم السحر، ولكنه تحول بعد ذلك إلى فروع العلم الاخرى، بعد أن صادف نقطة التحول الخطيرة التي توقف عندها ليحول مساره. فمثلاً أسحق نيوتن العالم الفذ، كان يدرس علم التنجيم من أجل السحر، وقد لقى بعض الصعوبات في تلك الدراسة، مما جعله يتوقف كثيراً عند ظواهر الكون، وخلال تلك الوقفات قدم للانسانية أجمل وأعظم القوانين حتى الآن. وقد حدث نفس الشيء بالنسبة للأطباء السحرة وعلماء المعادن وعلماء الفلك الذين كان أغلبهم يدرسون علم التنجيم، ومن ثم فُصِلَ التنجيم عن علم الفلك وأصبح الاخير علماً صرفاً قائماً بذاته.

وقد أشتهر الشرق بسحره الخاص، بعيداً عن سحره الطبيعي، كما أشتهرت مناطق الهند المختلفة بالأنواع العديدة من السحر والسحرة، وكانت لهم كتب تسمى أسفار الفيدا(*)، أي كتب المعرفة.. وأهم هذه الاسفار هي سفر اتارفا، ومعناه كتاب معرفة السحر والرقي. وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى أنه يؤكد أن للسحر أصولاً وعلوماً.. ويرجع تاريخه إلى أكثر من خمسة آلاف عام قبل الميلاد! وهو وغيره من كتب سحر تبين أن الساحر لا بد أن يلم بعلوم ومعارف أخرى، وأنه لا بد أن يمارس العديد من التجارب الشاقة قبل أن يصبح ساحراً حقيقياً. فالأدوات المعدنية التي صيغ بعضها من الذهب والنحاس والالمنيوم والفضة وغيرها، التي يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد بآلاف السنين، تؤكد أن من المستحيل على الصانع في تلك الأيام أن يقدم تلك التحف الغنية النادرة مستخدماً الوسائل المتاحة الصناعية فقط! فالمشغولات الذهبية في تركة توت عنخ آمون تؤكد تقدماً مذهلاً في عالم الصياغة لا تتيحه الآلات البدائية المستخدمة. وفي العراق مثلاً توجد آنية من الفخار يتولد فيهاتيار كهربائي اذا وضعت فيها كمية من الماء.. وغيرها الكثير.

قلنا أن الهند أشتهرت بأنواع مختلفة من السحر والواقع أن كل شيء في هذه البلاد أختلط فيه السحر.. بداية، بالطب وإنتهاء بالفقرا.

(*) فلسفة البراهمة أو الفلسفة الفيدية، هي التفكير الديني الفلسفي الذي تشتمل عليه أسفار الفيدا الأربعة، وهي كتاب الريفيدا المحتوى على الأغاني الدينية، وكتاب الساماڤيدا وفيه الاناشيد والادعية المأثورة، وكتاب الياجورفيدا ويشتمل على الأدعية والصلوات المستعملة عند تقريب القرابين، وكتاب الاثرفافيدا وهو عبارة عن ادعية وتسابيح وتعاويذ عن كل ما يرجع إلى السحر من تمائم وعزائم وطلاسم وتعاويذ.

وتروي الكاتبة المصرية نفيسة عابد قصة الصحفي الانكليزي الذي سافر إلى الهند لأول مرة، حيث شاهد هناك الساحر الذي يمسك بالبوق لينفخ فيه فيرفع الحبل الممدد على الأرض ليقف منتصباً في الهواء ثم يتسلقه الطفل الصغير، ويتبعه الساحر ومعه سكين، ويبدأ الساحر في قذف أعضاء الطفل إلى الأرض وهي مضرجة بالدماء، مما يعني أنه قد قطعه ارباً. ثم ينزل الساحر وينفخ في البوق لتجتمع أعضاء الطفل الذي يعود إلى الحياة مرة أخرى.ويعود الصحفي الانكليزي إلى فندقه وهو مذهول، ولا ينام الليل، وفي الصباح يقرر أمراً، فيحمل كاميرته السينمائية ويخفيها بين ملابسه ويسجل بها الحدث الذي يقوم به الساحر في عرضه اليومي. وعندما يذهب إلى الفندق يدير الشريط في لهفة ليتأكد مما شاهده، وتكون المفاجئة المذهلة، وهي أن الشريط يعرض خالياً، وليس فيه سوى الحبل الممدد على الارض وبجانبه الساحر والطفل في سكون تام! ويكون هذا الشريط الخالي أكبر دليل في ذلك الوقت على أن السحر يخدع المشاهد في ظاهرة الاشياء وليس في طبيعتها.

وفي غمرة طفرة السحر على البشر، نهى الاسلام عنه باللجوء إلى السحرة.وقد قر رأي أغلب المفسرين وعلماء الاسلام علىأن الساحر يعتبر كافراً اذا أرتكب بسحره ما يؤدي إلى الكفر، وأنه في أقل الحالات شأناً يكون مرتكباً لكبيرة من الكبائر وعاصياً شديد العصيان، وفي ذلك تبعاً لطريقة استخدامه للسحر والهدف الذي يرمي إليه. والقرآن الكريم يقدم لنا صورة الساحر في أطار الانسان الفاشل الذي يجانبه الصواب (ولا يفلح الساحر حيث أتى).. ولذلك فأغلب السحرة يصادفون أهوالاً في حياتهم.

وتروى قصة عن محاولة سحر الرسول عليه الصلاة والسلام، خلاصتها أن لبيد بن أعصم اليهودي سحر للنبي الكريم في أحدى عشر عقدة.. وفي وتر رماه في بئر أسمها ذوران، ومكث الرسول يشكو من آلام جسده ثلاثة أيام حتى آتاه جبريل ليروي له القصة.. فأرسل عليا عله السلام ومعه طلحة رضي الله عنه وأحضر السحر.وكلما قرأ النبي آية من المعوذتين أنحلت عقدة وذهبت بعض آلامه الجسدية.

لكن جمهور المعتزلة أنكر هذه القصة.. على أن أغلب المفسرين رواهاعلى أن سحر اليهودي لم يؤثر إلا في جسد الرسول الكريم دون أن يؤثر في عقله وروحه ونفسه، لأن الثلاثة الاخيرة لها دخل كبير في أداء الرسالة علىأكمل وجه وهو ما نعله الرسول الكريم بينما خضع جسده الشريف لما يخضع له البشر من الألم والمرض.

إن العديد من الادعية كان الرسول الكريم يقولها لأصحابه وأهل بيته، منها أنه كان يعوذ

الحسن والحسين رضي الله عنهما قائلاً: (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة). وأيضاً: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق..وهو السميع العليم). وقالت عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أشتكى ألماً في جسده قرأ قل هو الله أحد والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها مكان الألم) .

وفي سورة طه، يقدم لنا القرآن الكريم قصة موسى مع فرعون وقومه.. وهي قصة مثيرة من الناحية الدرامية، وفي نفس الوقت تقدم لنا شرحاً وافياً للسحر، والفرق بينه وبين المعجزة السماوية..

قال تعالى:

﴿وماتلك بيمينك يا موسى. قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. قال ألقها يا موسى. فألقاها فاذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ صدق الله العظيم.

إن فرعون الملك الاله الجبار له جمهوره من السحرة الأفذاذ الذين يقدمون إليه كل ما يريد.. وأكثر!

وموسى كنبي ورسول لا بد أن تكون معجزته ـ التي تؤيد دعواه ـ فيما يتفوق ويتميز به أهل مصر، وهو السحر..

والحقيقة هي أن الآيات تحتوي علىمعان كثيرة تلفت النظر وتستدعي الفكر والتأمل.. فالله سبحانه وتعالى يعلم تماماً ماذا يحمل موسى في يده اليمنى، فلماذا السؤال اذن؟

يقول العالم العربي الكبير الفخر الرازي في كتابه مفاتيح الغيب! أن الله أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً. والسؤال هنا للتذكير والتأكيد على تفاهة العصا أولاً.. فالله سبحانه وتعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك المعجزات الكبرى كقلبه بها حية وكضربه البحر حتى أنفلق، وضربه الحجر حتى تفجر منه الماء.. عرضها أولاً على موسى وكأنه يقول له: هل تعرف حقيقة هذه العصا وأنهامجرد قطعة من الخشب لا تضر ولا تنفع؟.. ثم بعد ذلك يقلبها ثعباناً هائلاً. وبهذا الشكل تنبه الله سبحانه وتعالى الاذهان إلى كمال قدرته، بحيث يظهر آية عظيمة من أهون الاشياء وأصغرها عنده. ويقال أيضاً أن هذا السؤال ينبه لموسى نفسه حتى يذكر أن العصا قطعة من الخشب، فإذا قلبها الله ثعباناً فلا يخاف منها. ويقال أيضاً أن حكمة قلب العصا إلىحية في ذلك الوقت حتى يعرف موسى أنها معجزته التي تؤكد نبوة نفسه

بالدليل المادي.. و(قال خذوها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى)، واذا كان موسى قد أدرك أن الله قد حفظه بتلك المعجزة الكبيرة فلماذا خاف؟ يقول بعض المفسرين أنه لم يسبق له أن شاهد قبل ذلك قط، فهذا أمر يخالف المعقول وما تفكر به العقول.

وقد قال الشيخ أبو قاسم الانصاري ان خوف موسى يعتبر من أقوى الأدلة على صدقه، لأن الساحر يعلم ان الذي يمارسه نوع من الخداع والتمويه فلا يخاف منه، خصوصاً وأنه من عمل يديه. إن معجزة موسى هي من فعل الله وحده.. واذا كان أنقلاب العصا إلى حيةمعجزة، فإن عودتها إلى حالتها الأولى معجزة أيضاً، وتوالى المعجزات هو الدليل الاقوى.

ويأمر الله تعالى عبده ورسوله موسى بالذهاب إلى فرعون لأنه طغى، فيطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره، وشرح الصدر كما قال رسول الله نور يقذف من القلب، فقيل وما أمارته؟ فقال: التجافي عن دار الغرور والانابه إلى دار الخلود. ويذهب موسى وهارون يحملان الرسالة إلى فرعون، ويسجل القرآن الكريم في سورة طه حواراً رائعاً طرفاه فرعون الملك الاله المتكبر المدعي صاحب السلطان والحول والطول، والطرف الاخر النبي موسى وأخوه هارون يحملان الرسالة والدليل والبرهان، يؤيدهما الحق تبارك وتعالى.. وتتوالى الاحداث وتتصاعد حتى يتفق أتباعه، ويقال أن عددهم كان أثنين وسبعين ساحراً، وقيل أنهم كانوا أربعمائة، وربما أكثر من ذلك.

ويبدأ السحرة في شن هجوم جديد هو أقرب إلى الحرب النفسية فيقولون عن موسى وهارون أن هذان لساحران وهذه محاولة منهم للتشكيك في معجزة موسى بأنه ساحر هو وأخوه.. والنفس تنفر من السحر وتكره رؤية الساحر، كما أن الناس تعلم أن السحر لا بقاء له إلا لفترة محددة، فهل يتبعون موسى اذا كان دينه ومذهبه يقوم على تأييد السحر؟ أي أنه لا بقاء للدين الذي جاء به.. ومن اللافت أن الذين يذمون السحر هم السحرة؟

لنقرأ الآتي ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن تكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لاتخف أنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنماكيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ صدق الله العظيم.

إن السحرة يمارسون مع موسى نوعاً من آداب المهنة يحمل في طياته الثقة الزائدة في قدراتهم فيعرضون عليه أن يلقي عصاه أولاً. ويقابل موسى هذا الأدب مثله فيقول (بل ألقوا).. ويلقي السحرة حبالهم وعصيهم ويخيل إلى موسى من شدة أجادتهم لفنون السحر أنها

تتحرك.. ويدخل الخوف إلى قلب موسى، ويختلط المفسرون في سبب أو تعليل هذا الخوف.. فقد أعطى الله موسى الشيء الكثير: كلمه أولاً ثم بيّن له معجزة العصا واليد.. وأعطاه الاقتراحات الثمانية وقال له (أنني معكما أسمع وأرى).. اذن النبي موسى لايخاف على نفسه، ولكنه يخاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه من سحر سحرة فرعون، ويختلط عليه الأمر فلا يدركوا أن هذا مجرد سحر، أي خيال وخداع بصر، وليس تغييراً للحقيقة.

والآية التالية (قلنا لا تخف أنك أنت الأعلى) تدل على أن خوفه كان راجعاً إلى أحتمال عدم فهم الناس لحقيقة مايحدث أمامهم، فالمسحور كالمخمور مخدوع الحواس.

وحين يلقى موسى بعصاه تتحول هذه إلى حية كبرى تبتلع كل ما قدمه السحر فألقى السحره ويلقي موسى بعصاه فتتحول إلى حية كبرى تبتلع كل ما قدمه السحرة (فألقى السحرة سجداً)، ويعلم السحرة أن حقيقة الأمر قد ظهرت.. ولأنهم كانوا يمثلون أعلى مستوى من ممارسي السحر فقد أدركوا الفارق الهائل بين المعجزة السماوية التي تخرق الناموس وتغيير حقيقة الاشياء.. عمليات سحر الاعين وتغيير ظاهر الاشياء التي يقومون بها.. ولذلك فقد سجدوا لله من فورهم - وكأنهم ألقوا إلى الارض - قبل أن يدرك فرعون حقيقة ما يحدث حوله، مما أفقده صوابه فعمد إلى تعذيبهم.

واذا كان موسى النبي قد بيّن لأبناء طائفته من اليهود أن الساحر لا يفلح وأن الايمان بالله يقتضي البعد عن السحر، فإن اليهود مع ذلك هم أكثر شعوب الارض أقبالاً على السحر، أشتغل به عدد كبير منهم وكأن شيئاً لم يكن.. ثم جاءت فترة نبوة سليمان بن داوود وكان اليهود لا يعترفون به نبياً من أنبياء الله، ويعترفون له ملكاً عظيماً من ملوكهم!.. وفي عهد سليمان بدأ اليهود يتعلمون السحر ويتبعون ما تتلوه عليهم شياطين الانس والجن من الخارجين على حدود الله. وزادت كتب السحر وطرائفه، وقيل أن الشياطين كانت تلقن أحبار اليهود قواعد السحر، ويدعون كذباً أن سلطان سليمان على الجن والطير والريح والبشر أيضاً كانت تقوم على تلك الأسس السحرية المدونة في كتبهم، وهي الكتب التي تداولها اليهود بعد ذلك في كل مكان، وكانت تعد سراً من أسرار قوميتهم.

أما فخر الدين الرازي فقد نفى أن ما أنزل على الملكيين في بابل هو السحر كما قالت الشياطين، فالذي ينزل من السماء هو شرع الله والدين والدعوة إلى الخير، ولا يمكن أن تزيل الملائكة أي أنواع السحر. وقد ذكرت الروايات اليهودية قصصاً طويلة غير حقيقية عن أسباب نزول الملكين إلىالارض.. قالت أحداهما أن الملائكة أستنكرت سلوك الانسان على الارض

فأراد الله أن يبتلي الملائكة الذين أختاروا ملكين من أعظم الملائكة علماً وورعاً لينزلا إلى الارض بعد أن تضاف إليها شهوات الانسان. وفي أول يوم تقابلا مع امرأة جميلة أسمها الزهرة جعلتهم يرتكبون كل الكبائر في أسرع وقت.. ثم أن الملكين قد ندما وطلبا العفو من الله وأختارا عذاب الدنيا بدلاً من عذاب الاخرة وهمامعلقان في أحد الكهوف في مكان بابل القديمة.

هذه الروايات وغيرها من أختراع اسرائيلي، شأنه شأن أغلب الروايات التي من هذا النوع والتي تحفل بها كتبهم، مثل العهد القديم وغيره.وقد أختلف المفسرون في سبب نزولهما إلى الارض.. بعضهم قال أن السحرة قد كثرت في ذلك الزمان، وكانوا يدعون النبوة فأرسل الله الملكين إلى الارض ليعلما الناس أن السحر غير المعجزة، أو أن تعليم السحر كان لضرورة محاربة السحرة بسحر آخر مضاد، وأن الملكين كانا يحذران الناس قبل أن يعلماهم بأنه فتنة ويحذران من الكفر.. أي من أستخدام السحر في الاضرار بالغير، وقال بعض المفسرين أن الملكين كانا يعلمان البشر أنواعاً من السحر ليواجهوا بها سحر الجان.

لقد سجل اليهود أيضاً عدداً كبيراً من الكتب التي تشرح وتعلم أصول السحر وفنونه التي أخذوها عن قدماء المصريين وغيرهم. ويقال أن القبائل التي كانت تحرس هيكل سليمان في القدس كانت تحتفظ بالعديد من تلك الكتب، وعندما هدم الهيكل هاجرت باقي القبائل إلىأماكن مختلفة ومنها أوربا. وقد سجل نوستر داموس ذلك في كتاباته ورباعياته المشهورة، لأنه شخصياً كان آخر تلك السلالة.

وكتب السحر كثيرة ولكن من أشهرها كتاب (الفلاحة النبطية) وهو الذي ترجمه قدماء المصريين عن كتب بابل وآشور، ثم ظهر بعد ذلك كتاب (صحف الكواكب السبعة) وكتاب (طمطم الهندي).ويقال أن جابر بن حيان العالم الاسلامي الكبير قد قرأ تلك الكتب السحرية أثناء فترة أهتمامه الدراسية، وأنها كانت معيناً له بشكل ما في تدوين كتبه عن الكيمياء وأسرارها. وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن محمد بن مسلمة المجريطي - وهو أحد علماء الأندلس في علوم السحر - قد لخص تلك الكتب السابقة ونقاها من الشوائب وقدمها في كتاب أسماه (غاية الحكيم).

إن الفرق بين الشعوذة والسحر هو أن الاخير عمل بشيء فيه مناقضة لنواميس الطبيعة وخروج على قيودها. والمراد منه في الغالب، أخراج الباطل في صورة الحق. وفي بعض كتب اللغة أن السحر هو ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الانسان.. على

أن العلم ينكر السحر لأنه يقوم على مخالفة نواميس الكون، فإذا كانت هذه المخالفة وهمية، أو من قبيل الخداع البصري فهي الشعوذة والخفة.

وقد درج الناس على أعتبار السحر والشعوذة شيئاً واحداً، وهو خطأ يجاريهم فيه الكثيرون من الكتاب. وفي الحقيقة أن الساحر يعتمد على قوى غيرمنظورة، سواء أكان هو نفسه يؤمن بتلك القوة أم لا يؤمن بها، وأما المشعوذ فلا يعتمد إلاعلى الخداع وخفة اليد.

والأرجح أن السحر وجد قبل الشعوذة وأنه تحول إليها بمرور الزمن، وأثر السحر ظاهر بين جميع الشعوب البدائية، فلا تجد قبيلة من القبائل المعروفة في البدائية إلا ولها ساحر تحترمه وتنقاد وراءه. بل لقد كان الساحر أوالعراف قديماً، زعيم القبيلة وسيدها المطلق، وهذا ما جعل زعماء القبائل يلجأون إلى الخداع والمخاتلة لضمان زعامتهم على قومهم، وبمرور الزمن أدرك الناس أن مخالفة النواميسس الطبيعية غير ممكنة، فالشمس لابد أن تشرق في النهار، والنار لا بد أن تحرق ما يلقى فيها، والحديد لا بد أن يغرق في الماء، والسم لا بد أن يقتل من يتناوله، فإذا حدث ما يناقض جميع ذلك فهو شعوذة لا شك فيها.

ولإيضاح ذلك نقول على سبيل التمثيل أنه لما ذهب كولمبوس إلى أمريكا، في القرن الخامس عشر، توغل بعض رجاله بين قبائل الهنود الحمر، فهجم عليهم هؤلاء ليفتكوا بهم، وكان البعض يعلمون أن الشمس ستكسف ذلك اليوم، فتهددوا الهنود أن هم مسوهم بسوء بأن يطلبوا من (معبودهم) الشمس أن يغضب عليهم! وما هي إلا دقائق حتى بدأت الشمس تكسف، فذعر الهنود وأستولى عليهم الهلع، وخيل إليهم أن اولئك البيض آلهة، فأطلقوا سراحهم وأستغفروهم وقدموا لهم هدايا وتحفاً كثيرة، ولا يزال بعض هنود أمريكا إلى هذا اليوم يتناولون قصة الآلهة الذين زاروا بلادهم من أحقاب كثيرة وكسفوا الشمس!

إن عمل اولئك البيض لم يكن سحراً، اذ لم يكن فيه خروج على نواميس الطبيعة، مع ذلك اعتبره الهنود سحراً ولعله أقرب إلى الشعوذة منه إلى أي شيء آخر، اذ ليس من الشعوذة ما هو مناقض لطبائع الاشياء.. إلا أن المشعوذ يستغل معرفته لتلك الطبائع ويستعين بخفة يده ومهارته على خداع الناس.

ومما يدل على ما كان لكلا الساحر والمشعوذ من مقام عند الاقدمين (ولم يكن هؤلاء يفرقون بينهما)، أن الملوك في الازمنة الغابرة كانوا يحيطون أنفسهم بالسحرة والعرافين. وفي التاريخ أن اسكندر ذا القرنين اذا أراد الخروج إلى الحرب أستشار السحرة والعرافين، وكذلك كان يفعل الروم والرومان والفرس وغيرهم. وفي الحقيقة أنه ماكان أولئك السحرة يستطيعون

الاحتفاظ بما لهم من سلطان على الملوك والاقيال إلا بالتجائهم إلى الخديعة والشعوذة. وكانوا يحتاطون لتكون شعوذتهم بمأمن من الفضيحة بأن يقولوا أقوالاً أو يتنبأون تنبؤات يسهل تأويلها كما يريدون مهما كانت النتيجة.

لقد كانت الشعوذة ولا تزال مرتبطة بالتنجيم أرتباطاً وثيقاً، فكان الطبيب في أطوار الإجتماع الأولى مشعوذاً يستعين بقليل من الخبرة وبكثير من الدجل والخداع.. فكان اذا دعي لعيادة مريض عمد إلى وصف بعض الاعشاب والمواد وإلى أستطلاع النجوم والافلاك، وتنبأ بما سيكون من أمر العليل. لهذا كان لشخص الطبيب، عند الاقدمين، حرمة كبيرة، وكان الناس يظرون إليه كما ينظرون إلى شخص مقدس يجب الخضوع له في كل شيء. وكان الطبيب، أوالمشعوذ، يرث مهنته عن أبيه ويورثها لأبنه، ومن ثمة نشأت طائفة الكهان والعرافين الذين لم يكونوا في الحقيقة سوى دجالين مشعوذين. نعم أنهم كانوا، في أقدم عصور الاجتماع، يؤمنون بإخلاص لما لهم من قوى خارقة للطبيعة، ومع ذلك أحتفظوا بما لهم من سلطان بفضل ما لجأوإليه من ضروب الحيل والخداع. ويقول علماء النفس أن أولئك المشعوذين كان لهم، في عدة مواقف، فضل على قومهم لما كانوا يوقدونه فيهم من نار الحماسة وما ينفخونه من روح الشجاعة والاقدام. وتفصيل ذلك أن قادة الجيوش الاقدمين كانوا اذاخرجوا للحرب والقتال يستشيرون السحرة والكهان، ويذيعون ما يقوله هؤلاء بين الجنود ليشجعوهم ويستثيروا حماستهم.

في التوراة أن شاول ملك اليهود استشار روح صموئيل النبي فيما سيؤول إليه امره من محاربة الفلسطينين فأنبئ بأنه سينكسر وبأن جيشه سيهلك، ومع ذلك لم يعبأ فكانت آخرته وبالاً عليه.وليس هذا مجال البحث في كيفية استشارة روح صموئيل،وإنما نقول أنها تمت على يد عرافة مشعوذة. وكان هو نفسه (أي شاول) قد قطع داير العرافين في مملكته، ولعله أول ملك في التاريخ حرم العرافة والسحر والشعوذة، فقد كانت هذه المهنة كثيرة الشيوع، بل كانت من مستلزمات الاجتماع في العصور الغابرة.

ومن المعروف أن النساء الرومانيات كن كثيرات الشغف بالإلتجاء إلى المشعوذين لأستطلاعهم حظوظهن. ولسنا نعلم جيلاً من الناس لم تلجأ نساؤه إلى الدجالين والمشعوذين لاستطلاع أنباء الغيب والكشف عن المستقبل، فإن مثل ذلك الاستطلاع في خلق المرأة منذ أقدم أزمنة التاريخ..

ورغم قسوة عقوبة السحر ـ وهي الحرق بالنار ـ فقد ظلت ممارسة السحر تنتقل من جيل

إلى جيل في حرص وسرية كما تنتقل المخدرات من مكان إلى آخر.. وإن كانت تلك العقوبة قد ألغيت في أواخر القرن الثامن عشر، مما أتاح الفرصة مرة أخرى ليلعب السحرة بدون أقنعة.

إن قوة الاستدلال من السحر تجعلنا نقول أن علل التصديق في الحياة اليقظة تشبه في معظمها علل التصديق في حالة الاحلام أو حالة الجنون أو حالة النوم المغناطيسي، ولكنها بطبيعة الحال لا تشبهها تمام الشبه.. فثمة جرثومة عقلية تصنع كل الفرق، ولكن العقل من علل التكذيب لا من علل التصديق.. ذلك بأن (الايمان البدائي) يقدم كل ما هو أيجابي، والعقل لا يقدم إلا ما هو سلبي. والعلم بوجه عام شجرة تنمو في تربة الايمان البدائي، ولكن يشذ بها مقص العقل.. والدور الذي يؤديه علم النفس البدائي هو ما أخذ علم النفس الحديث في فهمه.

ويمكننا أن نترجم ذلك لما حدث لـ(شتاينماير)

كان في السادسة والثلاثين من عمره يعمل تاجراً في بيع الخردوات بإحدى المدن في مقاطعة هواشتاين. ولتركه التجارة وقيامه (بصناعة الشفاء) قصة لا تقل غرابة عن صناعة السحر.

فقد رأى في طريقه صديقاً قديماً، لم يره من عهد بعيد، يمشي متثاقلاً وقد خط الالم على وجهه أشائر الأسى فكان في منظره يثير أقسى القلوب بالشفقة والرحمة: إن هذا الصديق أصيب سابقا بالروماتيزم الحاد فلم ينجح في شفائه أي دواء، رغم زيارته للعدد الكبير من الاطباء، ورغم استعماله كل ما كتب وقيل من وصفات.

في هذه الحالة من اليأس من الحياة ومن الشفاء، كان الرجل يتعثر في مشيته في اللحظة التي ألتقى فيها بصديقه شتاينماير.. وتقدم الصديق العملاق من صديقه اليائس ماداً يده للمصافحة وواضعاً يده الاخرى على كتفه وهو يربت عليه.. بدون كلفة، وكما يفعل الاصدقاء.. في هذه الحركة، اذا بشيء يحدث.. ولنترك للمريض الحديث عنه:

(عندما وضع شتاينماير يده في يدي والاخرى على كتفي شعرت كأنما حلقة تيار كهربائي قد طوقتني، واذا بي أهتز وتعروني الرجفة، وطيلة وضعه يده بذلك الشكل.. وقد شعرت على الفور.. وبدون أن أعرف السبب، أني أحسن حالاً).

منذ ذلك اليوم بدأ شتاينماير يعتقد أن فيه: كهرباء!!

ومنذ ذلك اليوم خطر لشتاينماير أن يعالج الناس بالكهرباء

ومن ذلك اليوم بزغ وتألق نجم شتاينمايرا

وقد علل شتاينماير طريقته (علمياً)!! عندما يضع يده الثقيلة الضخمة على جبين المريض ، أو ظهره، أو بطنه، فإن (الكهرباء) تسيل!! تارة شديدة وتارة خفيفة، في هذا السيلان الكهربائي يسيل الشفاء أيضاً؟!!

وقد ذاع خبر (الكهرباء) الذي جرى لشتاينماير عن طريق قسيس البلدة، فقد كان صديقاً له، ذلك أن شتاينماير من المواظبين على الكنيسة.

(إن حصول المعجزة على أيدي المؤمنين ليس بالكثير..) و(لماذا لا؟ الرب يضع سره في أضعف خلقه اذا أخلص للرب).. هذه هي أقوال القسيس لرعاياه..

المهم في هذا هو أن (أضعف خلقه) بدأ يؤمن فعلاً بأنه يحمل (سرا).

وهكذا بدأت الحلقات تنظم ليلياً، بعضها فيه الجد، وبعضها الهزل، ولكن لم يمض الكثير حتى بدأت (فضائل السر) تظهر: ان بعض الحوادث التي لم تنجح على يد بعض الاطباء، نجحت على يد صاحبنا.

وتناقلت الالسن خبر (الخوارق) و(المعجزات) و(السحر) و.. (الكهرباء)!

وبهذا أصبح الرجل قبلة الرواد، وعندما كثر عددالزوار، رأى أن يستقر في قرية صغيرة. ولم يكن لهذه القرية أي رسم على الخارطة، والتي ليست أكثر من بضع بيوت قروية، أصبحت بعد أعوام، شبيهة كل الشبه (بمدينة جالسباخ) من حيث العمران والنفوس والشوارع والساحات المليئة بالإقاحي والزهور ومختلف الورود والرياحين.

وقد سكن شتاينماير، في فيللا، هي غاية من الروعة والبهاء.. وكان الاسم الذي أختاره لها: أشعة الشمس!

ألذ منظر له هو عندمايخرج من حوض السباحة ليرتمي على المروج المحاطة بإطار رائع اللون من الزهور.

كل هذا في شتاينماير، حسن وجميل، ولكن في شتاينماير مايدعو إلى الحيرة أيضاً!

شتاينماير، يكره المطالعة، ولا يحب العلم: صاحبنا كان قريباً إلى الامية، فهو لا يقرأ ولا يحب أن يقرأ..

إن الابحاث العلمية خاصة، هي أثقل ما يكون في نفسه، ومع ذلك فعيادته كانت تعج بالعلماء والمثقفين!

بين الكثيرين من رجال الاعمال، والمصانع، وأصحاب المزارع، كان هناك رجلاً كبيراً من رجال القانون، وعرفت شخصية أخرى تحمل لقب (مستشار دولة).

هذه اللمحة، تفيد في معرفة طريقته في (صنع الشفاء):

إن تشخيص المرض، هو بالالهام: نظرة، فجس، فربت على المكان الموجوع فشفاء.. هكذا تبدأ المسرحية.. مسرحية الكهرباء!!

أما العيادة، فتقع في الطابق العلوي من (أشعة الشمس) وفي الصالة المعدة للفحص والمعالجة وضع ستة أسرة يستلقي عليها المرضى بعد خلع الثياب ليطوف (المعلم) عليهم..

وقد دخل أحد الاطباء المرموقين على شتاينماير وقال له أن طبيب جاء ليتعلم منه كرجل أستطاع أن يفعل أكثر مما يفعل الاطباء!!

هنا ظهر الزهو على شتاينماير، وشد على يده شداً، جعل الطبيب يعتقد أنه أمام ملاكم من عيار (محمد علي كلاي)، ولما صارحه بأنه لم يشعر.. بالكهرباء، أجابه وهو يضحك: هذا طبيعي، أنت لست مريضاً!!

لقد كان شتاينماير، مع كل هذا، بعيد النظر، لا يقبل إلا (العصبيين!) أو من يمت إليهم، والبت في الموضوع يعود دوماً إلى نظرته الخارقة، فالذين ليسوا من (أختصاصه) يرسلون إلى المستشفيات المجاورة في (جوسلار) أو غيرها.

وبقي شتاينماير لسنوات عديدة يشع على مرضاه من برجه الضاحك في (أشعة الشمس)!!

هنا نرى مرة أخرى كيف تداخل العلم مع الشعوذة، فكان هذا الايحاء سبباً في الشفاء من أمراض معينة.

وتبدو لنا الفكرة برمتها متناقضة إلى درجة خطيرة، لكن مع ذلك يمكننا أن نفهم شيئاً منها. فالمعلم الديني والمربي يؤمنان بإمكان غرس شيء في النفس البشرية لم يكن موجوداً فيها من قبل. إن قوة الايحاء أو الأثير أمر حقيقي، حتى أن أحدث المدارس السلوكية في علم النفس باتت تأمل بالوصول إلى نتائج بعيدة المدى في هذا المجال. الشكل البدائي يعبّر عن بنية النفس المعقدة بمعتقدات واسعة الانتشار كالمس والانسلاب وتجسد ارواح الأجداد وحلول الأرواح إلى غير ذلك. اذا عطس أحدنا فما زلنا نقول له: (بارك الله فيك!)، ونعني بذلك (نرجو ألا تؤذيك روحك الجديدة!).

عندما خرجنا في مجرى تطورنا من متناقضات متعددة الجوانب، وحققنا شخصية موحدة، كنا نعاني مما يشبه نفساً مؤلفة من عناصر مختلفة أنضم بعضها إلى بعض. ولما كان الجسم البشري قد شيّد بالوراثة على أساس عدد من وحدات (ماندل)، كان من الامور التي لا تخرج عن الموضوع تماماً أن نقول بأن النفس البشرية قد تم تركيب بعضها إلى بعض على نحو مماثل.

إن السحر بما هو غير منطقي أعطانا المنطق، ويسر لنا سبل تحقيق أهداف العلم بالولوج إلى مكانه، فكان سحر ساحر للبدائي، وعلم عالم للإنسان المتحضر.

قوة الاستدلال من النظرة الاولى

أحياناً يكون لنا قوة الاستدلال من النظرة الاولى؟

البعض يسمي ذلك بعلم الفراسة، فيما يذهب البعض الآخر إلى أن قوة الانطباعات الأولية لا يمكن العدول عنها، مهما فسرت لاحقاً؟

وهنا نرى، مرة أخرى، جانباً آخر من قوة الاستدلال، يستعمله الافراد والمجموع في حياتهم اليومية متوارثين ذلك عن الاباء والجدود؟

وواقع الحال أننا جميعاً نكوّن أحكاماً سريعة وآنية حول الغرباء. ففي حال ثوان معدودة من التقائنا بشخص ما نلتقط مجموعة كبيرة من التفاصيل ونستخلص أستنتاجات كثيرة منه، وقد نقرر على الفور ما اذا كان هذا الشخص دافئاً أوبارداً، قلقاً أو هادئاً، ودوداً أو عدائياً، سعيداً أو متضايقاً، وغالباً ما نسأل أنفسنا اسئلة معينة مثل: هل سأجد متعة في الحديث مع هذا الشخص، هل يمكن أن تكون هذه الفتاة صديقة، هل سأشعر معها بالإنسجام؟ وقد نغير رأينا تجاه شخص ما اذا تعرفنا عليه أكثر إلا أنه قد لا تتوفر لنا الفرصة لذلك.

مثل هذه الانطباعات تجمع عادة بين الملاحظة والاستنتاج والحدس، والحدس عبارة عن رسالة من داخل الانسان، لا يشعر بها عن وعي، ونلجأ إلى الحدس عندما نعرف شيءاً ما دون أن نعرف كيف نعرفه، فهو أحساس بشيء لا يمكن أن يرى أو يفسر، وغالباً ما يكون مصحوباً بإحساسات عاطفية ومرئية ومادية قوية ينظر إليها بإعتبارها جرس أنذار.

وحين نستخدم قوة الملاحظة لتكوين اراء معينة حول الغرباء غالباً ما نعتمد في ذلك على علامات ظاهرية، كنوع أو لون الملابس التي يرتديها الشخص وما اذا كنا نحب ذلك أم لا أو العبارات والالفاظ التي ينتقيها عند الكلام، سواء أكانت مزعجة أم محببة أو لكنته عند الحديث، وغير ذلك. والعديد منا يتوصل الى أستنتاجات ضخمة حول الاشخاص من طريقة

ارتدائهم لملابسهم مثلاً، إلا أن الاراء الأكثرعمقاً التي نكونهاحول شخص ما عادة ما تكون مرتبطة بمشاعرنا وتجاربنا.

ويذهب العديد من علماء النفس الى القول أننا نميل إلى الاشخاص الذين نشعر بأنهم مماثلون لنا، غير أنه قد يكون هذا التماثل في بعض الاحيان خادعاً أو ظاهرياً، وعادة ما نستجيب بسرعة لجوانب في أنفسنا قد لا نملك القدرة للاعتراف بها وانما نجدها عند من حولنا كالعصبية مثلاً، وقد ننجذب تجاه اشخاص يختلفون عنا كل الاختلاف كالاصدقاء أو العشاق سعياً للبحث عن شيء ما في دواخلنا نشعر بحاجة ماسة ـ وأن كانت دون وعي-للتعبير عن ذواتنا.

إن بعض الناس ـ كما يبدو ـ أكثر قدرة من غيرهم على تكوين إنطباعات صحيحة، وللآن لم يتفق علماء النفس حول ما يميز تكوين حكم دقيق حول الاشخاص من النظرة الاولى، غير أنه من الواضح أن هذه القدرة لا علاقة لها بالذكاء وإنما بالحدس وما اذا كنا نستغله على الوجه الاكمل أم لا، فنحن جميعاً نعتمد على حدسنا في أشياء كثيرة، إلا أن بعض الناس اكثر أستغلالاً لطاقتهم الحدسية هذه من غيرهم وبالتالي تكون أنطباعاتهم الأولى أكثر دقة. غير أنه من المهم هنا أن ندرك أنه بالرغم من أن الحدس يمكن أن يعزز من التفكير المنطقي إلا أنه لا يحل محله، ومن السهل جداً الخلط بين الحدس ومشاعر الخوف أو الرغبة، ونستطيع من خلال التمرين والتدريب المتواصل أن نعرف الفرق ونميز المواقف التي نسيء فيها فهم أفكارنا ومشاعرنا الداخلية ازاء الاخرين.

وقوة الاستدلال من النظرة الاولى أو علم الفراسة هو قديم جداً، حاول أصحابه بقرن الاعضاء بعضها ببعض أن يجدوا علاقة بين شكل الجسم والمزاج النفسي والاخلاق، وقد كتب في هذا الكثير، من أشهرهم عند العرب الشيخ ابن العربي في كتابه (التدبيرات الالهية في أصلاح المملكة الانسانية)، وخاصة في (فصل مختصر من الفراسة الحكمية على ما وصفته الحكمة في معرفة الناس). وهذا الكتاب يمتاز عن غيره بأنه وصف في دقة متناهية كل موضع في الجسم ومغزاه النفسي والاخلاقي.

يقول الشيخ أبن العربي:

أعلم يا أخي. وفقك الله وايانا، أن الهيئات ، أو اعدل النشآت الذي ينبغي أن تتخذه لك مشيراً وإليك سميراً وللملك، وليس بالطويل ولا بالقصير،لين اللحم رطبة، بين الغليظ والرقة،أبيض مشرب بالحمرة أو صفرة، معتدل الشعر طويله ليس بالسبط ولا بالجعد القطط،

في شعره حمرة، ليس بذاك السواد.. أسيل الوجه بأعين مائلة إلى الغور والسواد، معتدل عظيم الرأس سابل الاكتاف، في عنقه استواء معتدل الألية، ليس في وركه ولا صلبه لحم، خفي الصوت، صاف ما غلظ منه وما رق مما يستحب غلظه أو رقته في اعتدال، طويل البنان للرقة، سبط الكف، قليل الكلام والضحك إلا عند الحاجة، حيل طباعه إلى الصفراء والسوداء، أعدل الخلقة وأحكمها، وفيها خلق سيدنا رسول الله (ص) حتى صح له الكمال ظاهراً أو باطناً، فإن قدرت ألا تصحب إلا مثل هذا فافعل.

لا تقف مع شهوتك اذا لم ينور الله تعالى بصيرتك، فإن رزقت النور الالهي فأنت اذ ذاك سلطان العالمين وصاحب الحقيقيين الموجود تحت قهرك ورياستك وأمرك.

وأعلم يا أخي أن الحكماء زعموا في مقالاتهم في الفراسة، ورأيت ذلك تجربة، أن أعدل ماتقدم وصفه، وما ذكروا في مقالاتهم أن البياض الصادق مع الزرقة والشقرة الكثيرة دليل على القحة والخيانة والغش وخفة العقل، فإن كان مع ذلك واسع الجبهة ضيق الذقن أزعر أوجز، كثير الشعر على الرأس، فقالت الحكماء: أن التحفظ ممن هذه صفته كالتحفظ من الافاعي.

وأعلم أن الحكماء قالوا: أن الشعر الخشن يدل على الشجاعة وصحة الدماغ، والشعر اللين يدل على الحمق والجرأة.

وكثرة الشعر على الصدر والبطن يدل على وحشية الطبع وقلة الفهم وحب الجور.

والشقرة دليل على الحمق وكثرة الغضب وسرعته والتسلط.

والاسود من الشعر يدل على العقل والاناة وحب العدل، والتوسط بين هذين يدل على الاعتدال.

أما الجبهة المنبسطة التي لا غضون فيها فهي تدل على الخصومة والشغب والرقاعة والصلف.

ومن كانت جبهته متوسطة في النتوء والسعة وكان فيها غضون فهو صدوق محب فهيم عالم يقظان مدبر حاذق.

وما كان عظيم الاذنين فهو جاهل إلا إنه يكون حافظاً، ومن كان صغير الاذنين فهو أحمق سارق.

وفيما يخص الحاجب الكثير الشعر فهو يدل على العجب وغش الكلام.

فإن أبتعد الحاجب إلى الصدغ فصاحبه متباه صلف.

ومن رق حاجبه وأعتدل في الطول والقصر فهو يقظان فهيم.

أما ارداً العيون فهي الزرق الفيزوزخية، فمن عظمت عيناه وجحظت، أي فرجت مقلتها، فهو حسود وقح كسلان غير مأمون وإن كانت زرقاً كان أشد،وقد يكون غاشاً.

ومن كانت عيناه متوسطة مائلة إلى الغور والكحلة فهو يقظان فهيم ثقة محب، فإن أخذت في طول البدن فصاحبها خبيث.

ومن كانت عينه جامدة قليلة الحركة كالسهم حيث النظر فهو جاهل غليظ الطبع، ومن كانت في عينه حركة بسرعة وحدة نظر فهو محتال لص غادر.

ومن كانت عينه حمراء فهو شجاع مقدان، فإن كان حواليها نقط صفر فصاحبها أشر الناس وأردأهم.

واذا كان الأنف رقيقاً فصاحبه نزق.

ومن كان أنفه يكاد يدخل في فمه فهو شجاع.

ومن كان أفطس فهو شبق.

ومن كان ثقب أنفه شديد الانفتاح فهو غضوب.

واذا كان غليظ الوسط مائلاً إلى الفطوس فهو كذوب مهذار.

وأعدل الانوف ما طال غير طول فاحش، ومن كان أنفه متوسط الغلظ، وقناه غير فاحش، فهو دليل العقل والفهم.

أما من كان واسع الفم فهو شجاع.

ومن كان غليظ الشفتين فهو أحمق.

ومن كان متوسط الشفتين في الغلظ مع حمرة صادقة فهو معتدل.

ومن كانت أسنانه منبسطة صف ما بينها قبيح فهو عاقل ثقة مأمون مدبر.

ونصل إلى الوجه، فمن كان لحم الوجه منه منتفخ الشدقين فهو جاهل غليظ الطبع

ومن كان نحيف الوجه أصفر فهو رديء خبيث خداع شكس.

ومن طال وجهه فهو وقح.

ومن كانت أصداغه منتفخة وأودجته ممتلئة فهو غضوب.

ومن نظرته فأحمر وخجل وربما دمعت عيناه، أوأبتسم تبسماً لا يريده، فهو لك متودد ومحب، لك في نفسه مهابة.

والجهير يدل على الشجاعة، والمعتدل بين الكد والتأني والغلظة والرقة يدل على العقل والتدبير والصدق.

وسرعة الكلام ورقته يدل على القحة والكذب والجهل.

والغلظة في الصوت دليل علىالغضب وسوء الخلق.

والغنة في الصوت دليل على الحمق وقلة الفطنة وكبر النفس.

ويدل التحرك الكثير على الصلف والهذر والخداع،وقار في الجلسة ويتدارك اللفظ بتحريك اليد.

إن الكلام دليل على تمام العقل والتدبير وصحة العقل.

أما قصر العنق فهو دليل على الحسد والمكر.

وطول العنق ورقته دليل على الحمق والجبن، فإن أنضاف إليها صغر الرأس فإنه يدل على الحمق والسخف.

وغلظ العنق يدل على الجهل وكثرة الاكل.

ونصل إلى البطن الكبير فهو يدل على الحمق والجهل والجبن.

فلطافة البطن وضيق الصدر يدلان على جودة العقل وحسن الرأي.

وعرض الكتفين والظهر يدلان على الشجاعة وخفة العقل.

وأنحناء الظهر دليل على النكاسة والنزاقة.

واستواء الظهر علامة محمودة.

وبروز الكتفين دليل على سوء النية وقبح المذهب.

أما الذراعان فإذا طالت حتى بلغ الكف الركبة دل على الشجاعة وكرم ونبل النفس، واذا قصرت فصاحبها جبان محب للشر.

والكف الطويل مع الأصابع الطوال تدل على النفوذ في الصناعة وأحكام الاعمال وتدبير الرياسة.

إن اللحم الغليظ في القدم فيدل على الجهل والجور.

والقدم الصغير اللين يدل على الفجور.

ورقة العقب على الحسن والجبن، وغلظه يدل على الشجاعة.

وغليظ الساقين مع العرقوبين يدل على البله والقحة.

ومن كانت خطاه واسعة بطيئة فهو منجح في جميع أعماله مفكر في عواقبه والضد للضد.

وهذا وفقك الله فصل مختصر من الفراسة الحكمية(*).

وما أورده ابن العربي ناجم عن أختبارات وأستنباطات عقلية وليس مبنياً على أسس نهجية علمية.. ومع ذلك فإن هذا الارتباط الوثيق القائم بين أجزاء الجسم والنفس من جهة، والعالم الخارجي من جهة أخرى، يشير إلى وجود حتمية رياضية نراها ماثلة أمامنا في أختبارات الاقدمين وأجماعهم على ذلك.

وفي وقتنا الراهن أعطى العلم أهمية للسجية والمزاج والبنية في الكثير من الدراسات التي أجريت.

ولعل عالم النفس كرتشمر هو من العلماء الذين أهتموا كثيراً في معرفة نموذج الناس الذين لهم أمراضهم، أو معرفة الناس عن طريق الفراسة. وقد لقيت هذه المدرسة الكثير من المعارضة، حتى أن البعض نعتها بـ(السخف)، وكان طبيعياً مثل هذا الهجوم لأن الأسس التي وضعتها هذه المدرسة قد هيأت لإنقلاب في التفكير والأساليب التي أتبعت حتى تاريخه.

لقد أكتشفت نقائص كثيرة في نظرية (فراسة كرتشمر)، ولا يمكن الاخذ بها، ولكن علم النفس (برأينا) يبقى نموذجاً لجمع اراء واجتهادات لعلماء لا يملكون وضع قانون (علمي) بحت، كقانون رياضي.

وقد ذهبت نظرية (كرتشمر) إلى أن المزايا التي لا تقدر بثمن، أن يعرف الطبيب أن هذا المريض (الليبتوزوم مثلاً النحيل، هو من الناس الذين عندهم الاستعداد الكبير لهذه الامراض:السل الرئوي، القرحة، البازدو، الزائدة الدودية، أمراض الكلية، وغيرها من الامراض.

(*) أورد هذا النص الدكتور صبحي أو غنيمة في كتابه نظرة في أعماق الانسان عن رسالة مخطوطة لم تطبع بعد (١٩٥٨) للشيخ محيي الدين العربي، وهي في حوزة الاستاذ أبي النصر اليافي.وهذا البحث له قيمته التاريخية لأنه يجمع في صفحاته القلائل موجز ما عرف حتى تاريخ الشيخ محي الدين من أقوال في (الفراسة)، وقل أن تجد في كتاب قديم ما تجده في رسالة الشيخ من أعتناء بكل ناحية من نواحي الجسم مهما كان شأنها.

ثم أنه من المفيد جداً للمريض والطبيب معاً، أن يصبح بالإمكان أن هذا الشخص ـ البدين مثلاً، هو من الناس الذين عندهم الاستعداد الكبير لهذه الامراض: ألتهاب المرارة، الباكترياس، مرض السكر، تصلب الشرايين، وأمراض أخرى.

ولم تقف هذه النتائج الخطيرة التي أنتهت اليها مدرسة كرتشمر عند تسهيل التشخيص فحسب، بل أن هناك من النتائج في العلاج ما هو أكثر أهمية ونفعاً من هذا.

وتختلف هذه النماذج في أجاباتها على الدواء الواحد أختلافاً من مصلحة الطبيب والمريض معرفته والاستفادة منه. من ذلك أن أثر بعض الادوية كالادرنالين والبيلوكارين واليوروتوبين والافرتين والكارديازول ومشتقاتهما، هو غيره عن الفريق الاخر.

بل أن هناك ما هو أكثر أهمية من كل ذلك، أختلاف الدفاع الجرثومي بإختلاف النماذج، وذلك لإختلاف طبيعة الكريات البيضاء والعوامل التي تدفع بها، كما أن ضغط الدم يختلف، فيما يبدو طبيعياً عند فريق يكون مرضياً عند الاخر.

ولم يكن لإكتشاف مدرسة كرتشمر أن تحدث أنقلابها في الساحة الطبية فحسب، بل وفي النواحي الاجتماعية في كثير من وجوهها، ذلك أن أكتشاف أسرار الجسم يجعلنا قريبين من هذا.

وكانت الضجة التي رافقت ذلك هي أن استعداد بعض النماذج لأمراض خاصة لا يمرض بها النموذج الاخر بنسبة النموذج المذكور، وكون بعض النماذج لا تعمر طويلاً ويهرم أصحابها باكراً، ستجعل (تشريع الدولة) عاجلاً أو آجلاً يهتم بهذه النواحي في الزواج وفي التناسل، فيعير هذه الناحية ما يتوجب عليها من قوانين. كما سيكون في الساحة الصناعية من مصلحة العامل ورب العمل التمييز بين النماذج التي تحب الدقة في العمل، والتي بإمكانها المثابرة مدة طويلة، وبين تلك التي هي بالعكس، فلكل نموذج مزاياه وصفته الخاصة التي ينسجم بها مع العمل. بل أن هذه الأمور تأخذ مكاناً أوسع في ميادين أخرى.. ففي المصالح التي تستدعي كتمان السحر والحرص والحذر،لا ينتقي لها من النماذج البشرية من لا يستطيع ذلك بالنسبة لبنائه وتكوينه الجسمي والنفسي.

ومجموع الحوادث التي أيد بها كرتشمر اكتشافاته بلغ (٥٢٩٤٥) حادثة، وذلك بعد الفحص والتجارب حتى عام ١٩٤١ .ومثل هذه الاختبارات والتجارب أيدتها شبيهاتها في جامعات أوربا وأمريكا،وحتى الشرق الاوسط.

إننا حين نستطيع أن نجد العلاقة القانونية بين نماذج الجسم ونماذج النفس، نكون قد وضعنا لاساس لعلم البنية والمزاج.. بهذه الفكرة وضع كرتشمر الأساس لمدرسته.

أما الطريق التي رسمها لأبحاثه فهي أن يقيس ويشاهد، فالشكل والوظيفة ليسا ضدين ولا يوجد اليوم شيء في الجسم لا نهتم به.

وكما أن علامة (بابنيسكي) تدلنا على أمور هامة في صميم المركز العصبي، كذلك كل سانتمتر في حجم اليد، وكل درجة في زاوية الفك، وكل شعرة في الجسد لهامغزى وأهمية كبيرة.

والنماذج التي أقرها كرتشمر هي: البدين والنحيف والرياضي، ثم نوع هو مزيج من هذه النماذج الثلاثة.

أما الامزجة فهي المتصل والمنفصل أو السيكلوتيم والشيتزوتيم.

غير أن هذا التقسيم مشروط بالملاحظة الهامة التالية:

(لا يقتضي أن يكون البدين سميناً).. اذ (أن البناء الجسمي هو الاساس في تشخيص النماذج، وليست البدانة والنحافة). وكقاعدة لهذا التقسيم: البدين هو سيكلوتيمي، دوري (وهو يقابل المنبسط عند يونغ)، والنحيف هو شيتزوتيمي في كثير من الاحيان، اذ لا يمتنع أن يكون هناك مزيج من الاثنين فتكون أكثر العلائم تدل على البدانة مع أن المزاج هو فصامي، أو أن يكون هناك نحافة في البناء الجسمي مع مزاج متصل أو (دوري). وهذه النماذج المنوعة من هذا القبيل هي في المتصلين (سيكلوتيم) أكثر مما هي في المنفصلين (شيتزوتيم).

إضافة إلى ما ذكره كرتشمر توسع علماء النفس في دراسة تعابير الوجه.. وكما قال رالف والدو ايمرسون فإن أعين الاشخاص تقول أكثر مما تقول ألسنتهم، وكلامه هذا لا يحتاج فهمه إلى أي قاموس، وهو مفهوم في أنحاء العالم كافة.وتعتبر تعابير الوجه واحداً من أقل المجالات اثارة للخلاف والجدل في حقل التعبير-الاتصال غير اللفظي، كما أنه من السهل جداً ملاحظة هذا النوع من الاشارات. أننا غالباً ما نركز بصرنا على الوجه أكثر من أي جزء آخر من أجزاء الجسم، كما أن الاشارات التي يمكن ملاحظتها على الوجه تتضمن معاني مقبولة على نطاق واسع، واجه كل واحد، ولو لمرة واحدة على الأقل،(النظرة) التي تستطيع أن تقتل و(عين السمكة) و(نظرة تعال إلى هنا) أو (نظرة أنني موجود ومتاح).

أثناء جلسات مفاوضات العمل، يستطيع المرء أن يلاحظ تشكيلة غنية ومتنوعة من تعابير الوجه.على الجانب المتطرف يقف المفاوض الهجومي والعدائي الذي ينظر الى المفاوضات

كحلبة وحيث يسيطر موقف الفوز أو الموت. هذا النوع من المفاوضين، غالباً ما ينظر اليك بعينين مفتوحتين على مدى واسع، وشفتين مغلقتين بشدة، وزوايا حاجبية منخفضة، حتى أنه يتحدث أحياناً من خلال أسنانه، وبأقل قدر من تحريك الشفتين. وفي الجانب الاخر من الطيف يقف ذلك الشخص الذي يأتي الى طاولة المفاوضات بطريقة صميمة، بعيدة عن أي خطأ، وبمظهر يشبه مظهر المرتلين في جوقة المعبد، بجفون ناعسة، أو نصف مفتوحة، وأبتسامة خفيفة ولطيفة، وحواجب متوضعة بهدوء وسلام، وبدون أي أثر للتجاعيد على الجبهة. ومن المحتمل أن يكون هذا النوع من المفاوضين الأكثر مقدرة، وهو الأقدر على المباراة والمنافسة، وهو الأكثر أيماناً بالتعاون كعملية ديناميكية.

وقد لاحظ جان تيمبلتون، الخبير النفساني أنه اذا كانت عينا الزبون منسدلة، تتطلع إلى الأسفل، واذا ما كان وجهه يلتفت بعيداً، فإنك تكون قد منعت من الدخول، وصُد الباب في وجهك. ولكن، اذا ما كان الفم مسترخياً، وبدون أية أبتسامة مصطنعة، والذقن مندفع إلى الامام، فمن المرجح أن هذا الزبون يفكر ويتأمل حضورك وعرضك. واذا ما شغلت عيناه عينيك لعدة ثوان من الزمن، فإن هذا الزبون يكون في وضع من يفكر باقتراحك! وبعد ذلك، اذا ما تحرك رأسه الى وضع يكون فيه موازياً لرأسك، وأسترخت وأتسعت إبتسامته، وبدا متعاطفاً، فمن المؤكد أنه سوف يشتري سلعتك.

لقد أكتشفنا أن العديد من الاشخاص، الذين يعترفون بوجود الاتصال عبر تعابير الوجه، لم يحاولوا اطلاقاً أن يفهموا، على نحو دقيق كيف يتواصلون على سبيل المثال، أن أي لاعب بوكر، يفهم بوضوح، ماذا تعني عندما تقول أن له (وجه البوكر). ومهما يكن، فإن عدداً قليلاً منهم يحاول في الواقع تحليل المعنى الكامن لـ عدم التعبير عن أية عواطف، النظرة المحايدة والخالية من أي معنى، النظرة التي لا تفصح عن أي شيء، والتعبير الرواقي الرزين، إلى غير ذلك.

ويمكن للقارئ، على نحو أحتمالي، أن يتحدث عن وجوه غاضبة، ووجوه سعيدة، ووجوه حزينة، أو متأملة، أو جريحة ومتضررة. أنك تتحدث عن هذه الوجوه في الوقت الذي تتأملها، لكن معرفة الناس بهذه الوجوه تتوقف عند هذا الحد.

الصينيون، على سبيل المثال، يتميزون على غيرهم من سائر البشر بدراستهم الدقيقة والكاملة للوجه الانساني، وهم يدعون هذه الدراسة الثاقبة (سيانغ ميان). وتعرّف المعاجم (سيانغ ميان) بأنه (قراءة الوجوه) أو (ملامح الوجه الدالة على المزاج والخلق) أو (معرفة مصير الانسان بالتدقيق في سيماء وجهه). والحق يقال أن سيانغ ميان هي الطريقة الوحيدة التي تمدك بالقدرة على قراءة خلق أي شخص تصادفه، ومعرفة حسن طالعه أو سوء طالعه.

لقد وضع الكثير من الباحثين دراسات عن سيانغ ميان، وأشار جوزيف نيدهام، الاستاذ في جامعة كمبرديج في موسوعة (العلم والحضارة في الصين) إلى قدم سيانغ ميان. وبهذا الخصوص كتب نيدهام معلقاً (تتمثل الحصيلة الرئيسة لدراسة سيماء الوجه وقراءة الكف في الاكتشاف المبكر الذي قام به أهل الصين، اذا تمكنوا من أستخدام سيانغ ميان لتعيين هوية الشخص من دراسة بصمات الأصابع). ومارس الصينيون طرقاً عديدة للتنبؤ دامت فترة زمنية، تجاوزت سبعة آلاف سنة، وكان الاباطرة ورسميو الحكومة يستدعون الخبراء لكي يقوموا النصيحة لهم حول أمور تتعلق بالرحلات، والحملات العسكرية، والزيجات، وشؤون الدولة، وحول كل ما يمكن أن يكون له تأثير في الانسان والطبيعة، والارض والسماء.

إن طريقة سيانغ ميان الصينية قد تميزت بأهمية كبرى، أمتدت طوال فترة تجاوزت الفي عام. وظل هذا العلم سراً، يلقنه المرشدون لمريديهم وتلامذتهم. وكانت الكتب الموضوعة تحفظ في مكتبات القصر، وتوضع تحت تصرف الاباطرة. لكن الكتب الموضوعة حرقت والقصور نهبت خلال التاريخ العاصف، المشحون بالحروب والثورات الدامية.

وإن ما نعرفه عن سيانغ ميان، في أيامنا هذه ، تحدر الينا، بمعظمه، خلال العصور عن طريق التعليم الشفهي. ولقد أضاف إليه مدرسيو وطلاب سيانغ ميان الذين تجولوا في بلدان كثرة سعياً إلى ملاحظة ودراسة وجوه الناس.

وقد تضاءلت أهمية هذه الطريقة التنبؤية الاخرى في الصين، أو أصبحت مجرد ألعاب مسلية يستحسنها الناس أثناء لقاءاتهم. وعلى الرغم من كل الصعوبات، فقد ظلت سيانغ ميان على قيد الحياة، هذا، لأن الوجه، وهو مرآة الروح، يكشف بوضوح حقيقي أفكار الانسان الداخلية، ونواياه، ومشاعره أكثر من أي شيء آخر.

وفي الوقت الحاضر، تمارس العائلات الصينية سيانغ ميان دون ذكر لهذه الطريقة بالأسم.. وتذكر ليلان يونغ أن أهلها قد حذروها من مغبة الزواج من رجل يتميز بأذنين لهما فصّان صغيران، أو يتصف بأنف مسطح. ولهذا يلاحظ كل من يعاشر الصينين، أو يحيا معهم، عادة التحديق في الوجه، فمتى حدّق الصينيون في وجهك، أدركت أنهم يسعون الى تقويم شخصيتك.وتتمثل في العلاقة الوثيقة التي يقيمونها بين شخصيتك ووجهك في التعبير الذي أتت به حكمتهم القديمة: (يمكنك أن تضرب رأس انسان، إنما لا يحسن بك أن تضربه على وجهه، ولا يحسن بك أن تتهجم على شخصيته حتى ولو شتمته).

تبقى ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن الوجوه الجميلة أو الوسيمة ليست، بالضرورة، (طيبة). فقد يتصف امرؤ ببشاعة الخطيئة، ومع ذلك ينعم بوجه يطفح بالسعادة والنجاح

والبركة، وهذا لأن الجباه العالية، والأنوف المستقيمة المتميزة، بمنخرين كاملين سمينين، والآذان السميكة المتميزة بفصوص كبيرة، والذقون المستديرة أو المكورة، أو الخال الواقع قرب القسم الأعلى من الاذن، تشكل بمجملها بعض الملامح التي يرغب الناس فيها أكثر من غيرها، وبخاصة أنها تجلب الحظ الاوفر.

وتستهل طريقة سيانغ ميان دراستها بالتعرف على هيئة أو مظهر الوجه، وتطابق ملامحه. وعلى هذا الاساس، يمكنها ، في المرحلة الاولى، أن تتبين الخطوط العريضة للطباع والخلق. وفي المرحلة الثانية،تتفحص أجزاء الوجه، الواحد تلو الاخر: الجبين، الحاجبين، العينين، الأنف، الفم، الأسنان، الأذنين، الوجنتين والذقن. وتدرس سيانغ ميان الحالات الهامة وتفسر المغزى المتضمن فيها، ومناطق خاصة في الوجه تحدثنا عن الصحة، الثروة، والمهنة، وسيرة الحياة والأصدقاء والعلاقات العائلية والحب. كما تعتقد سيانغ ميان أن التناقضات التي نواجهها في الحياة مردّها إلى التناقضات القائمة في الوجوه. هذا، لأن التناقض عنصر أساسي من عناصر الشخصية الانسانية، وترينا سيانغ ميان موقع التناقضات الداخلية، وتختبر قدرة القسمات في سبيل تحديد القسمة التي يحتمل أن تهيمن في أية ظروف معينة. واذا شئنا الحصول على أفضل ما يمكننا الحصول عليه من سيانغ ميان، ترتب علينا أن نأخذ كلية وجه الشخص الذي نتفحصه بعين الاعتبار. وعندئذ نستطيع أن نفرد قسمة مهيمنة في الوجه الذي يجذب أهتمامنا، ونقرأ ما يتصل بالمغزى الذي يتضمنه.

إن قوة الاستدلال من النظرة الاولى لم تأت عن عبس، فهي نتيجة لتطور طبيعي رافق الانسان منذ نشأته. وبشأن علمية علم الفراسة أو عدم علمية ذلك، فإن الامور تؤخذ بحد نسبي وليس بالمطلق، وهذا ما أكدته الاختبارات النفسية.

وقد أتت هذه الخبرة أستناداً إلى وجهة النظر التقليدية التي تقول أن الشخص يرى العالم من حوله ويتعامل معه لكي يتعرف عليه. وهو بمعنى ما يمد يده ويمسك به، ولا يلبث (أن يستوعبه) ويمتلكه. أنه (يعرفه) بالمعنى التوراتي الذي يعرف الرجل بموجبه المرأة، بل أنه يقال أيضاً في معرض النقاض: أنه ما كان العالم ليوجد لو لم يره أحد. لكن العمل يُعكس تماماً في حالة التحليل البيئي. طبعاً لن تكون هناك أية رؤية اذا لم يكن هناك عالم يُرى، غير أن الطفل يستجيب بطريقة ما إلى وجه أمه وبطرق أخرى إلى الوجوه الاخرى أو الأشياء الأخرى، انه يقوم بهذا التمييز ليس من خلال عملية ادراك ذهنية، وانما بناء على ظروف وطوارئ سابقة، وبعض من هذه قد تكون طوارئ بقاء. أن الملامح المادية لأحد الأجناس هي بوجه خاص أجزاء مستقرة من البيئة التي ينشأ فيها هذا الجنس (هذا هو السبب الذي يجعل علماء الأخلاق

المقارنة يعطون المغازلة والجنس والعلاقات ما بين الأبوين والذرية مثل تلك المكانة البارزة). إن الوجه وتعبيرات الوجه عند الأم تقترن بالأمن والدفء والغذاء وغير ذلك من الأشياء الهامة خلال كل من تطور الجنس البشري وحياة الطفل.

نتعلم أن ندرك بمعنى أننا نتعلم أن نستجيب للأشياء بطرق معينة بسبب الطوارئ التي تكون الأشياء جزءاً منها، قد نرى وندرك الشمس ـ مثلاً ـ فقط لأنها مثير شديد القوة، غير أنها كانت جزءاً دائماً من بيئة الجنس البشري طيلة فترة تطوره وكان ممكناً أختيار سلوك أكثر تحديداً بالنسبة اليها، عن طريق طوارئ البقاء (كما كان الحال مع أنواع أخرى كثيرة). وللشمس أيضاً مكانتها في الكثير من طوارئ التعزيز الراهنة، فنحن نتحرك نحو ضوء الشمس أو نتحول عنه تبعاً لدرجة الحرارة، وننتظر شروق الشمس أو غيابها لنقوم بتصرف عملي، ونتكلم عن الشمس وتأثيراتها، وندرس الشمس آخر الأمر بأدوات العلم ومناهجه. يعتمد أدراكنا للشمس على ماذا نعمل بالنسبة لها، ولكن مهما عملنا وكيفما أدركناه، تبقى الحقيقة قائمة بأن البيئة هي التي تؤثر على الشخص المدرك، وليس الشخص المدرك هو الذي يؤثر على البيئة.

الادراك والتعرف اللذان ينبثقان من الطوارئ اللفظية هما أيضاً وبوضوح أكبر من أنتاج البيئة. أننا نستجيب لشيء ما بطرق عملية كثيرة بسبب لونه. فنحن نقطف ونأكل التفاح الأحمر من صنف خاص، ولكن ليس الاخضر، ومن الواضح أن بمقدورنا (معرفة الفرق) بين الأحمر والأخضر، ولكن الامر ينطوي على أكثر من ذلك حينما نقول بأننا (نعرف) أن هذه التفاحة حمراء وتلك خضراء. ومن السهل أن نقول بأن عملية التعرف هي عملية فكرية منفصلة كلياً عن العمل، غير أن الظروف والطوارئ تقدم لنا تمييزاً أكثر نفعاً.. حينما يسأل شخص ما عن لون شيء لا يستطيع رؤيته ونقول له: أنه أحمر، فاننا لا نفعل شيئاً بشأن الشيء بأية طريقة أخرى. الشخص الذي سألنا وسمع إجاباتنا هو الذي يقوم باستجابة عملية تعتمد على اللون. إنه بمقدور المتكلم في ظل الطوارئ اللفظية فقط الاستجابة الى خاصية معزولة لا يمكن أن تلقى أستجابة غير لفظية. الاستجابة الى خاصية الشيء دون الاستجابة للشيء ذاته بأية طريقة أخرى هي ما يعرف بالإستجابة (التجريدية). والتفكير التجريدي هو من نتاج نوع خاص من البيئة وليس نتاجاً لملكة التعرف.

وأخيراًفإن الحديث عن قوة الاستدلال من النظرة الأولى تضعنا أمام العلاقة العكسية بين مقدار التقدير ووضوح الاسباب، وتتضح هذه العلاقة العكسية بوجه خاص حينما يكون

السلوك خاضعاً بجلاء للميراث.ان مقدار ثنائنا على شخص لأنه يشغّل جهازاً معقداً يعتمد على الظروف. فإذا أتضح أنه إنما يقلد شخصاً آخر، وأن شخصاً ما (يريه ماذا يعمل)، فإننا لا تنسب له سوى فضل ضئيل - يتلخص في قدرته على محاكاة السلوك وتنفيذه.واذا كان يعمل بموجب تعليمات شفهية، أي اذا كان هناك شخص (يقول له ماذا يعمل) فإننا ننسب له فضلاً أكبر قليلاً،على الأقل لأنه فهم اللغة على نحو جيد مكنه من أتباع التوجيهات.واذا كان يعمل حسب تعليمات مكتوبة، فإننا نعطيه تقديراً أضافياً على معرفته كيف يقرأ. ولكننا لا ننسب إليه فضل(معرفة كيفية تشغيل الجهاز) إلا أذا قام بذلك دون توجيه، مع أنه ربما كان قد تعلم ذلك من خلال المحاكاة أو باتباع تعليمات شفهية أو كتابية، ولكننا نعطيه أقصى حد من التقدير اذا أكتشف كيف يدير الجهاز بدون مساعدة لأنه حينئذ لا يكون مديناً لأي معلم أو مدرب في أي وقت من الأوقات. حينذاك يكون قد تشكل كلية حسب المصادفات والملابسات غير الواضحة نسبياً، والتي أوجدها الجهاز، وهذه تكون الآن عبارة عن تاريخ.. مضى وأنقضى.

الرجم بالغيب

هل يفكر الانسان ويعرف ما يخبئه الغيب؟

إنه سؤال غاية في الغموض ما دام معنى التفكير لم يتحدد في وضوح، ويجوز لنا أن نضع السؤال نفسه على هذه الصورة: هل يعرف الواحد من الناس حوادث في نفسه لا تدخل في مجال المعرفة الطبيعية الشاملة؟

الجواب على هذا السؤال هو أن الانسان ـ في الغالب ـ يعرف أشياء لا تقع في العلم الطبيعي في شيء، فقد يلم الأعمى بالعلم الطبيعي، إلماماً كاملاً، ومع ذلك فهو لا يعلم كيف تبدو الأشياء للمبصرين، فلا يعرف الفرق بين الأحمر والأزرق كما تدركه العين، نعم أنه يعرف أطوال الموجات الضوئية ماذا تكون في حالة الأحمر وفي حالة الأزرق، لكن التمييز بين الاحمر والازرق في رؤية العين أمر لا شأن له بأطوال الموجات، وقد عرف الانسان كيف يميز هذا اللون من ذاك قبل أن يعرف شيئاً عن موجات الضوء وأطوالها، فهذا التمييز اللوني لا يدخل جزءاً من علم الطبيعة، وقل شيئاً كهذا فيما نعلم أنه (لذيذ) أو أنه (مؤلم)، فلا يتوقف أدراكنا للذة أو للألم على معرفتنا للآثار العضوية التي تحدث في جسم الانسان في حالة اللذة وفي حالة الألم، واذن فالعلم بما هو لذيذ وبما هو مؤلم لا يدخل جزءاً من العلم الطبيعي.

وفي ذلك يقول برتراندرسل أن (ديكارت) قد أصاب حين جعل الحقيقة تدرك من الباطن، وأن (واطسن) قد أخطأ حين جعلها تدرك من الخارج، ولقد بنى (واطسن)مذهبه علىواقعية ساذجة عن العالم الطبيعي، وأعتقادي هو أن الانسان بملاحظته لنفسه من الداخل يحصّل معرفة لا تكون جزءاً من العلم الطبيعي.

ولقد أستخدم الانسان، على مر الازمان والعصور، وسائل عديدة للوصول إلى معرفة الغد، وأن تعذرت معرفة الغد المباشر، فالمستقبل القريب أو-وهذا أضعف الايمان-المسقبل البعيد. ومن

بين هذه الوسائل النجوم، وبينها الرمال، وبينها أيضاً فناجين القهوة والودع والحسابات المعقدة، وبينها من ثم خزعبلات أخرى لا يعلم إلا الله ماذا تكون أدواتها.

كما أختلطت الصورة لدى الناس منذ الماضي بين الدين والبحث عن المستقبل، حتى كان الاعتقاد السائد هو أن المنجمين يتلقون الوحي من السماء، أو من قوى غامضة تنطقهم وتوحي لهم بما يقومون، ويأتونه من أفعال.

وكانت الرهبة والخوف من هؤلاء الناس ومما قد يأتونه من أفعال تجعل سائر العباد تخشى غضبهم.وفي الاساطير الاغريقية أن (أوليس) بعد أن قدم الذبائح ظهر له ظل (تيريسياس)المقدس من أعماق الجحيم وأمره (أرفع سيفك لأشرب الدم وأقول لك الحقيقة).

ومثل هذا الأمر يعزوه البعض إلى الصورة الذهنية؟

وتفسير ذلك أنه اذا ما اغمضنا عيوننا كانت لدينا صور بصرية للمناظر والوجوه التي سبق لنا أن رأيناها، وكذلك تكون لدينا صور سمعية عندما نستعيد نغمة كنا قد سمعناها، كما تكون لدينا صور لمسية حين ننظر الى فراء ثم نتصور كيف يكون ملمسه على الأصابع اذا ما مسسناه بالأيدي، هذه كلها تجارب لا سبيل الى الشك في وجودها.

لكن السؤال هو: كيف نصف أمثال هذه التجارب؟وكذلك قل في مجموعة أخرى من تجربة الانسان، ألا وهي الاحلام التي لا تختلف عن أحساساتنا أثناء الصحو إلا في عدم أرتباطها بالعالم الخارجي، اذ هي لا تتصل بهذا العالم العقلي بنفس الصلات التي تكون بين عالم الاشياء وعمليات الحس أبان الصحو والوعي، فالأحلام حقيقة واقعة لا شك فيها.

ومرة أخرى يفرض السؤال ذاته: هل تشتمل على (صور ذهنية) أو لا تشتمل على شيء من هذا القبيل.

لا يسلم أنصار المذهب السلوكي بوجود الصور الذهنية كما أنهم لا يسلمون أيضاً بالأحساسات والادراكات الحسية، اذ تراهم يذهبون إلى رأي مؤداه ألا شيء هناك سوى مادة وحركة، فلا يجوز لنا، اذن، أن نتحدث عن الصور الذهنية حديثاً نقارنها لما يحدث لنا من أحساسات وادراكات حسية إلا أذا أقمنا الدليل الواضح القاطع على وجود هذه الأخيرة ثم حددنا خصائصها ومنزلتها.

★ ★ ★

الملفت للنظر في طريقة التعاطي مع الرجم بالغيب هي أنه في ايامنا هذه، لم تعد الامور على ما كانت عليه من تعقيد. والمنجمون، أو المتنبئون المعاصرون أكثر تواضعاً من أسلافهم،

إنهم ينهون تنبؤاتهم غالباً بجملة (الله أعلم) تنكراً منهم للخطأ، لكي يكون الصواب هو الذي يتمسكون به وينسبونه إلى أنفسهم، وذلك مع تطور الزمن ولانتشار العلم والمعرفة.

لقد بات معظم الناس يرددون أنه ليس في أي تنبؤ، اي نوع من الحقيقة، قائلين أنه نوع من (الرجم بالغيب) أشبه بالتوقعات الصحافية، بعضه يصيب فيسجل (سبقاً) يستشهد به، ومعظمه يخطئ، فلا يذكره أحد، ويسدل عليه ستار النسيان.

كلنا نذكر الضجة الاعلامية التي قامت بعد حرب ١٩٦٧ وكيف (نبش) كتاب الكاتب الهندي كارانجيا المسمى (خنجر اسرائيل) والذي صدر منذ عدة سنوات وترجم للعربية، دون أن يثير أي ضجة، أقول كيف (نبش) من عن الرفوف الممتلئة بالغبار وبدأ الناس يفسرون كل كلمة قالها المؤلف بنبؤة تطبق الآن على الواقع!!

واذا قيل اليوم (أن في المنجمين والمتنبئين شيئاً من السماء) ففي السابق كان يقال (أن الاله يتكلم من فم الكاهنة بيثي).

واذا كنا الان نستعمل عبارة التخطيط المستقبلي لخمس أو عشر سنوات، فما أدراك ب(التخطيط) السابق الذي كان يعرف ب(التنبؤ). والفارق بينهما هو فارق العصر، بين الجهل والتقدم، العلم والخرافة.

لهذا سندع القول في هذا الفصل إلى التنبؤات القديمة التي حاولت أن ترسم خطوطاً بيانية لمختلف العصور، وأن لم تحاول أية منها تجاوز حدود القرن العشرين فيما عدا عدداً يسيراً، توغل قليلاً إلى ما بعد سنة ٢٠٠٠ ثم ما لبث أن توقف وأكتفى بالصمت، كما يلاحظ كذلك أن أكثر من برع في اصدار التنبؤات، وفي نسبتها إلى الأنبياء هم اليهود، وهم أنفسهم الذين أستغلوها فيما بعد ليجعلوا منها حقوقاً مكتسبة بحكم قدسيتها، ورددوها على ألسنة الذين لا ينالهم الشك لا من أمامهم ولا من خلفهم!فمعظم التنبؤات اليهودية ترتكز على عودة المسيح، الغرض من هذا التركيز واضح، لأن اليهودية تؤكد أن المسيح لن يأتي إلا بعد بناء المعبد، أي معبد سليمان، في القدس، وقد عنوا بذلك أن تبقى القدس بحوذتهم وعاصمة لهم.

وغالباً ما تكون عمليات التنبؤ مصحوبة بنماذج منوعة من الاساطير، وخاصة التنبؤات التي تنسب إلى الانبياء والقديسين.وهناك رؤيا تتحدث عن العجائب السبع والاقزام السبعة والأبواق السبعة والكؤوس السبع والكنائس السبع.

ففي العجائب السبع روى الكثير عن حدائق بابل المعلقة، كما كان الحديث عن الاهرامات وتمثال جوبيتر وسور الصين العظيم وغير ذلك.

وحسب رؤيا الاختتام السبعة فإن النبي يوحنا الذي صعد بروحه إلى السماء وشاهد روعة الخالق وجده محاطاً بأربع وعشرين عجوزاً واربعة حيوانات هي: الاسد والثور والانسان والنسر، وقد قدمت إليه لفافة عليها سبعة أختام ومخطوطة من الداخل والخارج مما يعني أن الوحي كان كاملاً. وفتح الحمل الختم الاول فأنطلق فارس أبيض يحمل قوساً. ولما فتح الختم الثاني أنطلق حصان أحمر بلون النار وتلقى راكبه سيفاً كبيراً. وفي حين فتح الختم الثالث أنطلق جواد أسود وكان راكبه يمسك في يده بميزان. ولما فتح الختم الرابع أنطلق جواد أخضر، وكان اسم راكبه الموت.

إن العرف والتقاليد تقول أن الفارس الذي يمتطي حصاناً ابيض يأتي من الشرق، ومهمته التحريض على نشوب حرب بين الشعوب. ويقترن ظهوره بقوة تقوده إلى النصر، ويتلقى تاجاً مكافأة له. أما الفارس الثاني الذي يمتطي جواداً بلون النار فيأتي من الشمال، والسيف الذي تلقاه يعني أنه سيأتي بالحرب الاهلية التي تؤدي إلى نشوب معركة دامية تسبب الخراب والانهيار. في حين يأتي الفارس الثالث من الجنوب على جواد أسود ويحمل ميزاناً بسبب المجاعة.والفارس الرابع الذي يمتطي جواداً أخضراً فيأتي من الغرب وهو يحمل الاوبئة.

ونعود إلى الاختتام حيث نرى حين فتح الختم الخامس كيف شاهد حنا تحت المذبح أرواح أولئك الذين ألتزموا بوصايا السماء، وجاءوا يطلبون العدالة، فيتلقون الوعد بالانتقام لهم، حالما يصل أخوتهم الذين قتلوا مثلهم. ولما فتح الختم السادس، حدثت هزةأرضية مهولة، وأصبحت الشمس سوداء، وبات للقمر لون الدم، وسقطت النجوم علىالارض كما تسقط ثمار شجرة التين تحت وطأة الرياح، وطويت السماء مثل كتاب، وقذفت الجبال والجزر من أماكنها، وأختبأ الاغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء داخل الكهوف.

وتقول النبوءة هنا، أن المقصود بذلك هزة أرضية عنيفة تجتاح شواطئ البحر الابيض المتوسط، لأن النص لا يوحي بانفجار قنبلة ذرية أو هيدروجينية أو نيتروجينية.

وبعدها رأى حنا الملائكةالاربعة وسمع أن قبائل اسرائيل الأثنتي عشرة يتم أنقاذ مائة وأربعين الف عادل!!

وحين فتح الحمل الختم السابع ساد الصمت السماء حوالي نصف ساعة، ومن ثم رأى الملائكة السبعة يتلقون الابواق السبعة.

بعدها تقدم ملاك يقف أمام المذبح وهز مبخرته الذهبية، ثم فجأة، أخذ ناراً من المذبح ووضعها في المبخرة وما لبث أن ألقى بهاأرضاً فأنفجرت الصواعق والبروق. وفسرت هذه

النبوءة بأن فترة هدوء ستسود بعد الهزات الأرضية، ثم يعود الاعصار عنيفاً وبعد ذلك تدمر النار العالم.

ونتتقل بعد الأختام السبعة الى الابواق السبعة.

وهنا يقصد بذلك الملائكة السبعة الذين يحملون الأبواق السبعة وهم يستعدون للنفخ فيها.

فحين ينفخ الملاك الأول تقصف الكرة الارضية بالنار الممزوجة بالدم، ويحترق ثلث الارض، وهو الثلث الذي ينبت فيه العشب والشجر، وعندما ينفخ الملاك الثاني في بوقه، يظهر جبل من النار يقذف إلى البحر، فتصبح مياهه دماء ويدمر ثلث ما فيه من أسماك وسفن. ومع البوق الثالث يسقط من السماء نجم كبير ملتهب يسمم مياه الأنهر والينابيع، وأسم هذا النجم (أبسنت) وهو يعني مر.

ولقد عني (علماء) التفسير بهذه النبوءة القنبلة الذرية وذلك حسب رأي أحدهم بعد ما سمع عن ضرر القنبلة الذرية وقبل أن يطلع على الاضرار الاشد التي تسببها القنابل الذرية الحديثة.

ومع البوق الرابع تأتي الكلمات.

أما مع البوق الخامس فتختفي الشمس وراء الدخان وتظهر بأعداد هائلة من الجراد. ومهمة الجراد تعذيب البشر خلال خمسة أشهر إلى حد أنهم يشتهون الموت. وتشبه ارتال الجراد جياداً أعدت للمعركة، على رؤوسها ما يشبه التاج الذهبي ووجوهها شبيهة بوجوه البشر، وصدورها كأنها مصفحة بالحديد وحفيف اجنحتها له دوي الدبابات التي تقودها جياد عديدة تعدو إلى القتال، وقد رأى بعض (علماء) التفسير في هذا الوصف طائرات تخرج من المعارك، وبعضهم الاخر رأى أن الامر يتعلق بجواد حقيقي ضخم من الصعب التخلص منه وتستمر حياته خمسة أشهر.

والبوق السادس والبوق السابع متشابهان بالمحصلة حيث يأتي شاهدان مرسلان من السماء، ورأى البعض في الشاهدين أليأس وموسى.

أما مع البوق السابع فيصبح العالم ملك الرب.

والرواية تطول إلى أن تنتهي بأن الملائكة السبعة يطلعون النبي على المدينة المقدسة، أي القدس، ولهاسور كبير فيه ١٢ باباً.

★ ★ ★

سنتجاوز تنبؤات نوستر داموس لأن الحديث عنها مطول وقد أفردنافصلاً خاصاً لها في كتاب آخر ولنتناول تنبؤات الكاهن المجهول، خاصة في كتابه (مستقبل العالم).

وهذه التنبؤات نسبت الىالقرن السابع عشر ويعتبر صاحبها القرن العشرين أعجب القرون التي تمر بالعالم،حيث يقول أنه (سيأتي زمن مشحون بالرعب والبؤس للبشر جميعاً. أن كل ما يمكن تصوره من أمور رديئة وسيئة ستحدث في ذلك القرن العشرين. ففي بدايته، أمراء كثيرون في بلاد عديدة، سيثورون على آبائهم، ،والمواطنون سيثورون على سلطتهم، والأطفال سيثورون على أهلهم، والملحدون سيثورون على الله، وشعوب كثيرة ستثور على أنظمتها.وستنشب حرب تتساقط فيها الكرات ـ القنابل ـ من السماء.وستنشب حرب ثانية تقلب أوضاع الخليقة كلها، وستحدث كوارث في الثروات والممتلكات،وستراق دموع كثيرة. سيتجرد البشر من الروح ومن الشفقة. وستنتشر سحب مسمومة، واشاعات حارقة أشد تأثيراً من شمس خط الاستواء. وستتحرك قلاع من الحديد، وسفن طائرة مملوءة بكرات رهيبة وبأسهم،وبنجوم مذنبة قاتلة، وبنار كبريتية تدمر كبريات المدن.. ذلك القرن ـ العشرون سيكون أغرب القرون لأن البشر جميعاً سيكونون مجانين بذواتهم وبالعالم،وسيدمر بعضهم بعضاً).

ومثل هذه النبوءة تحمل كل ما نشاهده في الوقت الراهن من طائرات وسفن عملاقة وصواريخ وغير ذلك الكثير حسبنا أن نقول أن الراهبة ب.بوكيون قد تنبأت عام ١٨٥٠ بأن بداية النهاية لن تكون في القرن التاسع عشر بل ستكون حتماً في القرن العشرين . والذي يدعو إلى التأمل في سائر تنبؤات المتنبئين هو أنهم جميعاً تقريباً يتفقون على أن أشد أزمات العالم حدة ستبدأ بين سنة ١٩٨١ ـ ١٩٨٤ (جورج اورويل مثلاً) وأن الحضارة الغربية ستنهار، وهو ما يقصدون بنهاية العالم لتحل محلها حضارة أخرى (تتولاها قوى جديدة، أو جنس جديد، أو قارة جديدة). ويحدد المتنبؤن أواخر القرن الحالي، وعلى وجه التحديد سنة ١٩٩٢ كموعد لزوال الحضارة الغربية.

وكان ادغار كيس المولود في ١٨ آذار ١٨٧٧ من أغرب المتنبئين، فهو قد تنبأ بالحربين العالميتين، وبمجموعة من الكوارث حدثت فعلاً. ويملك ادغار القدرة عندما يغرق فيما يسميه غيبوبة مغناطيسية أن يرى، بوضوح داخل جسد الانسان، وأن يذكر ما فيه من أمراض بدقة أدهشت اصدقاءه الاطباء الذين كانوا يلجأون إليه أحياناً.وهو لا يكتفي بتحديد الأمراض، بل يصف ايضاً أسلوب معالجتها دون أن تكون له أية علاقة بالطب، ويذكر أسماء الادوية اللازمة وكيف يجب التعامل معها!!

وقد ملأ الدنيا وشغل الناس هذا المتنبئ الى أن توفي عام ١٩٤٥، بيد أن شهرته لا تزال قائمة، بين تنبؤاته (أن مدينتي لوس أنجلس وسان فرنسيسكو ستدمران وستلحق نيويورك بهما.

سيحدث هذا بعد جيل كامل). كذلك تنبأ أدغار بأنه (فيما بين سنتي ١٩٥٨ و١٩٩٨ ستحدث أنقلابات وأحداث خطيرة، مثل الهزات الارضية وطغيان البحار وغير ذلك تبدل من طبيعة قشرة الكرة الارضية، ويبدأ هذا ببطء ثم يتزايد بسرعة ابتداء من سنة ١٩٦٨ أو ١٩٦٩).

وحين كانت هذه المواعيد تقترب كان (الايحاء) يجعل من علماء الطبقات الارضية يؤكدون أن ذلك سيحدث، وهذا ما يشغل مساحات من صفحات المجلات والصحف للتحدث عن عواقب ذلك.

لا بل كان يتوقع للكل المصاعب والكوارث:

بالنسبة لكاليفورينا توقع أدغار أعصاراً رهيباًيجتاحها عام ١٩٧٨ أو ١٩٨٠ (ولم يحدث ذلك)

ولليابان توقع أنزلاقاً أرضياً إلى البحر (ولم تتحقق هذه النبوءة)

أما لأمريكا فتوقع حرباً أهلية بين الملونين والبيض في قرننا الحالي (وهذا لم يحدث إلى الآن)

وتوقع للعالم مجاعة شاملة(ربما كان هذا التوقع صحيحاً، أو أن يكون أدغار قد قرأ نظرية مالثوس)

ويعرج أدغار على روسيا وبالتحديد على عصر غورباتشوف حين يقول (عبر روسيا سيأتي الأمل للعالم. ستنتهي الشيوعية، ستشرق شمس الحرية التي يعيشها كل انسان من أجل صديقه، ستنطلق مبادئ الحرية الصحيحة من روسيا).

قلنا في البداية أن صاحبنا ادغار كان يغرق بـ(غيبوبة مغناطيسية) وهي أحدى الهلوسات التي تصيب الانسان فتجعله لدى البعض متنبعاً ولدى الناس الاخرين (عالماً)بالمستقبل.

ومن هذا القبيل ما روى على أثر أحدى غيبوباته المغناطيسية من انه (رأى قبراً مملوءاً بالوثائق، وكان القبر داخل أحد الاهرامات الصغيرة.أما الوثائق فانها تحتوي علىمعلومات لا تقدر بثمن من مصر القديمة وعن الاطلنتيس، وهي القارة المفقودة. ويوجد الاهرام الصغير تحت الرمال قرب قائمتي أبي الهول وسيتم أكتشافه سنة ١٩٧٨).. (وبالطبع لم يكتشف أي شيء إلى ساعة كتابة هذا الفصل).

أما الام شيبتون فهي معروفة جيداً في أنكلترا منذ قرون عديدة حتى كادت تصبح اسطورة.فقد تنبأت بين ما تنبأت، بأن (أنكلترا ستتعرض للغزو، وبعد ذلك ينتهي العالم في سنة ١٩٩٤).

وفي هولندا تجسدت السيدة العذراء لفتاة شابة ٤٦ مرة بين شهر آذار ١٩٤٥ ونهاية سنة ١٩٥٤ وبين ما نقلته الفتاة على لسان العذراء:

* ستأتي شعوب من الشرق، من فارس، من العرب، سيتمزق العالم إلى أثنين.
* ستكون هناك مآس كثيرة وبؤس كثير
* في القدس ستخفي شعوب الشرق وجوهها بأيديها، ستقول: التعاسة لمدينتنا.
* في القدس وحولها وقربهاستدور معارك عنيفة (هل هي معارك حرب ١٩٦٧).
* من سائر الظلال أكثرها سواداً يخيم على الشرق.
* يجب أن تعلموا أن أخطاراً ضخمة تهدد أوربا والعالم.

وأشارت السيدة العذراء إلى الشرق وأضافت:

* سيأتي نزاع كبير بين روسيا وأمريكا..أنه يقترب
* هولندا أيضاً تبدأ طريقها إلى المنحدر
* كنيسة روما في صراع ضخم. قبل سنة ٢٠٠٠ ستتبدل أشياء كثيرة في الكنسية والطائفة.
* الويل لك أنكلترا

على أوربا أن تكون حذرة وأن تحذر شعوبها

* الشرق ضد الغرب.. أحذري يا أوربا.

ومن التنبؤات المثيرة ما قدم عام ١٩٦٠ إلى قداسة البابا حنا الثالث عشر مغلف مغلق يتضمن النبوءة الثالثة التي عرفت بأسم نبوءة فاتمه. وفاتمه هي قرية صغيرة في البرتغال تجسدت فيها السيدة العذراء ست مرات لثلاثة أطفال بين ١٣ أيار و١٣ تشرين الاول ١٩١٧ .وفتح قداسة البابا المغلف في الوقت المحدد لفتحه وقرأه ثم أحتفظ به سراً. لكن تردد في سنة ١٩٦٣ أن البابا بولس السادس الذي خلف يوحنا الثالث عشر، أرسل جزءاً فقط من النبوءة السرية ـ على سبيل المعلومات ـ إلى كل من واشنطن وموسكو ولندن، لكي تدرك هذه العواصم أي منحدر رهيب ينزلق العالم فيه بسبب التطورات النووية. ثم تردد أن في هذا الجزء ما يلي: (أن الحرب الكبرى ستنشب في النصف الثاني من القرن العشرين. أن النار والدخان سيسقطان يومها من السماء، وسينهار كل شيء مغتصب، وسيفقد الملايين والملايين من البشر أرواحهم بين ساعة وأخرى. والذين سيبقون على قيد الحياة سيحسدون الاموات، وسيعم البؤس والالم كل البلاد والامصار).

★ ★ ★

النبؤات أو التنبؤات كثيرة ويختلط الحابل بالنابل بها بشكل قد يكون المتنبئ صاحب

هلوسات أو ممن يملكون حساً فائقاً للأحداث المقبلة، أو أن يكون الأمر مجرد كلام لشغل الناس والتحدث عن المجهول من حياتهم، فالانسان دائماً عطش إلى معرفة المجهول من العالم حتى ترتاح نفسه لذلك.

ويمكن تناول التنبؤ بما يحلله لنا علم النفس!

والسؤال الذي يدور هنا هو:

ماتحليل الصورة الذهنية التي نستعيد بها شيئاً كنا قد رأيناه أو سمعناه في لحظة سابقة من حياتنا

يجيب الدكتور واطسن على هذا السؤال بقوله أن الذي يحدث عندئذ هو أحد أمرين، فإما أن تعود إلى شبكية العين نفس الاثار التي كانت قد حدثت لها فيما سبق عندما كانت تتلقى المرئى ساعة رؤيته، وبذلك تكون العملية العضوية واحدة في حالة الحس الفعلي وفي حالة التصور الذهني على حد سواء، وإما أن يكون ما نستعيده مقتصراً على صورة لفظية، ومعنى ذلك أن الالفاظ تتمثل في حركات بدنية حقيقية ولكنها خفيفة، ولو ضخمت تلك الحركات وطال أمدها لأدت إلى نطق صحيح مسموع لتلك الالفاظ،والذي يحدث عند أكتساب الانسان لخبراته المرئية والملموسة الخ، هو أن تلك الخبرات ترتبط بكلمات ، فإذا ما حدث فيما بعد أن تحرك البدن بالحركات التي تقتضيها كلمة معينة جاء في أثر تلك الحركة البدنية ما كان قد أرتبط بها من تغيرات عضوية في العين أو في الاذن.

وهذاالترابط يكون بين مؤثرين، بحيث اذا أقترنا كان كل منهما كافياً وحده أن يستحدث رد الفعل الذي يستحثه المؤثر الآخر، ومن ذلك أيضاً أنه اذا تأثرت العين بأثر ضوئي في نفس اللحظة التي تتأثر فيها الأذن بأثر صوتي، لكان الصوت وحده فيما بعد كفيلاً أن يحدث في العين نفس الاثر الذي كانت تأثرت له عند رؤية الضوء. مثال ذلك أن من طبيعة انسان العين أن يضيق للضوء الشديد،فإذا ما أقترن هذا الضوء الشديد بصوت مرتفع، ثم أحدثنا هذا الصوت وحده فيما بعد ضاق إنسان العين كما لو كان الضوء واقعاً عليه، هذه حقيقة تجريبية لا سبيل إلى أنكارها،ويمكن، في رأي السلوكيين، ان تفسّر الصور الذهنية على هذا الاساس، فأفرض أنك قد شهدت منظراً معيناً في أيطاليا، ثم حدث لك فيما بعد أن جلست في دارك وأغمضت عينيك وأرتسمت في ذهنك صورة لذلك المنظر،فالحقيقة هنا هي أن لفظ (لبنان)،وهو أثر سمعي، قد أهتزت به الأعضاء البدنية الخاصة بنطق الألفاظ، وإن تكن قد أهتزت هزة خفيفة لم تبلغ أن تكون صوتاً مسموعاً، ولما كانت هذه الاهتزازة الحركية اللفظية مرتبطة بأثر معين على شبكية العين، وفي عصب الابصار ـ وهو أثر كان قد تم حدوثه

عندماأبصرت المنظر المذكور ـ فإنك عندئذ ستكون في حالة عضوية تشبه حالة من يرى المنظر قائماً بالفعل أمام عينيه. وقد يستتبع هذا الاثر العضوي أثراً أخر كان قد أرتبط به، فاثرا ثالثاً فرابعاً، فتتصور بذلك أنك تستعيد صوراً ذهنية لرحلة طويلة قمت بها. مع أن الذي يحدث لك فعلاً هو حركات عضوية خفيفة هي نفسها الحركات التي كانت تحركت بها حواسك وأعصابك عند ممارسة الاحساس في زمانه.

إن الفكرة التقليدية في مبدأ الترابط أنه ترابط بين الافكار، ثم جاء السلوكيون فحوروه اذ جعلوه ترابطاً بين الحركات،أي بين أجزاء السلوك، وبهذا ترتد الأفكار نفسها إلى وحدات سلوكية.فالمدركات الحسية تنحل إلى مجموعات من حوادث تختلف عن الأشياء الخارجية المدركة التي تكون تلك المدركات الحسية مدركات عنها، ولا ترتبط الأولى بالثانية إلا بالروابط السببية ولهذا فليس ما يمنع أن يكون الترابط في قطاع الحوادث ـ التي هي قوام المدركات الحسية ـ شبيهاً في أثره بالترابط الذي يحدث في مجال العضلات والغدد، وبعبارة أخرى ليس هنالك ما يسوغ لنا انكار ما كان يسمى من قبل (بترابط الافكار) على الرغم من أن التغيرات الجسدية هي الأخرى ترابط، واذا كان لا بد لترابط الأفكار من أساس عضوي نقيمه عليه، فيجوز لناأن نقول أن ترابط الأفكار يحدث في المخ، فحالة المخ التي تؤدي بنا إلى نطق كلمة هتلر تكون مرتبطة بحالة المخ التي تؤدي بناإلى رؤية (صورة) هتلر، وبهذا يمكن للكلمة والصورة أن تستدعي احداهما الثانية.

ومن جهة أخرى فإن بعض هؤلاء المتنبئين كانت لهم غيبوباتهم المغناطيسية، وهو نوع من الصرع يعاني المصابون به من تغير ذاتي قبل أن تأتيه النوبة بأيام أو ساعات، فيشعر بالتوتر وسرعة التهيج والغضب، أو بالصداع والخمول والكآبة، وغالباً ما يكون هذا التغير مؤلماً وشديد الوطأة على المصاب، حتى أن بعضه-وبنتيجة التجربة ـ يتمنى لو جاءته نوبة الاختلاج والاغماء ليتخلص من تلك الفترة المؤلمة، كما أن البعض الآخر يلجأ إلى أحداث الالم في جسمه لكي يؤخر أو يمنع النوبة، وعلى العكس، يلجأ آخرون إلىالاسراع في حدوث النوبة بالإثارة والتحفيز، ويكتشف المصاب بالتجربة تلك الحوافز التي تعجل في حدوث النوبة. فمنهم من يحدث تغيرات سريعة متلاحقة من الضياء والظل عندما يقف أمام الشمس بتحريك أصابعه أمام عينيه بسرعة وأنتظام. فكأنه يختلق نوعاً من الاشعاعات المتناوبة والموجات المتلاحقة التي يبثها التلفاز أو اعلانات النيون الضوئية السريعة. وهذا التحفيز البصري يعجل في حدوث النوبة عند بعض المصابين.

أما (النسمة) التي تسبق الاختلاج والاغماء فقد تتخذ صوراً عقلية وحسية معقدة وغريبة أشبه بالأحلام والرؤيا. فقد يشعر المصاب أنه في عالم آخر، أوتتراءى له بعض الاماكن والوجوه وكأنها معروفة لديه منذ زمن سحيق (التذكر المسبق)، أو على العكس تبدو الاماكن والوجوه الاليفة وكأنها غريبة جديدة (التذكر المتأخر). وبالإضافة إلى التخيلات البصرية،فإن حواساً أخرى ينتابها الاضطراب كالشم والتذوق واللمس. وقد يتغير شكل الموجودات والمرئيات بالنسبة للمصاب فيرى الاشياء تتقلص وتصغر (رؤية مصغرة) أو تتضخم (رؤية مكبرة).

وفي مرحلة النسمة أيضاً تراود المصاب أفكار قسرية تخترق ذهنه بقوة وأصرار. ويقال أن هذه التغيرات المعقدة المختلطة مع بعضها تشبه ما يصفه بعض المتصوفة والدراويش والكهنة من تجارب وأنكشافات وراء الحجب، ويقال أيضاً أن بعض هؤلاء كانوا فعلاً مصابين بمرض الصرع وأن الافكار القسرية والرؤيا والخبايا التي أنكشفت لهم كانت من صنع هذه المرحلة من نوبة الصرع. ويجب التأكد ههنا على أن هذا الافتراض لا يشمل الجميع بل لقلة منهم. ويذكر بعض الباحثين في الغرب أسماء قديسين وقديسات كانوا مصابين بالصرع فعلاً.

الاتفاق العارض

تبدو قدرة حواسنا خارقة ومتعددة الوجوه،وقد جرى الخلط بينها وبين الكثير من أمور الحياة، حتى أن من يشيّع لمذهب ما من مذاهب علم النفس قادر على أقناع القارئ برأيه من خلال معرفته بخلفية هذا القارئ ومن ثم أيهامه بما يريد.

وقد أثارت الاحداث التي جرت نتيجة الاتفاق العارض الكثير من اللغز والحيرة، وذهبت التخمينات في كافة الاتجاهات، ولكن تبقى الصدفة في كل ذلك هي بالتأكيد التي تصنع أشياء غريبة.

من ذلك أنه أستبدل في العام ١٩٦٧ رقم هاتف أحدى مفوضيات الشرطة في مدينة لندن، بحيث أصبح ٤٠١١٦ وقد طلب أحد الموظفين الذي كان يعمل في هذه المفوضية من أحد أصدقائه أن يخابره هاتفياً أثناء عمله في مساء اليوم التالي، ولكنه أعطى الصديق الرقم ٤٠١٦٦ دون أن ينتبه لخطأه إلا في الغد أثناء تسلمه وظيفته. وفي هذا المساء بالذات، وفيما كان يتجول مع زميل له في أحد الاقسام الصناعية، لاحظ ضوء يسطع من خلال نافذة أحد المصانع، فدخل إلى المبنى لأستطلاع المكان. وفي اللحظة التي دخل فيها إلى الغرفة المضاءة، قرع جرس الهاتف، فرفع الموظف السماعة،وكم كانت دهشته كبيرة عندما سمع على الطرف الثاني من الخط الشخص الذي أعطاه الرقم الخاطئ، لم يكن رقم الهاتف مسجلاً على سنترال الهاتف داخل المصنع، كما لم يكن مسجلاًفي الدليل، لكن ادارة المصنع أكدت في ما بعد أن هذا الرقم ٤٠١٦٦ .

ويصف آرثر كوستلر هذا النوع من المفارقة بأنه (لعبة كلمات مصيرية) ثم يروي قصة فتاة ريفيةيعود تاريخها إلى القرن الماضي، وقد جاءت هذه الفتاة إلى لندن لزيارة شقيقتها اليزابيت ماري باركر التي كانت تسكن المنزل ذا الرقم (٣٦ - ايتون بليس) وفي طريقها إلى المكان، خانتها الذاكرة وضلت الطريق،وبدافع خيبة الامل قرعت على الرقم ٣٦ من شارع كان يبدو لها أنه يحل الاسم نفسه.وسرعان ماوجدت نفسها أمام سيدة تدعى اليزابيت ماري باركر

وتسكن في هذا البيت. لم تكن هذه السيدة شقيقتها، لكنها أستطاعت أن تساعد الفتاة، لأن أخطاء عدة من البريد قد حصلت، بسبب تشابه الاسماء ثم قالت للتائهة أين تجد شقيقتها.

إن هذا النوع من المفارقات يصفه ارثر كوستلر بأنه يثقف ويثير الذهن، ويجذب الانتباه نحو ميل (العناصر السمباتية) كما يقول الطبيب اليوناني أبوقراط، مشيراً هكذا، إلى آلية تختبئ وراء قوانين الطبيعة. فلنفكر قليلاً في المأزق الذي يعيشه شخص يبحث عن صديق في مدينة كبيرة، فإن لديه آمال ضعيفة في أن يلتقيه صدفة في الشارع. إن القيام بتقصي منتظم لأرجاء المدينة عن طريق تفحص كل الاسماء المسجلة على الابواب،يمكن أن يؤدي إلى نتيجة، ولكن ذلك يتطلب الكثير من الوقت.الطريقة الوحيدة الصالحة هي في محاولة حذف أكبر عدد ممكن من البدائل الممكنة. وهكذا فإن معرفة رقم المنزل ٣٦ تقلص الخيارات. يبقى من الافضل معرفة أسم الشارع، لكن الجمع، كما رأينا،بين أسم الشخص المطلوب، ورقم المنزل وقليل من الحظ يكفي.

وفي الاحلام لرى ما يتحقق في اليوم التالي أو بعد أسبوع، أو بعد شهر بحذافيره، فنندهش بادئ الامر، ثم نهز كتفينا. وفي ذلك روى أحد القراء أنه منذ أسبوعين رأى فيما يرى النائم، أنه خرج من البيت وأتجه إلى السلم، فأعترضته طفلة شقراء جميلة، وأبتسمت له، ثم جاء وراءها رجل طويل القامة أسود الشعر، فحياه بلطف، وأخبره أنه والدها، وأنه قطن في المبنى نفسه، ودعاه لزيارته، وبعدما ودع الرجل، ربت على خد الطفلة، نزل السلم، فما كاد يصل إلى قرب نهايته، حتى أنزلق وتدحرج من أرتفاع أربع أو خمس درجات، فهرع أبن البواب وأنهضه،وأضطر للعودة إلى البيت لينظف ثيابه مما علق بها.

وبعد ثلاثة أيام من هذا الحلم، كان خارجاً من البيت، فرأى الطفلة نفسها، ولم يكن قد رآها من قبل، ثم رأى والدها، وكان ايضاً بالأوصاف نفسها، وقال له ما سبق أن قال في الحلم، ولما ودعه ونزل السلم، كان شديد الحذر، حريصاً على ألا ينزلق الانزلاق الذي حلم به، لكن ما كاد يصل إلى قرب نهاية السلم حتى شعر بأن قدمه وطأت مادة لزجة لم يتبينها، فلم يستطع تفادي الانزلاق والسقوط. وقد جرت العادة أن البواب-الاب - هو الذي يقف على مدخل المبنى يومياً، لكن في ذلك اليوم كان أبنه هو الواقف، وهو الذي هرع اليه وأنهضه.وهنا قرر، مغيظاً، الا يحقق الحلم كاملاً، فلا يعود الى البيت لينظف ثيابه، إلا أنه ما وصل إلى رصيف الشارع، حتى لحق به أبن البواب وأستوقفه،ثم همس في أذنه قائلاً: أن مقعد بنطاله ممزق، فأضطر للعودة إلى البيت ، بالرغم من أن التمزيق هو الشيء الوحيد الذي لم يراه في الحلم.

كما قرأت القصة التالية بصدد الاتفاق العارض.

كان الشخص مستغرقاً في النوم في بيته، حينما سمع قرعاً عنيفاً على الباب، فلما نهض وفتح الباب لم يجد أحداً، لكنه ما كاد يعود إلى سريره، حتى سمع القرع يتكرر أعنف من المرتين السابقتين، فلم تسعفه قواه. كان الذعر قد أستولى عليه، وصور له أن الشياطين أو الجن التي تقرع الباب! إلا أنه مالبث أن سمع صوتاً يناديه. فلم يصدق أذنيه. ثم ما لبث أن عرف الصوت، فهو لشقيق له مقيم في أمريكا الجنوبية. وكان الذي جرى الحادث معه مقيماً في أحدى ضواحي العاصمة الفرنسية. وعندما تأكد من أن الصوت هو صوت شقيقه وأستعاد روعه، نهض وفتح الباب، فلم يجد أحداً أيضاً، وقد قضى بعد ذلك وقتاً طويلاً يتوقع قرع الباب من جديد، لكن القرع توقف، وساد المكان هدوء مثير، حتى اذا غلبه النعاس أستلقى على فراشه ونام.

بعد مضي ثلاثة أيام على هذا الحادث، تلقى الشخص برقية تنبئه بوفاة شقيقه. وتأكد فيما بعد أن الوفاة حدثت ساعة كان يسمع القرع العنيف على الباب!

ونشرت الصحف الهندية مرة، قصة رجل أندونيسي جاء إلى دلهي الجديدة ولم يكن قد جاء إليها من قبل، كما لم يكن قد جاء إلى أية مدينة هندية. وفي أثناء تجواله في أحد شوارع المدينة مع مواطن له مقيم في دلهي، توقف الرجل فجأة، وأمسك بذراع مواطنه وقال له: هذا الشارع أعرفه جيداً، فرد عليه صاحبه: مستحيل.. أنا واثق من ذلك.. وأعتقد أن في الشارع الفرعي هذا وأشار إلى شارع صغير متفرع عن الشارع الرئيسي ـ مطعماً، وإلى جانبه داراً للسينما.. وإلى جانب دار السينما بائع أحذية.

ونظر صديقه مشدوهاً وسأله: هذا صحيح.. لكن كيف عرفت؟ فأجاب: لا أدري.. إنما أحسست فجأة بأنني أعرف.. كما لو كنت مررت بهذا المكان عدة مرات!

إن القصص من هذا القبيل كثيرة، ولكنها مشوقة ويطمح القراء إلى قراءة تفسيرها بما يروي ظمئهم، حتى أن مثل هذه الحوادث قد تكون من أختراع الخيال أو الصحافة لإثارة القراء ووضعهم في عالم التشويق والمجهول!!

وإليكم قصة أخرى حول هذا الموضوع.

نهض احد ركاب الطائرة وأتجه إلى المضيفة في المقدمة، وأخذها جانباً، وهمس لها (أنني أشعر بخطر قريب! أرجو أن تتأكدي من قائد الطائرة، هل كل شيء سليم؟) فضحكت المضيفة، وطمأنت الراكب، ورجته العودة إلى مقعده، لكن الراكب أصر وألح، حتى أصاب المضيفة بعدوى الخوف.. فذهبت إلى قائد الطائرة وروت له ما حدث. فضحك بدوره، لكنه

لم يترددعن ألقاء نظرة فاحصة على الاجهزة والعدادات أمامه، واطمأن إلى أن كل شيء سليم،وليس من المتوقع حدوث شيء.. فقال للمضيفة: عودي إلى الراكب واخبريه أن لا شيء يدعو إلى القلق، وأن الطائرة في حالة جيدة. وفعلت المضيفة ما أوصى قائد الطائرة به،وعاد الراكب إلىمقعده، لكن الشعور بالخطر لم يفارقه.

بعد قليل، وثب ثلاثة ركاب من الطائرة نحو غرفة القيادة، وما لبث القائد أن أعلن عن أختطاف الطائرة، ووجه الرجاء إلى الركاب بوجوب الاحتفاظ بهدوئهم وبضرورة ضبط اعصابهم.

وأذكر أنني قرأت مذكرات قاض لبناني ذكر حادثة أنتحار حلمت الابنة بها ان والدها قد أنتحر وتأكد ذلك تماماً في الصباح الباكر.وقد وقعت الحادثة في.قرية جردية معزولة في أعالي الجبال. وكان المختار قد أعلم السلطة بهذه الواقعة فتوجه محقق وطبيب شرعي إلى تلك المنطقة. وحين دخل المحقق بيت المنتحر وجد صبية متشحة بالسواد ومعها شقيقاها الصغيران.تهيب المحقق الموقف فأمامه صبية حلت بها وبأخويها مصيبة كبرى هي فقدان الوالد بعد وفاة الوالدة في العام الماضي.

حيا المحقق أصحاب البيت ثم قدم تعازيه للصبية وجلس على كرسي في الدار وجلس حوله رفاق الرحلة. قامت الصبية لتحضير القهوة فمنعها المحقق وطلب منها الجلوس أمامه لإستيضاحها عن ظروف موت أبيها. وهنا ظهرت وقائع غريبة عجيبة حار المستنطق في تفسيرها، قالت الصبية:

كنا نعيش في هذه البيت المتواضع عيشة هنية رغم الفقر.كانت والدتي كل شيء في هذا البيت، فهي الزوجة الوفية والام الحنون وصاحبة الرأي والتدبير، عملت مع والدي في الحقل بجد وأخلاص لتأمين لقمة العيش وصبرت على الحرمان الذي تعاني منه بصدق وأيمان،وكان لوالدي نعم الرفيق في رحلة العمر فأحبها حباً جماً نظراً لوفائها ولكن الدهر لا يبقي على أحد ولا يدع أحد يرتاح، فقد خطفها من بيننا يد المنون فجأة في السنة الماضية فحزن أبي عليها حزناً أدى به إلى اليأس واسلمه إلى مرض السويداء فصار يشكو من ألم شديد في رأسه ثم بدأ يهذي وأخيراً صار يحب العزلة والابتعاد عن الناس فعملت جهدي كي أواسيه وحاولت ان أخفف من لوعته ولكنه بقي مسترسلاً في أحزانه ويأسه وسويدائه.

في الليلة الماضية، نام في غرفته كالعادة ونمت مع أخوتي في هذه الدار.وبعد منتصف الليل رأيت فيما يرى النائم حلماً مزعجاً أستيقظت منه مذعورة،فلقد شاهدت أن والدي قام

من فراشه وفتح باب غرفته ودخل الدار التي ننام فيها وأشعل قنديل الكاز وحمله ثم فتح الباب الخارجي وسار في الظلام. ورأيت نفسي أتبعه في الظلام وأناديه، وسألته مراراً إلى أين يا أبي؟ فلم يجبني بكلمة واحدة بل تابع سيره وأعدت السؤال بحرقة وبصوت يكاد يكون صراخاً فلم يجبني بل تطلع إلى الأفق البعيد كأنه أضاع شيئاً ثم حث الخطى وهو يحمل القنديل وتبعته مسافة كيلو متر تقريباً بعدها رأيته يصعد في الطريق المؤدية إلى هذه الصخور العالية فلحقت به، ولما وصل إلى أعلى الصخر المطل على الوادي السحيق وضع القنديل علىالارض ثم تمتم ببضع كلمات ورمى نفسه من هذا العلو الشاهق منتحراًوذعرت للمفاجئة وصرخت بكل قواي.فوجدتني في الفراش وقام اخوّي على صراخي فرويت لهم حكاية المنام وساورتنا الظنون فأشعلنا شمعة وقمنا نبحث عن والدنا في الغرفة فلم نجده بل وجدنا بابها مفتوحاً، وكذلك الباب الخارجي تماماً كما شاهدتهما في المنام.

وسرنا نحن الثلاثة في الظلام على ضوء الشمعة في الطريق الموحشة التي سلكها والدي في الحلم حتى وصلنا إلى الصخرة العظيمة التي كلمتكم عنها.صعدنا جميعاً إلى أعلى هذه الصخرة فشاهدنا القنديل، قنديل الكاز وقد أطفأته الرياح.وأطللنا على الوادي وكانت أنوار الفجر بدأت تظهر في الافق فشاهدنا ويا لهول ما شاهدنا، رأينا جثة والدنا في الوادي مسجاة كما رأيتها في المنام تماماً، وخلاصة القول أن ما رأيناه في اليقظة ما هو إلا نسخة صادقة عن الفيلم الذي شاهدت تفاصيله في المنام ولا أعرف كيف حدث هذا، وقد حكيت لكم القصة كما وقعت.

دهش المحقق لما سمع وقام الجميع إلى المكان الذي ضم رفاة الأب المسكين بعد أنتحاره فوجدوه مهشم العظام ميتاً. اجرى الطبيب الشرعي فحص الجثة وبين أسباب الوفاة ثم عادت القافلة إلى بيت المرحوم ولم يعد من حاجة لتوسيع التحقيق. فقد جزم الجميع بما فيهم الطبيب الشرعي أن ليس في القضية جريمة بل إنتحار، خصوصاً وقد بانت أسبابه فعاد المحقق وصحبه بعد وضع تقرير شامل عن الحادث إلىمقر عمله.



هل يتدخل الاتفاق العارض بين العبقرية وتاريخ الولادة؟

يرجح البعض من العلماء ذلك. وقد يدخل الامر ضمن الاتفاق العارض!

فإذا تعاون علماء الكيمياء والطبيعة والاغذية والاحصاء على البحث عن العلاقة بين العبقرية والتاريخ الذي يولد فيه الانسان لأستطاعوا على الارجح أن يتحكموا في مصير الجنس

البشري وفي الاكثار من العباقرة وأصحاب العقول الكبيرة. فقد أثبتت الاحصاءات أن أشهر الشتاء هي أخصب الاشهر لكثرة ما يولد فيها من النوابغ وأصحاب العقول الكبيرة. وهي في الوقت عينه في مقدمة الأشهر التي تكثر فيها المواليد من المجانين والذين تصاب عقولهم بمس من الخلل. وقد يظن القارئ أن في هذا القول شيئاً من التناقض، ولكن اذا تذكرنا ما يقوله الكثيرون من أن بين الجنون والعبقرية صلة حقيقية زال ذلك التناقض.

وقد يخيل إلى القارئ أن محاولة أيجاد علاقة بين صفات الانسان ومزاياه وقواه العقلية من جهة وتاريخ ولادته من الجهة الاخرى رجوع إلى التنجيم الذي لا يعترف عليه العلم. والحقيقة خلاف ذلك فليست المسألة مسألة تنجيم ولا بينها وبين التنجيم والخيال أية علاقة، إنما المسألة صدق أو لا تصدق؟

والفضل في (أكتشاف) ذلك إلى أحد علماء البيئة، حيث ألقى الدكتور (فرى) منذ أكثر من خمسين سنة وهو من أساتذة جامعة نيويورك القدامى خطبة أمام (جماعة هواة علم الفلك) التابعة لمتحف التاريخ الطبيعي الامريكي أورد فيها احصاءات وحقائق تأييداً لوجهة نظره.

يقول: اذا درست سيرة مائة ألف من العظماء الذين نبغوا في العالم منذ خمسة آلاف سنة إلى اليوم رأيت أن الجانب الأكبر منهم كانوا من مواليد فصل الشتاء - أي من مواليد كانون الثاني وشباط ونصف آذار، ويلي هذه الاشهر في كثرة النوابغ أشهر آب وايلول وتشرين الاول.

فهل هذه الظاهرة من قبيل العرض والاتفاق أم أن لها ما يعللها ويكشف عن سببها؟ أن الاحصاءات - في أميركا وأوربا - ولا سيما الإحصاءات التي قام بها طائفة من العلماء السويسريين - تؤيد الحقيقة التي نحن بصددها تأييداً تاماً لا تدع مجالاً للقول بأن هذه الظاهرة من قبيل (المصادفة) هذا على الأقل رأيها وكما ننقله من وجهة نظرها.

وما يصدق على النوابغ يصدق أيضاً على المجانين فإن أكثرهم هم كما تقدم من مواليد فصل الشتاء ايضاً. ولا عجب فإن بين العبقرية والجنون صلة قد أثبتها العلم، ففي كليهما يكون العقل خارجاً عن الحد الطبيعي. ويشير هؤلاء (العلماء) إلى أحصاءات تدل أيضاً على أن مواليد أشهر الصيف هم ذوو قوى عقلية مستقرة غير مضطربة بخلاف مواليد فصل الشتاء فإن قواهم العقلية في حركة وإضطراب مستمرين هما سبب العبقرية والجنون في آن واحد. ولعل أحسن تعليل للظاهرة التي نحن بصددها يقوم على نظرية تأثير الغذاء كيميائياً في الجنين قبل أن يولد. ولا يخفي أن بعض المواد الغذائية يكثر وبعضها يقل في فصل الشتاء. ففي هذا الفصل تقل البقول الطازجة والفواكه وتغتذي الابقار والاغنام بمواد معينة لا شك أنها تؤثر في لحومها

والبانها تأثيراً معيناً. الام الحامل تغتذي في أشهر الشتاء بلحوم كثيرة وبقول طازجة قليلة. فإذا كان فصل الصيف أقلت من أكل بعض اللحوم وغيرت نظام تغذيتها، أفليس من المعقول أن يكون تأثير المواد الغذائية هو سبب كثرة من يولد من العباقرة والنوابغ في أشهر الشتاء؟

وقد تساءل هؤلاء: اذا صدق هذا التعليل أفلا يكون في وسع الانسان أن يتحكم في ولادة العباقرة والنوابغ فيتخذ ما يمكن من الاهبة للإكثار من مواليد فصل الشتاء ولتوفير المواد الغذائية المعينة لهم؟

وكان جوابهم أنه من المحتمل أن يكشف علماء الكيمياء سر تأثير بعض المواد الغذائية في بناء القوى العقلية والخلقية. وفي هذه الحالة يستطاع تنشئة النوابغ حسب الطلب وذلك بالتحكم في تواريخ ميلادهم وبإعطائهم المواد الغذائية التي تصلح دون غيرها لبناء صرح العبقرية.

إن الارقام والتعليقات التي أدلى بها هؤلاء (العلماء) وعلى رأسهم الدكتور فري تدخل ضمن خانة الاتفاق العارض ليس أقل أو أكثر من هذا التعريف.

* * *

وعلى الصعيد البيولوجي نرى الكثير من الحوادث قد تفسر بأنها ناشئة عن الاتفاق العارض، بيد أن العلم يضع لها مسبباتها بعد أن أصبحت البيولوجيا علماً لا بد منه لمناقشة جميع المعضلات الانسانية. وسواء كانت هذه المعضلات تعود إلى النظام الإجتماعي أو الاخلاقي أو الفلسفي، فإن أي معضلة منها لا يمكن تناولها دون الاستعانة بالمعارف الايجابية التي تقدمها البيولوجيا لنا. إن هذه الأخيرة تمكننا من أن نحدد في المملكة الحية منزلة نوعنا الانساني المتعجرف الذي لا يقبل إلا أن يعزو لنفسه مكانة مختارة. فهي تظهر لنا كيف أن الانسان يرتبط بسائر العالم، تجعلنا نستشف العمليات التي بها أفضت الطبيعة إلى هذا المخلوق الفريد الذي تتخطى فيه كل وجودها وتنكر ذاتها. وهي كذلك تفيدها علماً بالإنسان ـ الفرد: ما هي الاسباب التي يرجع إليها التنوع والتفاوت بين الناس؟ ما هو النصيب الحاسم الذي يرجع إلى الوراثة في تكوين شخصية الفرد وما هو نصيب ظروف البيئة؟ ما هو التأثير الذي تحدثه حالة الحضارة في الحيوان الإنساني؟ تلك هي بعض المسائل التي نعالجها هنا.

أمن المستطاع أن نستخرج من البيولوجيا نتائج أجتماعية أو سياسية؟ إن ذلك غير ممكن مباشرة، بمعنى أنها لا تستطيع أن تفرض بل ولا أن توحي بأي مذهب. فهي تعلمنا مثلاً أن الناس يختلفون في الاصل وراثياً، ولكن ليس لها ما تقوله فيما يجب عمله لمعالجة هذا التفاوت

الطبيعي. فلأسباب نفسية أو أجتماعية، يمكننا أن نتقبل مجتمعاً لا تتساوى فيه الافراد كمجتمعنا،يحتل لنفسه مكاناً بين ضروب من التفاوت المصطنع ـ أو أن نتمنى مجتمعاً لا تتساوى فيه الافراد فلا يقيم وزناً إلا للتفاوت الطبيعي ـ أو أن نتمنى أيضاً مجتمعاً يعامل فيه الناس على قدم المساواة ولا يراعى هذا التفاوت فيه.

ومن المعروف أن الولادة البسيطة هي القاعدة السائدة في النوع الانساني، ولكن هناك أيضاً الولادات المتكثرة التي يتراوح عدد الأولاد في البطن الواحد فيها من أثنين إلى ستة. بل أن الولادات المزدوجة (التوائم) هي نسبياً كثيرة الوقوع.إنها تحدث بنسبة ١/٩٠ تقريباً في مجموع الولادات.وفضلاً عن ذلك فإن معدل التوأمية يختلف باختلاف البلاد.

ففي حين يشير معدل النسبة المئوية للولادات المزدوجة والثلاثية في الدنمرك على التوالي (١,٥٩) و(٠,٠١٨٥) يكون في الولايات المتحدة (١,١٥) و(٠,٠١٢١) وفي كولومبيا (٠,٤٠) و(٠,٠٠٦٢)، كما ذكر ذلك ريمون بيرل في كتابه التاريخ الطبيعي للسكان.

وتأتي التوائم تارة من بيضتين تخرجان معاً (من مبيض واحد أو مبيضين) تلقح كل منهما بحييوين منوي واحد: وهذه هي التوائم الكاذبة أوالتوائم الاخوية، وتأتي تارة أخرى من بيضة واحدة تلقح بحييون واحد، فهذه البيضة كانت في وقت من أوقات نموها قد أنشطرت شطرين نتج عن كل واحد منهما مضغة تخلقت على حده. هذه هي التوائم الحقيقية أو التوائم المتحدة الاصول.

وإذ تتلقى التوائم الكاذبة من الابوين تركات وراثية مختلفة، فكل واحد منهاإنما هو بكل بساطة عبارة عن ولدين ينموان في وقت واحد من رحم الأم: فقد لا يكونان من جنس واحد وقد يختلف أحدهما عن الاخر أختلافاً كبيراً، كأي أخوة أو أخوات. وأما التوائم الحقيقية فهي على العكس من ذلك: فإنها اذ تتلقى من الأبوين نفس التركة الوراثية لا بد أن تكون احادها دائماً في نفس الجنس ويبلغ التشابه بينها غايته،حتى في جزئيات طابع اليد وبصمات الاصابع.

إن التوأمية الكاذبة هي دائماً أكثر شيوعاً من التوأمية الحقيقية، وهناك بعض العوامل التي تؤثر في شيوع هذه التوأمية أو تلك. فمثلاً أن ضعف النسبة المئوية في التوائم لدى اليابانيين والاناميين مرجعها مجرد ضيق حوض النساء الذي لا يلائم الحمل المزدوج كثيراً. وهناك عوامل اخرى تؤثر في التوأمية الكاذبة فقط، وهي توأمية تتوقف على عدد البويضات التي ينتجها المبيض. و(التوأمية) الكاذبة ـ لا الحقيقية ـ تزيد كلما تقدمت الأم في السن.وهي تبدو أكثر شيوعاً على نحو محسوس في بعض الاسر، وهذا برهان على أنها وليدة عوامل

وراثية.فهناك عائلات تكثر فيها التوائم الكاذبة، ولكن لا يوجد على ما يبدو عائلات تكثر فيها التوائم الحقيقية.ونحن نجهل الشروط التي تكون سبباً لها، ومن يدري فلعل أنشطار البيضة هو أحياناً نتيجة تسمم في صميم الخلايا الوراثية، أو نتيجة تأخر في النمو. وكذلك لا ندري في أي وقت يحدث أنشطار البيضة، فمن المحتمل جداً على ما يظن إنه يحدث عقب تكون القرص الجنيني. ومع ذلك فلا بد أن يحدث في وقت أبكر من ذلك قليلاً أو كثيراً تبعاً للحالة: فعندما يقع في وقت مبكر، يكون لكل شطر توأمي أغشيته الخاصة ومشيمته.

وعندما يقع في وقت متأخر يكون لهما جنين واحد ومشيمة واحدة. واذا وقع الانشطار في وقت متأخر عن ذلك أيضاً لم ينفصل الفردان إلا على نحو ناقص، فهما عندئذ أخوان أو أختان في جزء من البدن. ويلاحظ غالباً ـ لدى التوائم الحقيقية ـ لا سيما في حال الانفصال المتأخر أن النصف الأيمن لأحدهما يشابه النصف الأيسر للآخر غاية التشابه! فكل فرد من التوأم يماثل صورة الاخرى في المرآة.

وفي حالة الولادات الثلاثية فهي أشد ندرة من الولادات المزدوجة بكثير، وأندر من ذلك بكثير أيضاً إنما هي الولادات الرباعية والخماسية، وبالقياس إلى مجموع الولادات، فإن نسبة التوائم الثلاثية هي تقريباً واحد من ثمانية آلاف ونسبة التوائم الرباعية هي واحد من نصف مليون.

ويمكن تفسير الولادات الثلاثية سواء بالتوأمية الكاذبة، أو التوأمية الحقيقية، بكليتهما معاً بانها قد تكون نتيجة نمو ثلاث بيضات متميزة في وقت واحد، أو نتيجة نمو بيضتين أنشطرت احداهما شطرين، أو نمو بيضة واحدة أنقسمت ثلاثة أقسام. وكذلك الولادات الرباعية، فهي قد تكون نتيجة نمو أربع بيضات متميزة في وقت واحد، أو ثلاث بيضات أنشطرت أحداها شطرين، أو بيضتين أنشطرت كل واحدة منهما شطرين أو أنقسمت أحدهما ثلاثة أقسام،أو نتيجة نمو بيضة واحدة أنقسمت اربعة أقسام. وهكذا الحال في الولادات الخماسية فهي قد تكون نتيجة نمو خمس بيضات متميزة، أوأربع بيضات أنشطرت احداها شطرين، أو ثلاث بيضات أنشطرت اثنتان منهما شطرين أو أنقسمت أحداهما ثلاثة اقسام والاخرى قسمين، أو بيضة واحدة أنقسمت خمسة أقسام.

هذا ما خص الولادات التوأمية أو الثلاثية أو الرباعية، وهناك خواص عديدة ـ كطول القامة ولون الجلد العنصري وشكل الجمجمة الخ ـ هي نتيجة فعل عدة مورثات بعضها مع بعض، ومن هنا التعقيد الكبير في طريقة الانتقال، ولا سيما اذا كانت المورثات الممايزة، موجودة في سبغيات مختلفة. مثلاً أن لون الجلد لدى الزنجي رهن بثلاثة أنواع من المورثات على الاقل،

تنتمي إلى ثلاثة أزواج صبغية مختلفة. ويقوى بعضها عمل البعض الآخر.فكيما يكون الزنجي تام السواد لا بد أن يحمل صبغياته ثلاثة أزواج من مورثات السواد.فإذا تزوج بإمرأة بيضاء تحمل ثلاثة أزواج من مورثات البياض، فإن أعقاب هذا الزواج يحملون في صبغياتهم ثلاثة أزواج من المورثات يتكون كل زوج منها من مورث السواد ومورث البياض، فتكون جلودهم ملونة تلويناً خفيفاً، وذلك لأن مورثات السواد لا تسيطر على مورثات البياض، بل هي تتعاون معها لتحدث لوناًوسطاً، لون (القهوة بالحليب). وفيما يخص المورثات المسؤولة عن تكوين الجلد هناك ثمانية أمزجة صبغية محتملة في الخلايا المولدة لهذه الاعقاب الخلاسية. وإن مزيجاً واحداً فقط من هذه الامزجة يشتمل على مورثات السواد الثلاث، ومثاله الخلية المولدة للزنجي، كما يشتمل مزيج واحد فقط منها على مورثات البياض، ومثاله الخلية المولدة للرجل الابيض. فإذا تزوج خلاسيان كان هناك ٦٤ (٨ × ٨) مزيجاً صبغياً ممكناً يختلف الواحد منها عن الاخر. إن مزيجاً واحداً فقط منها ـ وهو يحمل ثلاثة أزواج من مورثات البياض ـ يعقب فرداً أبيض (وهو ذلك الذي يكون نتيجة تلقيح بويضة ذات مورثات البياض الثلاث بحييوين منوي ذي ثلاثة مورثات بياض). كما أن مزيجاً واحداً فقط منها وهو الذي يحمل ثلاثة أزواج من مورثات السواد ـ يعقب فرداً تام السواد (وهو ذلك الذي ينتج عن تلقيح بويضة ذات ثلاثة مورثات سواد بحييوين منوي ذي ثلاثة مورثات سواد). وأما الامزجة الباقية الاخرى الاثنان والستون المشتملة على نسب مختلفة من مورثات السواد والبياض، فإنها تعقب أفراداً متفاوتين في الوانهم بين السواد والبياض.

وعلى ذلك يكون من النادر جداً أن يعقب الزواج بين خلاسيين أثنين زنوجاً خالصين أو بيضاً خالصين. وهذا النوع من الوراثة ينطبق على كثير من الخواص (طول القامة، الاستعداد للتعمير.. الخ) التي هي رهن بمورثات متعددة، فشأنها كشأن لون الجلد العنصري.

★ ★ ★

تحفل القصص والحوادث التي رويناها بالعديد من الاحداث المتناقضة والغريبة مما تحتمل تأويلات وتفسيرات كثيرة، تبعاً للجهة المحولة إليها. فالبعض يعزو تلك الحوادث إلى أنتقال للأفكار، أو إلى سر من أسرار الارواح؟أو مظهر من الظواهر الخارقة للطبيعة، أو إلى الشذوذ في العوامل البيولوجية. لا بل نشرت بعض الصحف (تصريحات) لعلماء يقولون بها عن نظرية غريبة تتضمن أن في جو الكرة الارضية وفي الفضاء الكوني، موجات غير مسموعة،ولا يمكن ألتقاطها بأي جهاز من الاجهزة المعروفة، مهما كان متقدماً،هي التي تنقل الافكار، وتسبب مااصطلحنا على تعريفه بأنه مصادفات.وأن ما نسميه عادة (مصادفة) هو في الحقيقة ظاهرة

التعقيد لدينا من الاشعاعات الغامضة التي لم يتوصل أحد بعد إلى معرفة كنهها، والكشف عن أسرارها، فأكتفينا بتبسيطها.

في عملية الإتفاق العارض يلعب الإحساس والإدراك في الحوادث الأولية التي رويناها دورامهماً. ذلك أن الاحساس هو تلك العملية التي يتم عن طريقها أكتشاف المثيرات، وتحديدها وتقديرها. ويقتصر دور الاحساس على تزويد الفرد بالمعلومات بينما يقوم الادراك بتفسير هذه المعلومات. وجدير بالذكر أن نعرف أن الانسان يقوم بقدر من عمليات الاحساس أكثر مما أعتدنا التحدث عنه، فعلى الرغم من أن الكثير ممن تحدثوا عن عمليات الاحساس لدى الناس قد ذهبوا إلى وجود (خمس حواس أساسية) إلا أنه قد يكون من المناسب أن نقر بوجود (سبع حواس أساسية) للإنسان يبدو أن كلاً منها ينقسم إلى عدة حواس فرعية. وهذه الحواس السبع هي :الابصار، والحاسة الجلدية أو اللمس، والذوق، والشم، والتوازن، والاحساس بالحركة.

وتقع معظم المستقبلات الحسية في أماكن محفوظة نسبياً داخل الجسم (فجميع المستقبلات الحسية توجد على مسافة من سطح الجسم ومن ثم يصعب أصابتها ولا يستثنى من ذلك إلا بعض المستقبلات الحسية الجلدية). فعلى سبيل المثال لا توجد مستقبلات الابصار على سطح العين فحسب، وإنما توجد في مؤخرة مقلة العين، ومن ثم فهي تحفظ جيداً بواسطة مقلة العين نفسها وكذلك الانسجة، والعظام، والشعر المحيط بها.

كما أن لكل عملية حسية مداها المحدود في الاستقبال، وعلى الرغم من أن الامكانات الحسية لدى الانسان تعتبر جيدة بصورة عامة ـ إلا أن الإمكانات الحسية عند بعض الكائنات الحية الأخرى قد تفوقها. وجدير بالذكر أن الكائن الحي لا يحس بالمثيرات التي تحدث خارج مدى أستقباله الحسي. فمثلاً على الرغم من أقتراب الاشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء من مدى أحساس الانسان، إلا أن الفرد لا يمكنه رؤيتها إلا اذا أستخدم أجهزة خاصة تحول هذه الاشعة إلى مدى رؤيته، حيث أن مدى رؤية الانسان يقتصر على منطقة الطيف المرئي.

ويطلق مصطلح العتبة على مستوى الشدة حتى تحدث عملية الاستقبال. وقد تم التمييز بين العتبات اللازمة للإحساس بوجود أو غياب مثير معين، وتلك اللازمة لإكتشاف ما قد يحدث من تغير في قيمة المثير. وقد تكون الاثارة ـ في بعض الاحيان ـ بمستوى غير عادي اذا ما قورنت بالظروف المعتادة،ويبدو أن في وسع الانسان أن يقوم ببعض التكيفات وتبني نموذج سلوكي يمكنه من التعامل مع معدل الإثارة الجديد الموجود، ويطلق على عملية التعامل هذه التواؤم الحسي.وتتضح عملية التواؤم الحسي بصورة جلية لدى الفرد حديث الزواج، الذي يضع خاتم

الزواج في أصبعه لأول مرة، حيث يبدو الخاتم-في أول الأمر - لافتاً للنظر وربما بسبب بعض المضايقات للفرد، وقد يحاول الفرد أن يدير هذا الخاتم حول أصبعه أو يلهو به بصورة غير منتظمة. ومع ذلك فإنه بمرور الوقت يتكيف الفرد لهذه الاستثارة (الجديدة) ويقل أنتباهه للخاتم على الرغم من بقاء الاثارة الحسية الفعلية. ولكي نتفهم عملية أستقبال المثيرات الحسية بصورة كاملة أو شاملة يتعين علينا معرفة المقصود بمصطلح تحول الطاقة، فعندما يتلقى عضو الاستقبال المثير (الآلي، أو الكيميائي، أو الاشعاعي..الخ) فإن طاقته تتحول إلى أمكانية فعل. وتمر أمكانية الفعل هذه بسلسلة من الأحداث تؤدي إلى تسجيل الاحساس في المخ، وهذا التحول في الطاقة إلى طاقة فعل يسمى بتحول طاقة الاشارة، وبالطبع فإن مستوى طاقة المثير لا بد وأن تكون على الأقل عند مستوى قيمة العتبة المطلقة حتى يمكن حدوث عملية تحول الطاقة.

وقد ذهبت النظريات المبكرة عن الاستقبال الحسي إلى ضرورة وجود قيمة دنيا لا تتغير للعتبة المطلقة لكل مثير، كما أن ما يحدث من تغير فيه حتى يصل إلى عتبته الفارقة لا بد وأن يتم بمقدار أو نسبة ثابتة. بينما تذهب النظريات الحديثة إلى أن مثل هذه المفاهيم تعتبر ساذجة نسبياً، حيث أن قيّم العتبة المطلقة والعتبة الفارقة قد تتغير بتغير عدد من الظروف. وقد تمت دراسة ثلاثة من هذه الظروف باستفاضة ويبدو أنها أكثرها أهمية وتتمثل في: الدافعية، وأحتمالية حدوث المثير، والمتغيرات العارضة. لقد أوضحت الدراسات في هذا المجال أن قدراً معيناً من الثواب (المكافأة) أو العقاب (الخسارة) يمكن أن يؤثر في أحكام الفرد المتصلة بوجود المثير أو غيابه، أو فيما يتعلق بما حدث من تغير في مستوى المثير، وتشير الأدلة - بصورة عامة - إلى أن قيم العتبات يمكن أن تختلف باختلاف الدافعية، وما ينتج عنها زيادة حساسية الفرد للإستثارة أو أنخفاضها. ويمكن تمثيل ذلك أنه اذا أخذت بعض ملابسك إلى المغسلة، وقد تم ذلك عقب تناولك وجبة الإفطار مباشرة فسوف لا تهتم كثيراً في هذه الحالة بلافتات المطاعم، وربما ينصب أهتمامك على لافتات محلات التنظيف بحيث اذا ما وجدت أحدها تكون قد وصلت إلى ما تريد، أما اذا لم تتمكن من العثور على المغسلة فإنك سوف تقضي وقتاً أطول وطاقة أكبر في محاولة العثور على المكان المناسب (المغسلة). وعلى ذلك تكون حساسيتك أقل بالنسبة للافتات الأخرى (عتبة مرتفعة جداً).

وفي معظم ما تمدنا الخبرة السابقة بمعلومات حول مدى أحتمال حدوث مثير معين في المستقبل مرة أخرى، ومع ازدياد قوة احتمال حدوث المثير نتوقع أن تزداد قدرة الفرد على أكتشاف المثير، بينما اذا انخفض هذا الاحتمال فربما يعني ذلك أن الفرد قد يوجه طاقاته إلى مثيرات أخرى ويتجاهل ذلك المثير بالذات. وهكذا تتغير قيمة العتبة تبعاً لتغير أحتمالية

حدوث المثير.وغالباً ما نتعرض للعديد من المثيرات في حياتنا اليومية، وقد يكون بعض هذه المثيرات على قدر كبير من الاهمية بالنسبة لنا، وقد يكون البعض الاخر دخيلاً أوغير مناسب أو غير مرتبط بأهدافنا. وغالباً ما تتصف هذه المثيرات غير المرتبطة والدخيلة (بالضجيج)،وربما تؤدي زيادة (الضجيج) إلى ارتفاع قيم العتبات ومن ثم زيادة صعوبة أكتشاف أوالاحساس بالمثير الذي ننشده. اي أن ما قد يعتبر (ضجيجاً) في أحد المواقف قد لا يعتبر كذلك في موقف آخر، فصياح المشجعين قد يكون مقبولاً في مباراة لكرة الباسبول بينما يعتبر غير مرغوب فيه ومشتتاً في مباراة للجولف، حيث أن قدرة لاعب الجولف على أكتشاف المثيرات (مثل مدى أنطلاق الكرة أو ((تعدي)) الخط الأخضر) قد تختلف بأزدياد درجة أو كمية الضجيج الناتج عن المشجعين.

أما الادراك فهو العملية التي يقوم الفرد عن طريقها بتفسير المثيرات الحسية،حيث تقوم عمليات الاحساس بتسجيل المثيرات البيئية، بينما يضطلع الادراك بتفسير هذه المثيرات وصياغتها في صور يمكن فهمها. لنفرض أنك تركب طائرة تحلق على أرتفاع آلاف الاقدام فوق الارض، وكان الجو صافياً، حينئذ ستبدو لك السيارات، والطرق، والمنازل، والأشجار وكأنها في حجم الدمى أو اصغر من ذلك (وهذا يمثل احساساً)،ورغم ذلك فانك تدرك وجودها بحجمها العادي (وهذا ادراك). ويبدو أن الادراك في معظمه دالة للخبرة، بمعنى أنه سلوك متعلم. وتشير نتائج البحوث إلى أن الفرد الذي تحد خبرته الادراكية أو تهمل لن يستطيع تنمية استجابات ادراكية عادية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الشخص الذي يحرم أو لا يمكن من التفاعل مع مثيرات البيئة لن يظهر بالتالي نمواً ادراكياً عادياً. ويتأثر الادراك بمجموعتين من العوامل هما: المؤشرات الخارجية (خاصة بالمثير) والمؤشرات الداخلية (خاصة بالفرد نفسه)، ويؤثر كل من المؤشرات الخارجية والداخلية في طريقة أنتباه الفرد لمثير معين أو الاهتمام به حيث يتحتم على الفرد أن يعير المثير بعض الانتباه حتى يحدث الادراك.

إن المؤشرات الداخلية ما هي إلا وظيفة للعمليات المعرفية للفرد ـ على سبيل المثال ـ وخبراته السابقة، أو توقعاته خلال فترة زمنية معينة، يمكن أن تعتبر جميعها بمثابة مؤشرات داخلية. فغالباً ما يتأثر ادراك الفرد بدافعيته.وقد ينتج ذلك عن حالة الفرد الفسيولوجية، أو خبرته الاجتماعية، وقد يتعلم الفرد تركيز أنتباهه على المثيرات التي تعزز أو تشبع دوافعه، بحيث اذا لم يدفع الفرد إلى ادراك مثير معين (بمعنى أن ادراكه لهذا المثير لا يلقى مكافأة أو تعزيزاً) فسيميل إلى تجاهله، وقد أوضحت الدراسات التي أجريت على حيل الدفاع الادراكية، أن بعض الافراد قد يدركون المثيرات التي تقدم إليهم على أنها مثيرات (مقبولة) أو (نظيفة) رغم أنها قد تكون في الواقع

مثيرات (غير مقبولة) أو (قذرة). (فعلى سبيل المثال، عندما يقرأ الفرد قصة تحتوي على مواقف أو كلمات نابية فإنه يدرك كلمات ((حميدة)) أو مقبولة بدلاً من الكلمات النابية). وبالمثل فقد أوضحت البحوث التي أجريت على اليقظة الادراكية، أن الفرد قد يدرك المثيرات ((غير المرغوبة)) أو ((القذرة)) حتى اذا لم تتواجد هذه المثيرات في الواقع.

كل ذلك يدع مجالاً للإتفاق العارض كمنحى يربط بين الاحساس والادراك مع المؤشرات الداخلية التي هي وظيفة للعمليات المعرفية للفرد.

حالات الوعي المتغيرة

يتميز بعض الناس بحاسة قوية جداً، كحدة البصر عند زرقاء اليمامة، وشدة حساسية براعم الذوق عند ذواقي النبيذ الذين يستطيعون أحياناً من مذاق نبيذ ما تحديد المنطقة التي زرع بها العنب المستخدم في صنعه، بل وتحديد المزرعة نفسها وسنة الصنع. وقد لوحظ أن الذكور يستطيعون بشكل أفضل من الاناث، التمييز باللمس بين مختلف قطع النقد المعدنية. وقد قيل في تفسير ذلك أن الذكور يحملون قطع النقد المعدنية في جيوبهم،ولذا تتدرب حاسة اللمس عندهم على التعرف على تلك القطع، وأختيار اللازم منهادون حاجة للنظر، أما الاناث فيحملن قطع النقد المعدنية في حافظة نقود يفتحنها ويخترن القطع النقدية المناسبة بالنظر لا باللمس.

والناس يسكنون عالماً مليئاً بالأجسام والأشياء والحوادث التي يتعين عليهم فهمها والتعرف عليها وتصنيفها والحكم عليها، ومع ذلك يميلون إلى أعتبار قدراتهم الحسية أقل قدراً من حواس الانواع الحيوانية المتعددة.وصحيح أن الصقور ترى لأبعد ما يراه الانسان،والكلاب تشم الرائحة بشكل أحد منه،والخفافيش تسمع بشكل أفضل منه، إلا أن أعضاء الحس عند الانسان، بشكل عام، تقوم بعمل ممتاز في تنبيهنا لما يحدث حولنا. فالإنسان يستطيع رؤية ضوء الشمعة على مسافة ٣٠ ميلاً في ليلة ظلماء صافية، كما يرى أجساماً مضيئة بتوهج أكثر من الشمعة بعشرة ملايين مرة، ويمكنه أن يشم قطرة عطر منتشرة في بيت مكوّن من ثلاث غرف، ويسمع دقة ساعة جيب على بعد عشرين قدماً.ويتذوق حلاوة السكر حتى عندما يذاب ملء ملعقة صغيرة منه في غالونين من الماء.

ومنذ أرسطو والناس يقولون بأن لديهم خمس حواس (البصر والسمع والشم والذوق واللمس)، ولكنهم مع ذلك يملكون حواس أخرى منها: حاسة وعي وضع الاطراف، ووعي درجة التوتر العضلي، وحركة أكثر من مائة مفصل، وهذه الحاسة حيوية لجعل الانسان قادراً

على الوقوف منتصباً والمشي والامساك بالأشياء والتحرك ضمن حدود البيئة. كذلك هناك حاسة الجاذبية الارضية والتوازن التي تعتمد على خلايا حسية في أعماق الاذن الداخلية. بالاضافة لحاسة اللمس توجد في الجلد ثلاث حواس أخرى على الأقل هي: حاسة الألم وحاسة الحرارة وحاسة البرودة.

وهناك بعض العقاقير التي تسمى كاشفة العقل (وتعمل على زيادة حدة الوعي الحسي ويصاحب ذلك أحياناً تشويه في الادراك وهلوسة وأحساس بالسعادة الكاذبة أو اليأس، وهي من نوع المخدرات أو المسكرات). وقد أستعمل الناس مثل هذه العقاقير والمسكرات منذ آلاف السنين وفي مختلف الثقافات والحضارات بهدف تغيير الوعي. وأقل هذه العقاقير شدة في أثرها (الماريوانا) الذي يحصل عليه من العشب المعروف باسم القنب الهندي. وقد أستعمل هذا العقار منذ زمن طويل كمخدر مسكر في المجتمعات الاسيوية، اذ عرف أستعماله منذ سنة ٢٧٣٧ قبل الميلاد على الأقل، فقد ذكره أمبراطور صيني في كتاب عن العقاقير. ويختلف تأثير الماريوانا باختلاف الاشخاص وأيضاً باختلاف الجلسة التي يتعاطى فيها. وأكثر التأثيرات شيوعاً هو تضخيم الاحاسيس بحيث تبدو الألوان صارخة ويبدو مذاق الأكل ألذ وأمتع، والنغمات الموسيقية أجمل وأكثر رنيناً والتجربة الجنسية أكثر عمقاً وأمتاعاً، وهذا كله يعطي المرء شعوراً بأن العالم أكتسب معاني أعمق وأجمل. ولكن الخطر في أستعمال الماريوانا يكمن في انها تضخم التجارب غير السارة كما تضخم التجارب السارة. وعلى ذلك فقد يجد الناس الذين يحتمل في نفوسهم الحزن والأسى أو الخوف أوالقلق هذه المشاعر مضخمة نتيجة تعاطي الماريوانا.

كما أن هناك عقارات أقوى بكثير من الماريوانا في أثرها على متعاطيها، ويبقى المرء في حالة الوعي المتغيرة هذه من عدة ساعات الى أكثر من نصف يوم، والتأثيرات العاطفية تتراوح بين الاحساس بالسعادة الكاذبة وذعر لا تمكن السيطرة عليه، مع حدوث هلوسة مع أي من الاحساسين، ويصبح العالم فجأة خارج نطاق سيطرة الفرد، كما تنقسم نفس المتعاطي الى شقين: شق مراقب، وشق مشارك في أي عمل.

ان نوع الثمالة التي ينشدها المرء باستعمال المخدرات لا يشبه السعادة دائماً، وقد تكون هذه الثمالة من الطراز الصوفي ترجيحاً في بعض الاحوال. وهذا ما نشاهده مثلاً في الـ(بيوتية)، وهي ديانة جديدة ذائعة ذيوعاً كبيراً لدى بعض قبائل الهنود

الامريكية. ويتألف الطقس الرئيسي في هذه الديانة من تناول صبّارة صغيرة هي الـ(بيتول) التي يطلق الهنود الحمر عليها بصورة دارجة اسم (الويسكي ـ الجاف) وهي تحتوي على عدد من شبه القلويات أشدها تأثيراً هو الـ(مسكالين)،وهم يأكلونها أو يشربون نقيعها.وتتفاوت النتائج بتفاوت الكمية المستهلكة. وهي تتفاوت من مجرد التهييج العصبي الى درجة الهلوسات. وبين هذين الحدين توجد النشوة الخارقة المصحوبة بنشاط حسي غير مألوف. وقد قام الكاتب الانكليزي الكبير الدوس هكسلي، وهو دائم الفضول لمعرفة كل ما يتصل بعلم النفس، قام ذات يوم بتجربة المسكالين وبلغ الدرجة الثانية من درجات التسمم، ووصف انطباعاته وصفاً متميزاً في كتاب ذي عنوان مرح (أبواب الادراك). وقد بدا له العالم بثروة تفاصيل لا نهاية لها،وكان ينسى شخصيته الخاصة وهمومه ويستغرق أستغراقاً تاماً في رؤيته الدقيقة للأشياء. ومن أهم ما يترتب على المؤمنين بعبادة الـ(بيوت) هو بلوغ أقصى الدرجات، بلوغ الدرجة التي يمنع (المسكالين) الدماغ من غذاء (الكلوكوز) واذ ذاك تظهر الهلوسات. وليس بمستغرب اذا أنطلقنا من الجو الشعائري الذي يكتنف تناول الهنود للبيتول أن نجدهم يؤمنون بأن لديهم كشوفاً خارقة للطبيعة وأنهم يتصلون بالآلهة.

ومثل هذا الأمر نجده عند الابتدائيين فلهم عادات مماثلة ذائعة غاية الذيوع، وهم يستخدمون أساليب شتى للوصول الى نشوة دينية. من ذلك مثلاً أن سكان غينيا الجديدة يبتلعون خلال الحفلات فطراً يسمى (توندا) فيصابون بجنون مؤقت. ولا ريب أن من الواجب ان نميز، كما ميز مثلاً عالم الاجتماع فيليب دي فليس، التصوف الحقيقي عن (الأشكال الدنيا) للتصوف. وعلى الرغم من ذلك ، يظل من الثابت أن الجنات المصنوعة تنتج عن وسائل تحدث، في ظروف أخرى، وهم الاتصال بواقع خارج عن الواقع الانساني.



ومن بين العناصر الاكثر ذيوعاً في وصفات النشوة نجد ذلك العنصر الذي يبدو أنه أكثرها تواضعاً من حيث نتائجه،ولكنه يظل من أكثرها شيوعاً وانتشاراً، على الرغم من الموانع الطبية: التبغ. وباعتبار نتائجه النفسية، ليس سوى منبه خفيف، فمن الجائز، من وجهة النظر المذكورة، أن ننظر الى القهوة والشاي والمتة على أنها من زمرة التبغ ذاتها. بيد أن التدخين شيء، والشراب شيء آخر. ونحن لا نكاد نعرف حقاً ما الذي يعجب الانسانية ويسحرها في التدخين، أهو المنهج العصبي البسيط الناجم عن

(النيكوتين) كما يبدو؟ أم أنه بالأحرى الحركة، أوالاحاسيس التي ترافقها، أو أوهام الاسترخاء؟ أنظروا الى مدخن الغليون، أنظروا الى هيئته كفيلسوف، أو الى منظره كمنظر النوتي المقدام الراضي كل الرضى بعد مكافحته لأمواج اليم. وسواء أحتفظ بالاداة في فمه، أم أمسك بفرن الغليون في راحة يده، فانه يبدو وكأنه عثر على سر الحكمة وقبض تماماً على زمام قدره بيده، أما محب السيجار فانه، على ما يبدو، يتذوق رفاها أغنى،ويلبي شهوة بريئة من التعقد والخيلاء: في هذا السيجار الذي يحترق سعادة أعظم من السعادة التي يهبها الحب لهذه المدينة.

أما السيجارة فلها دلالات أرهف، فهي تساعد على قبول اثارة عصبية حامية أو أن تضيف عذوبة الى عذوبة لحظة حلوة.

وهنود أميركا هم الذين أخترعوا هذه اللذة بجميع أشكالها: الغليون، السيجار، السيجارة، لفافات دخان،ونشوق.أنهم يستخدمون التبغ في طقوس كثيرة، ويستخدمونه أحياناً لمجرد السرور. وقد أخذت دهشة عظيمة البيض الاوائل الذين أكتشفوا (العالم الجديد) عندما رأوا السكان الاصليين (يسحبون دخاناً من عشب يضعونه في فمهم). وفي القرن السادس عشر حمل (جان نيكون) سفير البرتغال، حمل التبغ الى بلاط فرنسا، ولكنهم لم يستعملوا التبغ بادئ ذي بدء الا لأغراض طبية. ولم تنتشر عادة التشوق أو التدخين الا بعد مرور زمن طويل. ولكن الحركة الاولى ما أن أنطلقت حتى تلاها توثب صاعق وكأن البشرية بأسرها كانت تنتظر هذا الكشف.

وفي أفريقيا ينشر عشب (نيكوت) لواءه في كل مكان تقريباً. ويقول البرت شويتزر أن النساء في (لامبارينه) يبذون الرجال في التدخين وأن هذه المنطقة هي (بلد التسمم المزمن بالنيكوتين). ويذكر (ليبس)أيضاً مثال (كافيروندو) في شرق أفريقيا حيث تباع السجاير في حزم رباعية لأن أهل (كافيروندو) يدخنون أربع سيجارات بآن واحد، فيضعون سيجارة في كل جانب من فمهم، وثالثة ورابعة في منخري انفهم وفي (الشرق الاوسط) و(الشرق)، يولع الناس بـ(غليون الماء)، (النارجلية)، ولبعض أشكالها أنابيب كثيفة تتيح التدخين الجمعي.

والسؤال هو كيف نفسر هذا الانتصار العالمي لاختراع أتى به الهنود الحمر وكان، لوجه الاجمال، غريباً بالاحرى، ولم يكن الرواد الاوائل أنفسهم ينتظرون له مثل هذا الذيوع على ما يبدو؟

ربما يكون من اليسير باسراف أن نجيب بأن العضوية الانسانية تعتاد على بعض الاهواء التي سرعان ما تغدو طاغية مسيطرة. وهذا حق بالتأكيد،ولكنه ليس صحيحاً في مجال التبغ

وحسب، بل بالنسبة للكحول والافيون والمورفين أيضاً. أجل ان من العسير الخلاص من عادة الادمان بعد أن يألفها المرء، ولكن السؤال هو أن نعرف، بوجه الدقة، لماذا أعتنقها من قبل؟

اننا لا نجني معلومات نافعة اذا ما طرحنا هذا السؤال على الصعيد الفردي (لماذا تدخن؟).أبحث في ذكرياتك فقد تكتشف أن رفيقاً في المدرسة الثانوية قد قدم لك سيجارة فقبلتها حتى لا تبدو أحمق أمام غيرك ثم لم تشأ عندما وجدتها سيئة أن تعترف بعدم أستعدادك وبقيت حتى اللحظة التي، وياللأسف، أصبت بها بعادة التدخين. ولعلك وجدت من المسلي مخالفة النظام.والبعض بدأوا التدخين أثناء الحرب عندما كانت السجائر نادرة. فالزي،والتعاظم، وأستعظام الثمرة الحرام، كل ذلك يعود بنا، آخر الامر، الى (تبريرات) أجتماعية. وبقول وجيز، اذا أقتصرنا على الارشادات النفسية والفردية وجدنا أننا ندور في حلقات مفرغة، ولذا فان من الأفضل أن تتناول الامر الرئيسي مباشرة: ان الانسانية تدخن لأنها بوجه الاجمال، تلقى في التدخين شيئاً يوائمها.

وربما تكون هذه الاسباب اسباباً كثيرة،ولكن ذلك لا يمنع، من ناحية أخرى، تفرعها عن أصل مركزي.

يبقى أن نقول، ان التبغ، الا في أحوال استثنائية قصوى، لا يستهدف الثمالة ولا ما يماثلها.وربما ساعد، باعتبار أنه محوّل بسيط، على تحمل الهموم، لا على نسيانها. ومن الجائز أن يؤثر الدخان نفسه، بصورة غامضة، على التخيل اللاشعوري، من حيث قيمته الانموذجية القديمة، مما يجعل أقتراناته بالحلم أقتراناً بدهياً.

ان المدخن الذي ينفذ الدخان من فمه، ويتتبع تبدد حلقاته الحلزونية بعين شاردة قد يشعر بانطباع أنه هو نفسه يخف، ويصبح مادة حلم. ويكاد الاحساس بالسعادة لا يمضي بدون بعض مشاركة في عالم الاحلام.

★ ★ ★

ونأتي الان الى الكحول أو المسكرات والسؤال الحائر فيما يجب أعتبارها من المهيجات السوية أم من وسائل الوصول الى الجنان المصنوعة؟

ان ذلك،بالتأكيد،يختلف باختلاف الاستعمال، واننا نلقي التفاصيل الدقيقة الجائزة كلها، من الثمالة التامة الى مجرد الدوار البسيط الذي يشعر المرء بالـ(بسط).وقد تبارت شعوب الارض قاطبة، في جميع الاحوال، وبذلت براعتها في صنع المشروبات الروحية، بعضها يصنع

الخمر من العسل، أو التمر أو الحبوب أو الصبار أوالعنب، وبعضها، كالمصريين القدامى، يصنع الجعة باستقطار الكحول من السكر باضافة النشاء.

وحتى نقدّر نتائج الكحول ونعرف مقاصد محتسيه وجب علينا هنا أن نحدد أحوالاً أكثر من الاحوال التي نميزها في ميدان المخدرات بالمعنى الصحيح، هذه المخدرات المستعملة اما بانتظام في شعائر سحرية ـدينية، وأما لدى من الغوا رذيلتها فأستعملوها أستعمال الثقة وأعتياد. ففي مجال الكحول أيضاً يوجد أولاً الاستعمال الشعائري الذي يتألف تارة من مجرد أنتخاب وقربان هادئ، أو يتألف تارة أخرى من طلب ثمالة تبلغ درجة الانتشاء والرؤى بله الامتلاك.وقد يلجأ بعض المتصوفة الى هذه المشروبات لجوءهم الى المخدر، فلا يحتسون الخمر على نحر شعائري تماماًو وانما علىأعتبار أن الخمر وسيلة سهلة لبلوغ حال من الوجد والسمو نحو المطلق.

ومن ناحية أخرى، اذا نظرنا الآن الى أستعمال الكحول أستعمالاً علمانياً وجدنا كذلك تفاصيل دقيقة وجد متنوعة. فهناك المدمنون على الخمر، وهم يتلفون صحتهم ويتعلقون بشرابهم تعلق مدمن الافيون بمخدّره. ولا بد من أن نميز، من ناحية أخرى، المدمن على الكحول الذي لا يثمل أبداً وانما يسمم نفسه على نحو بطيء، عن المدمن الذي يثمل كل يوم، وهناك أيضاً الذين لا يعتبرون مدمنين حقيقين من الزاوية الطبية ولكنهم، كما يقول العامة (يأخذونه وجبة) من وقت الى وقت، بل وغالباً تقريباً. وأخيراً، هناك سائر الآخرين الذين لا يعتبرون مدمنين وهم لا ينتشون البتة،أو في النادر جداً. ولكنهم أحياناً، بل وغالباً تقريباً في بعض الظروف، يحتسون قدراً من الشراب يزيد قليلاً عما ينبغي بدون أن يبلغوا درجة فقدان الرقابة على أنفسهم فقداناً تاماً، ولكنهم يجرعون ما يكفي للشعور بمرح يجاوز الحد قليلاً.

وفي وسعنا أن نكرر هنا، باعتبار، ما ذكرناه في صدد الأدمان على المخدرات، ولكن المسألة تختلف الى حد ما من زاويتها الاجتماعية: أولاً، أن تجارة الكحول حرة في معظم البدان الغربية، باستثناء البلدان ذات الحكم الاسلامي.

أجل أن حظراً منتشراً تؤيده الدعاوة التي تنهض بها بعض المنظمات، يرين على الافراط في الكحول. ولكن استهلاك الخمر والمشروبات الشهية والمشروبات الروحية لا تتسم بالصفة السرية أتصاف تناول المخدرات في كل مكان تقريباً، بل أن أستهلاك الكحول ينتشر انتشاراً واسعاً في طبقات الشعب كافة.

وفي وسعنا أن نذكر الى جانب الروادع الاخلاقية والطبية،الأقوال المأثورة والشعارات

الدعائية التي تحث على الخمر: (أشربوا الخمر، تحيوا سعداء).. (الحقيقة في الخمر). وقد جعل أدب الخمريات منذ (أناكريون) و(هوراس) موضوع الخمرة ذائعاً، وهو يقرنه بالحب في أغلب الاحيان.وعملت العادات الاخلاقية على تشجيع أنتشاره حتى أنها جعلته عنصراً من عناصر الحياة الاجتماعية.وتكاد لقاءات الاصدقاء والمآدب والامسيات العصرية أو الغزلية لا تخلو من بعض قرابين تُرفع إلى آله الخمر (باخوس). وما تزال ثقافة الجمهور ماضيه باطراد في أعتبار نمط البطل المقاتل الشهم الذي يمتح من الويسكي قوته، أعتباره نمطاً شعبياً.

وتشير التحريات التي تناولت مشكلة الكحول في البلدان النامية أنها ذاخرة بالمعلومات،فعندما تنهار البنيات الاجتماعية والدينية التقليدية ينتشر الوباء انتشاراً أقوى حقاً. والكائن البائس الضال الذي حرم من مُثُله الجمعية الحركية العليا هوالذي يغرق في خضم هذه الرذيلة. ويكاد داء الكحول لا يصيب في الولايات المتحدة قبائل الهنود، ومثلاً قبيلة ال(بوبلو) التي أستطاعت الاحتفاظ بحيوية ثقافتها السابقة لظهور (كولومبس). وعلى العكس، أصيبت القبائل، مثل قبيلة ال(آباش) التي عجزت عن الحفاظ على أشكال حياتها الاجتماعية القديمة، أصيبت بالادمان على الخمر اصابة تدعو إلى القلق.

ترى هل ينشد أفراد هذه الجماعات المنبوذة السعادة بالمعنى الصحيح عن طريق ثمالة مزمنة؟

الاصح أن نقول أن سقوطهم يجعلهم أعجز من أن يتطلعوا إلى مثل هذا السمو. وان داء الكحول ليقابل في الغالب موقفاً دفاعياً، أو بالحري موقف الضيق عندما يبدو أن سائر المنافذ الاخرى مغلقة. وفي بعض الاحيان نستطيع أن ننعت ذلك السلوك بأنه أنتحاري، بيد أن ذلك هو حد أقصى. والأمر المألوف هو أن يعبر عن صعاب الحياة وعن الامل، عن محاولة حل المشكلة بطريقة سدى، بسد الطريق أمامها حتى تبلغ درجة الشعور الجلي. وليس ذلك ب(تقنية) سعادة، بل وسيلة سهلة ليضع المرء نفسه خارج هذه الشروط ذاتها.



إن حالات تغير الوعي لا تحدث جميعها بفعل العقاقير، بل تولدها أيضا اليوغا والتأمل ومثيلاتهما. وقد أستعملت هذه منذ زمن بعيد كأسلوب حياة في بعض الثقافات الاسيوية حيث يعتقد كثير من الناس أن الوعي المضخم يعقب أسترخاء الجسم والعقل.وفي مفردات اللغة السانسكريتية (أحدى لغات الهند القديمة) حوالي ٢٠ اسماً مرادفاً لكلمة (وعي)، وفي هذا دليل على الأهمية التي يوليها بعض شعوب آسيا لمثل هذه الامور.وحتى وقت قريب لم يكن العلم قد درس طبيعة التأمل. رغم قدم الظاهرة نفسها. ربما لأنها كتجربة وصفية لا يمكن

تفحصها بموضوعية. ولكن الابحاث التي بدأت في اليابان في الخمسينات من هذا القرن أظهرت أن الكهنة البوذيين الذين يدخلون جلسات تأمل تحدث لهم تغيرات جسمية يمكن قياسها، كأن تحدث تغييرات ملفتة للنظر في النشاط الكهربي للدماغ: فالكهنة الذين كانوا منغمسين في التأمل وعيونهم مفتوحة زادت عندهم موجات ألفا الدماغية حتى طغت على غيرها. وهذه الموجات لا تبرز بشكل ملحوظ عادة إلا عند الفترة التي تسبق النوم حين يغمض المرء عينيه ويكون مسترخياً مستريحاً. وبالإضافة لتغيرات اخرى في نشاط الدماغ لوحظ حدوث أنخفاض ملحوظ في معدل الأيض في الجسم.

وهناك نزاع جدلي حول ما اذا كان بالوسع القول بأن (التأمل المتسامي) يعطي نفس النتائج، علماً بأن هذا النوع من التأمل لايحتاج إلى سنوات عديدة من التدريب والمران للسيطرة على الجسم والعقل كما تحتاج ذلك اليوغا والرهبنة البوذية. وقد فشلت دراسة حديثة في أكتشاف أية تغيرات بيولوجية ـ كيميائية هامة أثناء التأمل المتسامي، كما لم تجد الدراسة أية فروق بيوكيميائية رئيسية بين المشاركين في التأمل وغيرهم من الناس المسترخين فقط. على أن دراسة أخرى أظهرت تغيرات أيضية هامة مختلفة عن تلك التي تنتج من النوم أو التنويم المغناطيسي. فحالة المتأملين المتراخية لدرجة كبيرة هي نقيض الحالة المميزة لبني الانسان منذ أن خلقهم الله،وهي حالة رد فعل (قاتل أو أهرب) التي تجند كل الجسم للقتال أوالهرب بزيادة ضغط الدم وسرعة نبض القلب وكثرة تدفق الدم إلى العضلات، وأستهلاك الاكسجين.ورد الفعل هذا مازال متمركزاً في تركيبنا الوراثي حتى ولو أنه قد فات زمنه وأصبح غير ذي موضوع في عالم مزدحم معقد لا بد للناس من أن يتكيفوا مع الظروف الجديدة، اذ لا جدوى، في المجتمعات الحديثة، من القتال ويكاد يكون الهرب مستحيلاً. ويعتقد كثير من العلماء أن الاثارة المستمرة لأجهزتنا العصبية بهذه الطريقة، مصحوبة بضعف الفرصة للاستجابة جسدياً للضغوط هي المسؤولة عن شيوع الاصابة بارتفاع ضغط الدم والأمراض المشابهة. واذا كان الامر هكذا فان التأمل الذي هو أسترخاء وليس تنشيطاً للجهاز العصبي ـ يمكن أن يكون تكيفاً ذا قيمة للحياة في العالم الحديث.

لقد كانت حالات الوعي المتغيرة حتى وقت قريب، نادرة في الثقافات الغربية، فأكثرها كان بتأثير الثقافات وبعض الديانات الآسيوية.

وقد أجريت في السنوات الاخيرة في الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة تجارب عديدة على الطرق التي تغير الوعي. وكانت هناك ادعاءات عن أن (ل.س.د) وغيره من هذه

العقاقير المخدرة كاشفة العقل توسع الفكر بكفاءة عالية وأنها لذلك يمكن أن تكون علاجاً لمشكلات الانسانية!! ولما أنتهى الاهتمام بتلك العقاقير الى لا شيء أستبدلت بها أشياء أخرى مثل موجات ألفا والرجوع الى الدين القديم التصوفي ومختلف فئات التأمل وحتى الطيران الشراعي. ورغم أختلاف هذه في المعتقدات والأساليب، فإنها تشترك في أمر واحد هو الانصراف عن الدنيا والتحول عن البيئة الخارجية للبحث عن الذات الداخلية.

وواضح أن هناك أعداداً كبيرة من الناس الذين تحيرهم وتذهلهم المجتمعات الحديثة المعقدة التي لم ينجحوا في التكيف معها،ولذا فانهم يكونون في حالة (أنسحاب تام)من أستعمال العقل، ويحرمون أنفسهم من التمتع بحياة العقل الغنية التي هي من أهم خصائص النوع الانساني وأفضل ميزات الانسان قاطبة.

ولا أستطيع أن أترك مناقشة وظيفة حالات الوعي المتغيرة على هذه الحالة من النقص، دون أن أشير اشارة سريعة إلى عامل آخر له دلالته العظمى، وأنا لا أقصد شيئاً كان في كثير من الاحيان من أكبر الاعتراضات التي وجهت الى منهج فرويد، وهو تكريس كل هذا الوقت والجهد لشخص واحد. وأعتقد أنه لا توجد شهادة بعبقرية فرويد أعظم من نصيحته بأن يكرس الوقت الكافي حتى لو أستغرق ذلك سنين عديدة لمساعدة شخص واحد على تحقيق الحرية والسعادة. وهذه الفكرة تضرب بجذورها في روح عصر التنوير الذي توج الاتجاه الانساني في المدنية الغربية، بأن أكد على كرامة الفرد وتفرده على كل شيء آخر. ولكن، أياً كان الاتفاق الوثيق بين هذه الفكرة وتلك المبادئ، فانها مناقضة الى حد كبير للمناخ الفكري في عصرنا،فنحن نميل الى التفكير في حدود الانتاج بالجملة وأدوات الانتاج. وقدأثبت هذا التفكير أنه مثمر الى أقصى حد طالما فكرنا في أنتاج السلع. ولكن اذا أنتقلت فكرة الانتاج بالجملة وعبادة الآلة الى مشكلة الانسان وإلى ميدان الطب النفسي، فانها تحطم الاساس الذي يجعل من أنتاج مزيد من الأشياء بصورة أفضل ـ أمراً جديراً بالجهد والعناء.

الاحلام كقوة للأستدلال

أحد رموز سيكولوجية قوة الاستدلال هو الحلم، ذلك أن للأحلام أهميتها من الناحية العقلية، اذ تهيء لنا طريقاً سريعاً ندخل منه الىبعض مشكلات الفلسفة والبحث الروحي، ولعلها تهيء لنا كذلك أسرع السبل المؤدية الى تلك المشكلات التي تتصل بأعجب مناطق العقل البشري.

والانسان منذ البدء كان يميل الى البحث والتنقيب، ويهوى التوغل في مجاهل الغابات التي لم تطرقها قدم، والغوص في أعماق البحار التي لم تقع عليها عين بشر، كما يشغف بتسلق ذرى الجبال العالية، ويتقصى كهوف الارض حيث يعثر في أركانها القصية على أطلال مساكن من سبقه من الناس، وعظام مخلوقات أندثرت من فوق ظهر الارض منذ زمن بعيد. ومع ذلك فان كلاً منا يحمل في ذات نفسه رواسب من عهود مضت توغل في الماضي آماداً تتجاوز عصور التاريخ المعروف، وتفوق مدى خيال البشر، ويتلمس في أغوار اللاشعور أسراراً أشد فتنة وأخلب للب مما يمكن أن يصادفه المرء في الكهوف البعيدة ممايعتبر بقايا متخلفة من سلف بعيد، وأساليب في التفكير عتيقة، وعالماً من الخيال يطوي من الامكانيات ما يفوق كنوز الملك سليمان.

إن مثل ذلك يتجلى لنا ليلة بعد ليلة في أحلامنا، فتجدنا نضرب في أعماق البحار أوغابات أمريكا الجنوبية أو في سهول أستراليا لكي ندرس سكانها الاصليين، ولكننا في ذلك الخليط من خيالات أحلامنا، وأطيافها، وأوهامها المختلفة الالوان والأشكال، نواجه الليلة بعد الليلة رؤى أكثر أمعاناً في الغرابة والعجب مما يمكن أن نصادفه في شعائر تلك القبائل وطقوسها. فنحن نجد أنفسنا على توالي الليالي وجهاً لوجه أمام مواقف مثيرة نصيد فيها الحيوان الكبير الذي يفوق في ضراوته وحوش افريقيا، وما أسعدنا أن نفلت آخر الأمر دون أن نكون نحن الفرائس المصيدة، وذلك لأن تلك المخلوقات التي تخطر في أحلامنا تحاول دائماً أختراق حوائل العقل

اللاشعوري كي توقظنا من نومنا هلعين. أما اذا كنا نبغي الهرب من سأم حياة النهار التي تجري على وتيرة واحدة مملة،ونتوق الى ركن سعيد نأوى اليه، فان الأحلام توفر لنا رؤى ملؤها البهجة، وتحقق لنا من المتعة والنشوة ما تقصر دونه ليالي ألف ليلة وليلة، وتتيح لنا الحظوة بنصيب من خبرات لم تتهيأ لنا من قبل، بل ولا يحتمل أن نستمتع بها قط، ولكنهالا تلبث أن توقظنا من نومنا، وتردنا كرة ثانية الى حقائق الحياة اليومية. ومع ذلك فإن تلك اللحظات التي تفوق الوصف تمنحنا مهلة نستجم خلالها، وتسمح لنا ولوالى حين أن نتلمس الطمأنينة والسلم في واحة نرحب بها ونتعطش اليها أكثر مما نتعطش الى واحة الصحراء،وبذلك نمضي قدماً في حياتنا اليومية ونحن أسعد حالاً وأكثر بشراً شاقين درب الحياة برضى وطمأنينة.

ولقد قسم بعض المؤلفين الأحلام الى نوعين: النوع الاول ما يرتد أصله الى حياة المرء الحاضرة، أو الماضية، وهو لايكشف شيئاً عن المستقبل.والنوع الثاني مايمكن أن يكشف عن المستقبل، ومنه النبوءة المباشرة التي تنزل على النائم في نومه، والتنبؤ بأمر سوف يقع، ثم الحلم الرمزي الذي يتطلب أيضاحاً وتأويلاً.وقد شاع ذلك الرأي عصوراً طويلة، آمن الناس خلالها بأن في الأحلام من المعاني المخبوءة ما يكشف عن حجب المستقبل إذ أستطاعوا لها تأويلاً.

لايوافق فرويد الرأي الفسيولوجي الذي ينفي أي معنى نفسي للحلم ويربط حصوله بمثيرات خارجية أو داخلية، تؤثر على بعض أجهزة البدن أو عليه كله، فتؤدي الى ظهور الحلم. ويقول أن كثيراً من الاحلام هي نشاط نفسي خالص ينبغي تفسيره تفسيراً خاصاً به. وبهذا توفر فرويد على دراسة الاحلام عن طريق (التداعي الحر) فميز بين الشكل الظاهر للحلم، وبين محتواه الكامن، أي بين الحلم كما يظهر لنا، وكما نحكي بعضه، وبين الافكار المخبوءة التي تؤدي الى هذا الشكل الظاهر، والتي نستطيع أن نصل اليهابتحليل تفاصيل الحلم بواسطة التداعي الحر. ويقول فرويد أن المحتوى الكامن ينتظم انتظاماً متناسقاً معقولاً، ثم يتخذ مظهراً خارجياً ندركه، لكن هذا المظهر الخارجي لا يحصل إلا بعد أن تتحول الافكار الكامنة، تحولاً مجازياً رمزياً يخضع لبعض القوانين السيكولوجية التي يقوم على تنفيذها الرقيب الذي يتبع القوانين الاساسية التالية في تحويل الحلم:

١ ـ التكثيف: مثل أخراج شخص من عدة أشخاص أو رسم من أسماء مختلفة

٢ ـ النقل: وهو الصاق الاهمية الوجدانية لأمر ما بغيره من الأمور في الحلم الظاهر

٣ ـ الوضع المسرحي: وذلك بإيضاح الماضي والمستقبل مع الحاضر مع فترة واحدة، وباصطناع أفانين التمثيل والتصوير المختلفة في أخراج القصة.

٤ـ الرمز: وهو تنكير الصور في شكل يخفي أدراكه على الشعور

هذا الى بعض القوانين الثانوية.. مثل تفصيل الامور التافهة وأصطناع حادثات الطفولة

والامثلة التي توضح ذلك كثيرة كل الكثرة، طريفة كل الطرافة (سنأتي على بعضها في نهاية هذا الفصل) كثيراً منها مقبول معقول.وعلى كل يؤكد فرويد وأتباعه أن الحلم لا يختلف عن أفكار الصحو، في أنه أكثر منها أهمالاً وخطأ ونقصاً، ونسياناً وبعداً عن المنطق فحسب، بل في أنه أمر، يختلف من حيث الكيف أختلافاًتاماً عن تفكير الصحو حتى لا تمكن الموازنة بينهما،على أي وجه من الوجوه.

ولقد ذكر ليفي بريل في هذا الشأن أن الهندي الاحمر ينظر إلى الاشياء نظرة جد عملية، فهو يعتقد أن للانسان روحين، أحدهما لا تعدو أن تكون المبدأ الحيوي للجسد، وهي تفنى بفنائه، أما الاخرى فهي تحل في الجسد ولكنها تبرحه عند الموت.وهذه الروح هي ملاكه الحارس، ومصدر ألهامه، والقائمة على حراسته، والهه الشخصي، وعبقريته التي يعتمد عليها، ومن ثم فهو مسؤول عما تفعله روحه هذه في احلامه.

إن ولع الناس بتفسير الأحلام قديم منذ فجر التاريخ، كما أن تاريخ الثقافة يبين لنا أن القوم كانوا في العصور السالفة، أكثر عناية بتأويل الرؤى منا في هذا العصر، حتى ليمكن أن يقال، أن الفرد العادي منهم،كان أكثر فهماً لها من مثيله اليوم، ويكفي للتثبت من ذلك،ذلك الدور الكبير الذي لعبته الرؤى في حياة قدامى الاغارقة،أو قيام شيشرون بتأليف كتاب عنها أو أمتلاء التوراة بالرؤى التي ورد ذكرها فيه، هذا الى أن رؤى التوراة قد أولت فيه تأويلاً يتميز بالفطنة والمهارة، أو هي قد وردت فيه وروداً، دون تفسير لها كأنه كان من المفروض أن يفهمها الكل فهماً صحيحاً، تواضعوا عليه، ويكفى أن نذكر حلم يوسف (اذ قال يوسف لأبيه يا أبت أني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بني لاتقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً ان الشيطان للانسان عدو مبين) ((سورة يوسف ٤ و٥)) وكيف فهم أخوته تطلعه الى السيطرة عليهم، وبيتوا له، حتى باعوه إلى عزيز مصر.

وهناك حلم فرعون عن سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف،وهو ما فسره يوسف بسبع سنوات سخاء ورخاء تتلوها سبع كلها مسبغة ومجاعة.ومن ثم عمد يوسف الى اقامة صوامع الغلال يودع فيها القمح خلال سنوات الخير فتجنب بذلك أضرار المجاعة،وأرتقى الى أسمى مكان في البلاد، وكان في ذلك تأكيد لنبوءة وردت في حلم سابق ليوسف رأى فيه أخوته يطأطئون الرؤوس لحزمة حصاده مما كان يعني في التأويل أن أخوته سيخضعون له. وقد

حمل أخوته هذاالحلم محمل الجد كله لدرجة أنهم وقد أدركوا بحدسهم مفاد الرؤيا، ألقوا به في غيابة الجب أملاً في ألا يتحقق الحلم. ومع ذلك فقد صدقت الرؤيا بالفعل عندما قدم أخوته إليه في سنوات الجدب والتمسوا منه الحنطة دون أن يميزوا فيه أخاهم الذي ظنوا أنهم أغتالوه من زمن بعيد، ومثل هذه الاحلام تعتبر أحلاماً تنبؤية فيها تحذير ونذير لما سيحدث.

هذا إلى أن في أهازيج الشعوب، على بعد هذه الثقافة عن تلك، ما يفهم منه أن الاحلام كانت تؤخذ وسيلة للبينة والبرهان. وكان المصريون والاغارقة يممون شطر معابدهم ، يبتغون أن يروا في ظلال رهبتها من الاحلام المقدسة، ما يهدي خطاهم في مقبل أيامهم، بل أن هنود أميركا، ما زالوا، يلجأون الى التطهر والصيام، والاغتسال بالماء الحار، التماساً للرؤى المقدسة التي تنير لهم السبيل، وتحل لهم المعضلات.

ويكاد يكون ايمان الرجل البدائي بأن المنام حق، ايمان قوى راسخ، فقد حدث أن هندياً أمريكياً رأى في منامه أن رجل الارسالية الدينية سرق ثمرة من حقله فذهب ورماه بالتهمة صراحة، ولم يتزحزح عن إتهامه رغم ما قيل له من أن الإرسالي المتهم كان وقت السرقة المزعومة على بعد مائتي ميل من حقله، هذا إلى أن الثمرة كانت فعلاً في الحقل لم تغادر مكانها. ومع ذلك فلم يمنعه هذا من أن يطالب بالتعويض بدعوى أن الارسالي كان لا بد سيسرقها لو أنه كان موجوداً في ذلك المكان اذ ذاك.هكذا كان البدائي يعتقد في دلائل حلمه أعتقاداً لا تزعزعه شواهد الحس والعقل التي تخالف ما هو معروف لديه.

لعله من أكثر الاحلام كشفاً عن المستقبل وأوسعها ذيوعاً في عالم الادب،الحلم الذي سرده شيشرون عن الشاعر سيمونيدس.

فقد قيل أن سيمونيدس وجد مرة جثة أنسان مجهول، ملقاة في عرض الطريق، فعنى بتكفينها ، وموارتها التراب في حفل لائق.فحذره شبح ذلك الرجل بعد ذلك من سفرة في البحر كان الشاعر يعتزم القيام بها منبئاً أياه بأن اليم سوف يبتلعه أن قام بها. فتخلف سيمونيدس عن الارتحال، ولاقى جميع رفاقه حتفهم في تلك الرحلة، وسمع الناس نبأ ذلك الحلم،فكان له أثر عميق في الناس جميعاً،تناقلوه خلفاً عن سلف عصوراً طويلة وزادهم ايماناً بما في الحلم من أمور تكشف عن حجب المستقبل.لكن أدلر يفسر تلك القصة بالتالي:

إن السفن في ذلك الحين كانت كثيرة التعرض لخطر الغرق، ولهذا كان القوم قبل ركوبهم متن البحر يواصلون التفكير فيه، ويشفقون مما سوف يتعرضون له من أهوال.وكثيراً ما كان يعرض مثل ذلك لهم في أحلامهم، فليس لحلم سيمونيدس من قيمة خاصة، إلا أن

الصدفة التي أدت الى تحققه، بلغت من الروعة حداً كبيراً وبقي أثرها بالغاً في عقول الناس زمناً طويلاً فآمنوا بها تبعاً لخوف الانسان الدائم من المجهول ورغبته في تفسير مالا يدرك بالقوى الغيبية والعلل المغلقة. ويقول ادلر أننا لو أردنا تأويل ذلك الحلم، لأمكن أن نقول أنه يحتمل أن صاحبنا الشاعر لم يكن صادق الرغبة في القيام بتلك الرحلة خوفاً من أهوال البحر وعناء الطريق، وخوفاً من أخطاره، فلما اقتربت ساحة الرحيل، كان يعتصر ذهنه لالتماس سبب يبرر تردده وأشفاقه من الارتحال فلم يكن منه إلاأن يطلب الى صاحب الجثة التي وراها الثرى، أن يعبر له عن عرفانه للجميل، فدفعه ذهنه الى الظهور في نومه يحذره من القيام بتلك الرحلة، ويحدثه عن النبؤة التي كان سيمونيدس يتشوق لتلقي مثلها، كي يبرر تخلفه عن الرحيل دون أن يتهم بالقعود والجبن.. ولو أن السفينة لم تغرق، لما سمعنا نبأ رؤياه، ولذهبت نسيا كما ذهب غيرها لأن العقل لايولع إلابما يحثه على القلق والتطلع والدهشة ولا يشدهه إلا الحديث عن الحكمة المخبؤة بين السماء والارض، تلك الحكمة التي تبدو لناأكثر وأشد سطوة مما يدركه عقل أو يفهمه انسان.

لقد كان البدائي يعتقد في أحلامه أكثر مما كان يؤمن بادراكه الحسي،ويتلمس منها الهداية والارشاد في شؤون حياته اليومية.فاذا رأى أحد هؤلاء الناس البدائيين في منامه أنه أستولى على شيء يملكه غيره ثم أنبأ صاحب الشيء بما رآه فان الأخير يقول له: (خذه، فإنه لك!) هذا ولا يتحمل الناس مسؤولية مايراه غيرهم عنهم في أحلامهم فحسب، بل أن الشخص الذي توجه اليه التهمة يكون على استعداد لان يقبل راضياً مسؤولية الأعمال التي رآه الحالم يقترفها في حلمه. واذا رأى رجل في الحلم أنه يغازل زوج آخر، وعرف عنه ذلك، فانه يعتبر كما لوكان قد أرتكب هذا العمل بالفعل، وعندئذ يوقع العقاب ويتقبل هو من جانبه الاثم.والعقاب كليهما على أنهما أمران يستحقهما ـ وربما لم يكن ذلك بدون مبرر!

ويعقب أدلر على ذلك بقوله (اذا كان القوم قد آمنوا على مر العصور بالغموض الذي يلف الاحلام، وسيطر على قلوبهم اليقين بما فيها من كشف عن حجب المستقبل لو أستطاعوا لها تأويلاً، فليس ذلك في صميمه، سوى جانب من الحقيقة لايتجاوز النصف.فالحق أن الحلم يصل بين المشكلة التي تعترض من الحالم والغاية التي يتشوق الى تحقيقها. ولهذا كثيراًمايصدق الحلم،لأن الحالم يفيد من حلمه درجة، يقنعه علىالقيام بدوره في حل المشكلة، وتهيء الطريق لصدق حلمه).

ومما يؤخذ على ذلك المنوال القديم من التأويل، الذي ما زال أغلب الناس به مولعين، هو التماس ما في الحلم من قوى غيبية، تخلع من المعاني والتنبؤات ما يحل طلسم

المستقبل،ويكشف عن مقبل الوقائع والحادثات.. لكن أدلر يقول: أن ذلك كله لا يجد ما يؤيده من الناحية العلمية، ويذكر أنه رأى منذ مطلع أشتغاله بتفسير الاحلام،أن النائم أقل توفيقاً في ألتماس الحلول من المستيقظ، كما رأى أن الاحلام لم تكن أكثر نجاحاً في تفسيرالمستقبل، من التفكير العادي، بل هي أكثر تعقيداً، ومثار لتعقيد الأمور. اذ أن الأمر كله لا يعدو أن القوم يحلمون،لأنهم يلتمسون في الحلم حلولاً، يسيرون على هديها في نشاطهم المقبل، ومن ثم كان من البين أن هذه الحلول لن تبلغ من التوفيق ما يبلغه التفكير العادي، الذي يلم، أن أبتغى حلاً صحيحاً للمشاكل، الماماً شاملاً بأطراف المعضلة، التي تعرض له، وبوقائع الحياة الملموسة،وأوضاعها المتعارفة، بدلاً من الاسراف في التعمية والرمز وغيره.

يذكر الفيلسوف دلبوف الحلم التالي وقد سجله فرويد

((رأى حرباتين (دلبوف صديق للحيوانات) وقد جمدا من الصقيع فآواهما في حجره ووضع لهما عشبة، عرف في الحلم أنها آسبلنيوم روتاموراليس، وما أن آواهما،حتى زادا، وكثرا، إلى أن أصبح الشارع كله يعج بالحرباءات)).

عندما أستفاق كان كثير الحيرة، فهو لا يعرف العشبة، ولا يذكر أن ذلك مر عليه، وبقي حائراً في سر هذا الحلم ستة عشر عاماً (الحلم عام ١٨٦٢)

وفي عام ١٨٧٨ كان في زيارة أحد أصدقائه، ورأى على المنضدة كتباً تناول واحداً منها، واذا به مجموعة للنباتات المجففة (ألبوم) وكانت دهشته كبيرة اذ رأى اسم آسبلنيوم روتاموراليس مكتوباً بخط يده، واذ ذاك تذكر أن أخت صديقه اذ كانت في زيارته مرة ومعها هذه المجموعة أحب أن يعرف اسم النباتات فاستعان بأحد علماء النبات من أصدقائه وكتب عنه الاسم باللاتينية بخط يده على المجموعة.

وسجل أدلر عن أحد مرضاه ما يلي:

كان يزيغ عن كل عمل شريف يرتزق منه، ولعا بالمقامرة في الاوراق المالية،وأنه كان يقامر تبعاً لما يراه في أحلامه، مسرفاً في ذلك يوماً بعد يوم، مبرراً سلوكه بأن النحس كان يلاحقه كل مرة، لايطيع فيها هاتف أحلامه، مع أن من الواضح أنه لم يكن يحلم إلا بما كان يملأ ذهنه في حالات الصحو وأنه اذا كانت الفرص قد واتته ردحاً من الزمن، فقد أدى به الامر طبعاً الى أفلاس جحد فيه أحلامه، وكفر بهاكفراً لا رجعة فيه، ومن ذلك نرى أنه لم يكن في الامر من قبل معجزة ما، لأن ما وفق اليه أول أمره، وما نزل به آخره، هو ما يلحق أمثاله في مختلف نواحي الحياة، سواء بسواء، لأن الفرد اذا أشتد ولعه بأمر ما أخذ عليه جماع تفكيره وأنحدر

معه أثناء الليل.حتى ليمكن القول أن بعض الناس لا تلحق أذهانهم أو عيونهم سنة من النوم، يتابعون التفكير في مشاكلهم، سيراً على الاقدام أو سبحاً في عالم الكرى.

يذكر العلامة ماوري أنه في طفولته كان يمر فوق جسر تعهدوالده ببنائه حيث كان مهندساً،وذلك في مدينة ميوس حيث يوصل الجسر هذه البلدة ب(تريلبورت) البلدة المجاورة.

رأى بعد ثلاثين عاماً أنه في تريلبورت كطفل يلعب مع الاطفال، وفي أثناء اللعب،اقترب من رجل فسأله عن أسمه فقال إنني (س) وأنا حارس الجسر. فأفاق متعجباً: أنه لا يذكر، لا الاسم ولا الرجل، فرجع الى البيت وسأل احدى الخادمات القديمات عما اذا كانت تعرف رجلاً بهذا الاسم، واذا بهاتجيب علىالفور: طبعاً! أنه حارس الجسر أيام أبيك حين بنى جسر تريلبورت.

ونقلاً عن بوسسار كونشتام المريضة في أحدى تجاربه بعد أن أرجعها سنين طويلة الى ما قبل الولادة عما تشعر، فقالت (أنها لا تشعر الان بأن ((لاشعور)) ها في تلك السعة لا يخصها بل يخص غيرها)

مما يقرب الى الاذهان قبول هذه الحوادث، ما عرف أخيراً عن اللاشعور الجمعي الذي كان ليونغ الفضل في أكتشافه.وهو يدل على أن الخبرات النفسية والانفعالية تمتد الى أكثر بكثير من حياة الشخص حتى تصل أجداده الاقدمين.

واذا كان أصحاب السيكولوجية الفردية يعترفون بما كان لفرويد من فضل مقيم في تفسير الاحلام ويحيون فيه الشجاعة الوافرة، التي دفعت به الى العمل علىتأويلها تأويلاً علمياً، وأعتبارها ظاهرة هامة من ظاهرات الحياة النفسية، ينبغي التوفر على دراستها، والعمل على تفهم طرائق نشاطها، وأساليب بيانها، فان أدلر وأتباعه، يقررون شاكرين أنهم أخذوا عن فرويد كثيراً من طرائق التأويل، الا أنهم يعيبون عليه، أنه أبعد الاحلام، وتأويلها عن نطاق العلم، لأنه أخذ يقول بوجود هوة بين عمل العقل في أثناء النهار وعمله في أثناء الليل، أي أنه يقيم حاجزاً،ويؤكد تناقضاً، بين الشعور واللاشعور يؤدي الىأن تخضع الاحلام لقواعد تناقض التفكير العادي، بينا يناقض أدلر الضرب من التفرقة،وينقدها نقداًحاداً، مقرراً أن لا تناقض هناك بين النوم واليقظة، أو بين أفكار الاحلام وأفكار الصحو، أن كل منها إلا مراتب من نشاط عقلي واحد لا ينفصل.

إن البعض أخذ على فرويد رأيه في تشبع الاحلام بالميول الجنسية تشبعاً يبترها عن ضروب النشاط اليومي، وعن الاوضاع المألوفة للحياة، ويقول أنه لو كان ذلك صحيحاً لكانت الاحلام

تعبيراً لا عن الحياة النفسية في مجموعها، بل عن جانب منها فحسب. ومع أن أدلر يرى أن الاحلام حقاً وسيلة لالتماس الحلول السهلة لمشاكل الحياة وتخفف من الخشية المقيمة في نفوس الافراد من الدنيا، حين تعوزهم الشجاعة لمواجهتها، فهو يرى أن فرويد قد أسرف أسرافاً كبيراً في المجاز والتشبيه، منعه عن أدراك أنعكاس الشخصية كلها في الاحلام، ويقول أدلر أنه اذا كان فرويد، قد وفق في الوصول الى كثير من القواعد الهامة لتأويل الاحلام، الاان ما يعوز التحليل النفسي، هو الركن الهام لاقامة علم النفس، أي النظر الى شخصية الفرد متكاملة، وتأمل الفرد وحدة،وان.أختلفت أشكال النشاط التي تصدر عنه ومن ذاته.

قلنا في البداية أن الاحلام تمثل جانباً هاماً من سيكولوجية قوة الاستدلال وشرحنا ابعاد ذلك من خلال السطور أعلاه. لهذا نرى أن التطور في الصورة النفسية يسير على مراحل وبالامكان مراقبته في الاحلام (فالحلم هو تتمة عمل نفسي في اليقظة على رأي فرويد) وهو شبيه بعملية هضم تنتهي بتمثل الحركة. ويضع أحد العلماء تشبيهاً لذلك فيقول (اذا دخلت شوكة تحت ظفرك فلا يمضي وقت طويل حتى تبرز قوى لا نعرفها ولا نراها فتحارب الجرثوم الدخيل الى أن تقضي عليه) وما يجري في الحلم لا يختلف عن هذا.

ولكي يراقب هذا العالم هذا التطور ظل يراقب عدداً من أحلام الناس من حين لآخر،حتى يتم تمثل تلك الاثارة. وقد رأى ان ذلك يتم في ١٢ مرحلة أطلق عليها هذه الاسماء: ١ ـ العرض ٢ ـ الربط ٣ ـ اليقظة ٤ ـ الحزم ٥ ـ القبول بالامر الواقع ٦ ـ الابعاد ٧ ـ النفي ٨ ـ التطور المفاجئ ٩ ـ التحقق ١٠ ـ التنقية ١١ ـ التوافق ١٢ ـ التمثل.

يشير هذا العالم السويسري الى هذا التطور ومراحله في أحد كتبه، فيرى أبتعاداً أو عزلة عن العالم ـ تماماً كما يحدث في وحيدة الخلية في تجربة آلفرده س عندما أثيرت بحبيبة كورامين-سوفي الرجوع الى العالم يكون قد تغلب على الاثارة التي أبعدته فيرجع عن عزلته الى عالم الناس والحياة. ويضرب مثالاً لتأييد نظريته، هو قصة مهندس مريض، بقي في المعالجة ثلاثة أعوام، وكان عدد الاحلام التي سجلها ٨٢٣ حلماً، فكان تطور السير مترافقاً مع تطور الشفاء: فالمرض هو عنانة مع فقدان الرغبة الجنسية فقداناً تاماً ثم ضيق الصدر وكآبة. والمريض في الثانية والاربعين من عمره، يؤكد أنه لم يحلم في حياته ولو حلماً واحداً، بإستثناء حلم رآه قبل أن يبدأ بالعلاج بيومين (رأى نفسه في طابق أرضي مظلم، ليس فيه الا بعض نور بطيء، يأتي من نافذة بعيدة، لا يصل اليها، فهي في أعلى الجدار.وقد استرعى نظره ان شبك الحديد الذي أحاط بالنافذة كان في دقته وصناعته مما يوجب الانتباه،وأستغرب أن يكون موضعه في ذلك المكان، كما أذهله أن القضبان الناعمة التي صنعت منها النافذة كانت تمثل بأشكالها أرقاماً رياضية وأشكالاً هندسية).

في خلال الاشهر الستة الأولى لم يكن يرى في أحلامه إلا آلات، وما يمت اليها كسيارات وجرارات حديدية وما شابه ذلك. وفي الاسابيع الثلاثة من هذه الاشهر، رأى ثلاث مرات أنه بهذه الآلات، كأنما يحاول أن يعبر جسراً، ولكنه في كل مرة يمر فوقه يجد أنه، قبل الوصول الى الجهة المقابلة، قد خرب. ولأول مرة،بعد ستة أشهر رأى (الحياة) في أحلامه، اذ رأى نبتة مغروسة في طبق من فخار. وفي الاسبوع نفسه بدأ يحلم بأشجار خضراء وورود حمراء، غير أن هذه الورود كانت تحوي في جذورها ديداناً ويرى أوراقها ذابلة.

مضت أربعة اشهر على هذاالحلم حيث بدأ يرى الحيوانات:هي ديدان من تلك التي تعيش تحت الارض، كحشرات سامة، وقد أستمرت أحلام هذه الحشرات مقدار ستة أشهر أخرى، رأى فيها الزواحف والضفادع والافاعي، وفي الوقت نفسه كان لا ينفك يرى الآلات والنباتات،والحيوانات التي كان يراهاكانت بلون الالات، رمادية.. وفي أحدى الليالي ارعبته رؤيا أفعى هائلة بطولها وثخنها.

بعد هذا كان أول ما رأى من حيوانات الدم الحار، هو الفار. وفي المرة الاولى، رآه يتفرس فيه من ثقب ثم ينهزم. بعد ذلك، بدأ برؤيا الخنازير، الوحشية منها والاهلية، ودام هذا زمنا حتى ضج من هذه (الخنزرة)، وكان أن أنقلبت الرؤيا الى سباع.. وجياد.

اما الانسان الاول الذي رآه فقد كان بعد مرور عامين تامين. الانسان الاول كان امرأة عجوزاً، أغمي عليها وهي في ثياب طويلة حمراء، هذه العجوز كانت تسبح في بحيرة قد تجمدت، وقد أرتعد لهذا وأسرع يطلب النجدة.

بعد نصف عام من هذا، رأى نفسه يراقص فتاة حسناء في عيد للعمال، وهي تلبس ألبسة حمراء قانية، وشعر بأنه يحبها حباً جماً.

ومنذ ذلك الحين رجعت اليه حياته الجنسية على أتم وجه.

اذا كان الناس يريدون الكشف عن أحلامهم ومعرفة قوة الاستدلال بها، فقد فاتهم المرمى من نسيانها وصعوبة تأويلها وفهم معناها. وقد أخذت هذه المسألة على أذلر جماع تفكيره، منذ مطلع أشتغاله بتفسير الاحلام حتى وصل أخيراً الىأن ليس في الاحلام مناقضة للحياة العادية، لأنه اذا كانت السيطرة غاية قوية، تأخذ بزمام حياتنا بالنهار، فهي تمسك بهاأيضاً خلال الليل، وليس الحلم سوى محاولة لحل مشاكل الحياة،وتكملة للجهاد العنيف الذي نبذله للوصول إلى الغاية التي نتوق للوصول اليها من القوة والسمو. فليس الحلم اذن سوى نتاج لأسلوب المرء في حياته، يؤيد منهاجها، ويمهد السبيل للمرء فيها، غير أنه اذاكان ذلك هو القصد من الاحلام، فكيف يصح ذلك القول

وغيابة النسيان تغرق الجانب الاكبر مما يعرض لنا من الاحلام، فلا صورة تبقى، ولا أقاصيصه تقر الذهن، فان بقي منها شيء لم يكن سوى نذير يسير،يتعسر علينا فهمه! يجيب على ذلك أدلر بقوله: أن الحلم وسيلة وأداة لاستثارة الأحاسيس والانفعالات، والغاية منه الحصول على الحالة الوجدانية التي يخلفها وراءه، ذلك لأن الانفعالات التي يستشعرها المرء لا بد أن تتسق وأسلوبه في الحياة، لأن الفرق بين تفكير النوم وتفكير اليقظة ليس فاصلاً باتاً. فمع أن الحلم يبتر كثيراً من علاقات الفرد بالعالم الخارجي، ويباعد بينه وبين الحقيقة إلا أنه لا يسير في ذلك أشواطاً كبيرة، فاذا ازدحمت أيامنا بالمشاكل، لاحقنا ذلك في النوم، ويكفي أن نذكر، كما يقول أدلر، أننا نتحاشى السقوط في اثناء النوم، ونتخذ الوضع الذي نستشعر فيه الراحة والدعة،حتى يتضح لناأننا نستمسك ونحن نيام بعالم الواقع، ولو أن النوم يخفف عنا كثيراً من قيوده ومن أوضاع الجماعة التي نعيش في كنفها.

إن الباحثين قد فشلوا الى الآن في الاجابة بوضوح عما يستدرجنا كل ليلة من أعمالنا ونشاطاتنا الترفيهية والجلوس الى عائلاتنا وأصدقائنا الى عالم النوم الموحش؟ ذلك أنه من الصعب أن نتصور أن بني الانسان يقضون ثلث حياتهم في حالة لاوظيفة لها. ومع ذلك فقد بلغ الامر بأحد الباحثين العلميين حداً من التشاؤم من أمكان أيجاد وظيفة محددة للنوم، جعله يتساءل ان كان للنوم وظيفة أصلاً. ولكن قبل أن أقدم بعض الوظائف المحتملة التي قد يؤديها النوم أود أن أشرح بشيء من التفصيل ماهية النوم.

وقد كان ذلك في عام ١٩٥٢ وبالصدفة، حين كلف طالب حديث التخرج بمراقبة أجفان متطوعين نائمين ليرى ان كانت الاجفان تتحرك خلال النوم. ولاحظ أنه في أوقات معينة أثناء الليل تتحرك عيون النائمين في محاجرها حركة نشطة بينما تبقى الاجفان، المكلف بمراقبتها،مسدلة ساكنة.ولم تكن حركة العيون متوقعة لأن الفكرة السائدة منذ أمد هي أن النوم عبارة عن فترة هدوء وكمون وليست فترة ينشط فيها الدماغ بحيث يحرك العيون بسرعة أكثر من حركاتها في فترة الصحو.ومنذ ذلك الوقت فهم الكثير عن هذه الحركة السريعة أثناء أطوار معينة من النوم.وتكون تلك الاطوار مصحوبة بطرزمميزة من الموجات الدماغية وازدياد في تدفق الدم الى الدماغ وبالتالي ازدياد حرارة الدماغ وتنفس غير منتظم وتقلصات عابرة في عضلات الوجه والانامل وغير ذلك من المظاهر. ويكون النوم في هذا الطور نوماً نشيطاً ـ حتى ولو أن العضلات الكبيرة في الجسم تكون مسترخية تماماً. والنوع الاخر من النوم هو طور معاكس للطور الاول في أن حركة العيون السريعة لا تحدث خلاله. ومن مظاهر هذا الطور أن يكون التنفس منتظماً وحركة العضلات في الجسم متوقفة ونشاط الدماغ قليلاً، وفي هذا الطور يحدث الشخير.

وفي بدء النوم تحدث أمور غريبة، كأن يحس الشخص الذي يكون على وشك النوم بصدمة كهربائية أو ومضة ضوء أو صوت رعد. على أن أكثر الاحاسيس شيوعاً هو الشعور بالطفو في الهواء أو السقوط خلاله إلى أسفل. والحادثة التي تحدث لكل أنسان في بدء النوم ((على الرغم من أن كثيرين لا يذكرونها (لأنها لا تعيد الانسان دائماً إلى صحوه)..)) هي حركة أنتفاضة فجائية في الرأس أو أحد الاطراف أو حتى الجسم كله. ويظن معظم الناس أن بدء النوم هو عبارة عن أنزلاق تدريجي نحو النسيان والاسترخاء الكامل، ولكن بدء النوم لا يكون تدريجياً البتة، بل يحدث فجأة في لحظة قبلها مباشرة كان المرء مستيقظاً وبعدها مباشرة يكون نائماً.

وتكون دوماً، أول مرحلة من النوم، فترة هدوء (أي مرحلة عدم حدوث حركة العيون السريعة) وتتألف من أربعة أطوار في كل منها على التتابع يبتعد النائم أكثر فأكثر في البيئة ومؤثراتها على الحواس.

وعلى سبيل المثال، فإن الاطفال حين يصلون الى الطور الرابع يصبح أيقاظهم صعباً، وعندما نوقظهم، بعد لأي، يبقون في حالة لا وعي عدة دقائق قبل أن يعودوا الى وعيهم.وفي هذا الطور الرابع المتميز بعمق النوم يحدث تكلم النائم وسيره (دون أن يعي ذلك) كما تحدث الكوابيس والاحلام المرعبة وفيه يبول الاطفال في فراشهم.وبعد البقاء فترة في الطور الرابع العميق يعود النائم أدراجه الى الطور الثالث فالثاني فالأول حيث يكون النوم سطحياً خفيفاً.. ويكون التحول من بدء النوم (الطور الاول) الى النوم العميق (الطور الرابع) تحولاً ينزلق في النائم سطحياً خفيفاً.. ويكون التحول من بدء النوم (الطور الاول) الى النوم العميق (الطور الرابع) تحولاً ينزلق فيه النائم من طور الى طور أنزلاقاً تدريجياً، بينما تكون عودته من الطور الرابع إلى الثالث فالثاني فالأول في قفزات غير منتظمة. وبعد الطور الأول يدخل النائم في مرحلة النوم النشط (أي مرحلة حركة العيون السريعة). وقد وجد أن النائم يمضي حوالي ٧٠ إلى ٨٠ دقيقة في مرحلة النوم العميق بأطوارها الاربعة، أما في مرحلة النوم النشط فيمضي حوالي ١٠ دقائق،أي أن دورة النوم كاملة من بدء النوم بالطور الأول للنوم العميق نزولاً الى الطور الرابع ثم رجوعاً الى الأول فالنوم النشط تستغرق ٩٠ دقيقة في المتوسط، وفي أشخاص تكون قصيرة أي حوالي ٧٠ دقيقة فقط بينما في آخرين تكون طويلة تصل إلى ١١٠ دقائق. ورغم أنهما يختلفان عن بعضهما البعض أختلاف حالة النوم عن اليقظة، يستمر نوعا النوم السطحي (النشط) والعميق (الهادئ) في التعاقب في دورات كالتي ذكرنا طول فترة النوم. ولكن مع أكتمال كل دورة تطول تدريجياً فترة النوم السطحي النشط (نوم حركة العيون

السريعة)حتى تصل الى ٦٠ دقيقة (بدلاً من ١٠ دقائق في بداية النوم) وذلك قبل الاستيقاظ مباشرة، وبالمقابل تقصر تدريجياً فترة النوم العميق (نوم عدم حدوث حركة العيون السريعة) الى درجة ملحوظة، والكبير البالغ الذي يمضي سبع ساعات ونصفاً نائماً، يصرف منها ساعة ونصفاً الى ساعتين في نوم نشط معظمه عند نهاية فترة النوم.

لقد تبيّن أن المفهوم الجديد للنوم، الذي تبلور في العقود القليلة الماضية من تجارب مختبرات علمية عديدة، أنه ليس كما صوره شكسبير على أنه (موت مزيف)، كما أنه ليس كما كان سائداً في الاذهان من أنه (أختفاء شيء من مظاهر اليقظة)، بل بالاحرى هو حالة فاعلة لا يهدأ الدماغ فيها عن النشاط. وقد تبلورت نظرية تسند الى كل نوع من نوعي النوم وظائف مختلفة: فالنوم العميق: كما يبدو، يعمل على تمكين الجسم من النمو وأصلاح ما تلف من أنسجة الجسم وتركيب البروتينات. وعلى ذلك يكون هذا النوع من النوم ضرورة بيولوجية، وبدون ذلك ينهار الانسان من وجهة حيوية، وقد لوحظ أنه اذا حرم انسان من النوم فترة فان أول مايعوضه، عندما يتاح له النوم، هو النوم العميق، والى أن يتم التعويض عن ذلك يظل المرء يشعر بالنعاس والكسل والتبلد ويكون أقل قدرة ونشاطاً من عادته على القيام بالأعباء الجسمانية.

ويبدو النوم السطحي أنه يجدد العمليات العصبية التي هي قاعدة الوعي، وهي عمليات فكرية لا جسمانية. والناس الذين يحرمون منها لا يشعرون بالكسل والتبلد بل يكونون سريعي الاثارة عاطفياً، ويكون أداؤهم في أختبارات التركيز الذهني والتعلم ضعيفاً، وهذا النوع، كما يبدو، ضروري لتكامل فهم ما تعلمه المرء حديثاً وحفظه في الذاكرة. ولذا فان الطلبة الذين يسهرون طول الليل أو معظمه محاولين دراسة أوأستذكار مادة ما لامتحان سيعقد في اليوم التالي لا يكون أداؤهم جيداً بقدر اولئك الذيم قضوا ليلهم ساهرين يدرسون قد تعلموا دون ريب عدداً من الحقائق الجديدة. ولكن هذه الحقائق لا يمكن أن تتذكر وتفهم تماماً ما لم يتم تكاملها وحفظها في الذاكرة ـ وهذا لا يتم إلا في حالة النوم ا لسطحي. كذلك يبدو أن النوم السطحي يساعد الناس على تحمل الضغوط النفسية اليومية. وقد أظهرت التجارب أن المتطوعين الذين تعرضوا لحالات ضغوط نفسية ازدادت حاجتهم للنوم السطحي، كما أنهم خلاله تكيفوا مع الحالات النفسية الضاغطة وتقبلوها أو تعايشوا معها.

من كل ذلك يتضح أن الاحلام والنوم هما من عوامل الاستدلال في الانسان، وإن كانت عملية النوم هي المهيئة لذلك وتأتي الاحلام متوجة لها.

الحدس المتنبئ

يمكن أن يقال الحدس المتنبئ عن مثل التنبؤ بالخطر الداهم الذي يمنع شخصاً من السفر في سفينة معينة أو قطار معين، سواء أكان ذلك في الجو أو في الحلم، وليس من المنطقي أن نرفض رفضاً قاطعاً أمكان التنبؤ حتى يتوفر لنا مزيداً من العلم بما نعنيه بالزمان، ومزيداًمن العلم بطبيعة العقل دون الشعوري ووظائفه. ثم أن هذه ليست بإستحالة وقوع أشياء معينة كسبق العلم على سبيل التمثيل.

وليس لنا إذا قبلنا بوجهة النظر هذه أن نجعل من أحلامنا وتنبؤاتنا هي التي تسير وقضايانا ومشاكلنا، أنه عرض باطني لمشاكلنا أو أنذار في هذه الصيغة أو تلك. ومن الخطأ الشائع بالنسبة للحقائق أن ننظر الى العدد الكبير من الاحتمالات باعتبارها تنهض دليلاً وبرهاناً في ذاتها، على حين أنها قد تكون قائمة على مغالطات تفسدها. إن بضع حالات لا يرقى اليها الشك، اذا كان بالوسع أثباتها،تساوي في قيمتها عدداً كبيراً من الحالات التي تفتقر الى البرهان،مهما بدت صادقة في ظاهرها. وهذا هو السبب في أننا في العلم يتعين علينا أن نجمع عدداً كبيراً من الحالات الصادقة الثابتة لكي نبرهن على وجهة نظر معينة. وفي الوقت نفسه ليس يكفي عدم إقامتنا البرهان العلمي على أمر من الأمور الدالة على أنه غير صحيح. فـ(الاعتقاد) قبول حقيقة أفتراضية في غيبة الدليل والبرهان. إن هناك بعض الناس الذين يعتقدون في التجاوب العقلي عن بعد، والتنبؤ التحذيري، والوجود الروحي، وإن لم يقتنعوا بعد بأنها أمور ثبتت بالدليل العلمي، هذا فضلاً عن أن من حقهم أن يعتقدوا في هذه الامور، اذ أن أعتقادهم هذا قد يثبت في يوم من الايام.

ومن الامور الواضحة أن بني الانسان لا يمكنهم أعتبار الحواس بأنها دوماً مرآة دقيقة، تعكس صورة العالم، ويزيد الوضع تعقيداً ان كل أنسان يخلط مع الاحداث الحسية خبراته الخاصة وشخصيته وأحتياجاته وحوافزه وتوقعاته الثقافية.ولإيضاح ذلك، وبخاصة التوقعات

الثقافية تقول، أن المحارب الهندي الاحمر يعتزل الناس، في فترة من حياته، وفي بقعة منعزلة موحشة محاولاً طلب (رؤيا) معينة. وفي العادة يعود من فترة الاعتزال وقد حصل عليها بسبب أنه كان قد شحن نفسه الى أن وصل الى حالة عاطفية شديدة التركيز، جعلته على أستعداد لتصور رؤياه وتحقيق التجربة التي توقعها هو ومجتمعه. وهناك آخرون ممن سعوا للحصول على رؤى خارقة بهذا الاسلوب الصوفي، نذكر منهم النساك البوذيين والرهبان المسيحيين والنساك الصوفيين اليهود ودراويش الذكر المسلمين. ومن الواضح أن الطرق المتعددة، التي يفسر بها البشر الانطباعات التي تنهال عليهم من حواسهم تتطابق وتنسجم مع توقعاتهم الثقافية وشخصيات الافراد الخاصة. ويكون بنو الانسان فكرة عن الاشياء من خلال المعلومات التي يحصلون عليها من حواسهم، ولكن هذه المعلومات تتأثر تأثراً عميقاً بما يعرفونه، أويظنون أنهم يعرفونه، عن تلك الاشياء، وفي قصة مشهورة لأدغار آلان بو ورد أن أحداً لم (ير) الرسالة المسروقة رغم أنها كانت على مرأى من الجميع بسبب توقع معظم الناس أن يكون الشيء المسروق مخبأ. ولذا يصح القول بأننا لا نعتقد بما نرى فحسب بل ونرى ما نعتقده في باطننا.

ومن ذلك يمكن القول أن هناك بون شاسع بين العالم الحقيقي، كما تحدده وتقيسه أجهزة علم الفيزياء، والعالم كما يعرفه الناس، بإستخدام حواسهم المجردة في فهمه. وهذا الفرق الهائل يستند الى ثلاث حقائق واقعية واضحة:

الأولى ــ انه يمكن للحوادث أن تؤثر في الحواس دون أن تلاحظ لسبب أو لآخر

الثاني ــ ان حوادث عديدة تقع خارج نطاق الحواس المجردة، فكثير من الاصوات التي تصدر بإستمرار نتيجة أهتزاز المادة تكون إما ضعيفة أو عالية التردد، بحيث لا تستطيع الأذن الانسانية سماعها، وكذلك لا تستطيع العين المجردة رؤية الاشياء الصغيرة جداً مثل الكائنات الحية الدقيقة التي تنتشر على سطح كل جسم وشيء في هذا العالم. كما لا يملك بنو الانسان أعضاء حس قادرة على أكتشاف مدى واسع من الطيف الكهرومغناطيسي يشمل أشعة غاما والأشعة السينية وموجات الراديو والاشعة تحت الحمراء.

الثالثة ــ أن الناس لا يعقلون بشكل كامل الحادثة التي تتجلى للحواس، اذ كثيراً ما تغفل العينان بعضاً من ملامح الجسم المرئي أو تضيف اليها أو تشوهها وبذا يتولد خداع بصري، كثيراً ما يضللنا.

إن ثقة بني البشر بأنفسهم، وهم يتجولون في أرجاء بيئتهم، غريبة نظراً لقلة المعلومات عن البيئة التي تصل أدمغتهم عن طريق حواسهم، فالناس ينظرون الى منزل من الخارج ويعرفون رأساً

دون أن يدخلوه أن به غرفاً. وللأطفال نفس حواس الكبار وتعمل بنفس الكفاءة ولكن الطفل الصغير لا يستطيع تصور ما في البيت بدقة من مجرد رؤيته من الخارج. ولا يرجع ذلك الى أختلاف الاحاسيس التي يحس بها الصغار، ولكنهم يتعلموا بعدُ كيف يفسرون المعلومات التي تنقلها اليهم تلك الاحاسيس. أما الاطفال الأكبر سناً فيكونون، مثل الكبار، وقد تعلموا كيف يترجمون المؤثرات الحسية بعملية تعرف باسم (الادراك) الى خبرات وتجارب منظمة، أو مايعرف بالمدركات، ويميز معظم علماء النفس بين الاحساس والادراك، ويضعون نقاطاً لذلك:

فالأحاسيس تكون نسبياً بسيطة مثل صوت عال يصدره مولد يهتز. أما المدركات فهي نتاج ترابط وتداع معقد بين أحاسيس عديدة، كما يحدث عندما يفهم صوت عال كصرخة أستغاثة، ويكون عندها مصحوباً بأحاسيس رائحة الدخان ورؤية السنة اللهب ولسعة حارقة في الأنف، مما يسبب سلوكاً معقداً قد يتمثل في اندفاع الشخص الذي أحس بتلك الاحاسيس الى داخل المبنى المحترق لينقذ انساناً من اللهب.. وتسبب الاحاسيس ذاتها نفس المؤثرات في الفرد:ففي أي مكان في العالم تضاء فيه أشارةالمرور الحمراء يرى المرء ضوءاً أحمر. ولكن المدركات من ذلك تختلف بدرجة كبيرة حسب ما كان المرء قد تعلمه طول حياته وحتى آخر مرة رأى فيها ضوء مرور أحمر.

وعلى ذلك فالأدراك عملية نفسية ينظم بها بنوالانسان ويفسرون الأدلة التي جمعتها لهم الحواس عن البيئة. ويعتقد كثيرون بأن الادراك يتم تلقائياً ودون جهد أو تفكير متعمد، إلا أن التجارب أثبتت أن المدركات يستغرق تكونها وقتاً، وصحيح أنه في بعض الاحيان لا يزيد ذلك الوقت عن بضعة أجزاء من ألف من الثانية، ولكنه في أحيان أخرى، يصل الى عدة ثوان بالنسبة الى شكل هندسي بسيط. أما للأمور الأكثر تعقيداً، التي تكون فيها الاحاسيس غامضة أو غير كاملة فان المدركات تحتاج الى وقت طويل حتى تكون جاهزة.والملفت للنظر بشأن الادراك هو أن الناس، بعد أن ينظموا المعلومات التي يحصلون عليها عن طريق الحواس بالسرعة التي يستطيعونها، يستمرون في أعادة تفسيرها في ضوء أية معلومات جديدة تتوفر لهم،ويستمر الناس في أدراكهم للعالم كنظام ثابت مرتب على الرغم من أن المعلومات التي تجمعها الحواس عنه تدل على أنه متغير وغير منظم. وهذا يعني أن العقل يهمل الدليل الواضح الذي تقدمه الحواس لأن التجربة والخبرة السابقة قد تركت فيها أنطباعاً متغايراً.

ويرى بيتر فارب أن معظم الناس يميلون لتنظيم ما يصل الى أدمغتهم من مؤثرات بصرية في عدد محدود من طرق متشابهة، ولذلك فان بعض الادراك يعتمد الى حد كبير على

أختلاف المدركين في ميزاتهم الفردية، ومما يؤثر في الادراك تأثيراً عاماً واضحاً أن الناس يرون ما يتوقعون رؤيته،وهذه التوقعات نتيجة مباشرة لخبراتهم السابقة ومستوى تعليمهم وحوافزهم. ففي تجربة تقليدية قسم عدد من المتطوعين الى ست مجموعات، أفراد كل مجموعة متجانسون يشتركون معاً في أهتمام مشترك كالدين والاقتصاد.. الخ. ثم عرضت على شاشة صور وكلمات مختلفة، وطلب الى المتطوعين تسجيل الكلمة أو الصورة التي أدركوها أولاً، فوجد أن أفراد المجموعة الواحدة المتشابهين في الاهتمام كان أختيارهم في الغالب متشابهاً، فالذين كانوا يهتمون بالدين كانواأول من أدرك كلمة (مقدس)، والاقتصاديون أدركوا قبل غيرهم كلمة (دخل) أو (ربح).. وقد عرف قبلاً أن الجائع يرى في بقعة حبر لا معنى لها شكل غذاء وأشياء ذات صلة بالغذاء. وكثيراً ما يرى الأطفال صور الحلوى في شكل لا صلة له بالحلوى إطلاقاً. كما أثبتت تجارب أجريت علىأطفال فقراء، بأن طلب اليهم أن يرسموا موضوعاً يتعلق بالنقود، أنهم كثيراً مايبالغون في حجم قطع النقد المعدنية التي يرسمونها.

وقد تعلمنا من خلال تجاربنا أنه تحدث أختلافات واضحة في الادراك لا بين الافراد المختلفين فقط بل أيضاً عند الشخص نفسه عندما يحدث الادراك عنده في أوقات مختلفة. والاعتقاد الشائع بأن الناس يدركون العالم بشكل مختلف في كل طور من أطوار حياتهم ـ من الطفولة حتى الكهولة والهرم ـ صحيح، وقد تأكد بتجارب مختلفة.

كما أثبتت تلك التجارب أنه بتقدم العمر يحدث تصلب في التوقعات عند المرء. فكلما زاد الاطفال عمراً ونضجاً زاد أعتمادهم على الثوابت الادراكية كشكل باب أو طبق طعام. ومع أزدياد التعلم والخبرة في تكوين المدركات بأزدياد العمر، يصبح الناس أكثر استعداداً للوقوع ضحية بعض أنواع الخدع البصرية. فمثلاً، اذا كانوا قد تعودوا على رؤية زوايا قائمة في بيئتهم، كما في الابنية والشوارع وتخطيط المدن والمزارع.. الخ، كان من السهل خداعهم بخدعة بصرية مبنية على أدراك الزوايا القائمة. ويبدو أن هناك اختلافات في الادراك بين الجنسين، ولكن ليس من المؤكد ما اذاكان السبب متعلقاً بالاختلافات البيولوجية بينهما أم أنه بسبب أختلافات أدوارهما المفروضة عليهما بسبب جنسيهما في المجتمعات المختلفة. وقد وجد أن الذكور في امريكا الشمالية، مثلاً،يكونون في تفهمهم للأحاسيس (مستقلين عن المجال) بدرجة أكثر من الاناث، بمعنى أنهم أقل تأثيراً منهن بالأطار العام الذي تحدث ضمنه الاحاسيس (مستقلين عن المجال)بدرجة أكثر من الاناث، بمعنى أنهم أقل تأثراً منهن بالأطار العام الذي تحدث ضمنه الاحاسيس. فمثلاً لو وضع مثل هؤلاء في غرفة صممت خصيصاً بحيث لا يكون فيها أي مرجع محسوس يعطي فكرة عن المستوى العمودي والافقي، كأن

كانت كروية وكل الاثاث فيها دائري الشكل وغير مستقيم، فانهم يستطيعون أن يقيموا قضيباً بحيث يكون عمودياً تماماً. ويمكن تفسير تفوق الذكور في مثل هذه الاختبارات بأنه ناتج عن أساليب تربية الطفل في أمريكا الشمالية التي تشجع الذكور على المبادرة والمغامرة، وليس عن أية أختلافات بيولوجية أو نفسية بين الجنسين ذات أثر في أدراكهما للمدركات.

إن المشكلة التي تطرحها ظاهرة الادراك بغير الحواس هي أنه لا توجد لدينا حتى الان أية وسيلة عملية لتقويم هذه الظاهرة، ومع ذلك فقد جرت محاولات لإخضاع هذه الظاهرة للبحث على أسس علمية، غير أن علينا أن نلاحظ أن عمل ذلك أسلوب علمي صعب جداً، لأن التجارب هذه لا يمكن أن تتكرر كما يتطلب الاسلوب العلمي للتأكد من نتائجها. ولا يمكن القول، في الوقت الحاضر، ما اذا كان الادراك بغير الحواس موجوداً أم لا في النوع الانساني بعامة أو في عدد قليل من الاشخاص الموهوبين. ومما لا شك فيه أن هناك حالات محيرة تظهر أن بعض الناس يملكون قوى لا يمكن تفسيرها في الوقت الحاضر بمفاهيم القوانين الفيزيائية المعروفة. ومع ذلك لم يكن ممكناً تصميم تجارب محكمة لأختبار الأفراد الخارقين ومقارنة نتائجهم بالناس العاديين ولايجاد تفسيرات بديلة يمكن أن تنطبق مع أي من القوانين والمبادئ العلمية المعروفة التي تحكم الكون. وواضح أنه لا يمكن التهرب من أعتبار ظاهرة الادراك بغير الحواس قوة ممكنة في النوع الانساني، غير أنه لم يتم اثباتها والبرهنة عليها حتى الان. وهذا الوضع ليس شاذاً في العلم وتاريخه، فنظرية كوبرنيكوس بأن الارض تدور حول الشمس استندت الى ظاهرة ازاحة مواضع النجوم كما يبدو لعين الرائي، مع أن الفلكيين لم يثبتوا تلك الظاهرة الا بعد مرور قرنين من الزمان. كذلك أفترض وجود الذرات قبل ألفي سنة، ولكن لم يبرهن على أن من الممكن فلق أنوية الذرات إلا عندما أنتشرت سحابة (عيش الغراب) فوق الاموجوردو في مكسيكو الجديدة عام ١٩٤٥ والمعروف أن الانفجار النووي يولد سحابة لها ساق وقرص منتشر أعلى الساق شبيهة بشكل فطر عيش الغراب، والاشارة هنا الى الانفجار النووي التجريبي الاول.

وقبول فكرة العلم السابق ينطوي، في المقام الاول، على أن المستقبل كله، أو أجزاء منه، يعتبر سابق التدبير، كما ينطوي، في المقام الثاني، على أننا قادرون على العلم بها سلفاً، أننا قد نرفض الامر بأعتباره خرافة شعبية، الا أن عدداً متزايداً من العلماء أصبحوا يوجهون أهتمامهم الى الامر، والعجيب أن ثمة بعض علماء الفيزياء، ولا نقول علماء النفس، ممن يرون أن الاعتقاد في سبق العلم لا يتعارض كلية مع نظريات الزمان والمكان الحديثة.

وفي ذلك يقال أن علينا أن نتثبت تماماً من حقيقة ما قبل أن نلجأ الى أية نظرية يمكن تقديمها لتفسير مدى أمكان حدوث أمر كهذا، فلا تكون عندئذ ثمة ضرورة يحتد بها لجمع الشواهد والادلة على وقوعه فعلاً. وكلما كان تفسير (الحقائق) بسيطاً، قلت الحاجة الى تحقيقها بالتفصيل، فاذا أخبرنا شخص بأنه سافر من القاهرة الى الاسكندرية بالقطار في ساعة ونصف من الزمن، فاننا قد نتقبل هذه الحقيقة دون بحث، لأننا نعلم أنها ممكنة.ولكن اذا كانت الحقائق لا تقبل تفسيراً معروفاً، أي اذا كانت من نوع يتجاوز المألوف،فانه يصبح من الأهم عندئذ أن نجمع أكبر عدد ممكن من الحالات، وأن نخضعها للفحص الدقيق، ثم نفسرها أن أستطعنا بمقتضى ابسط فرض ممكن

★ ★ ★

إن مادة الاحلام هي أحدى الظواهر التي تتناولها قوة الاستدلال في الحدس المتنبئ، وخاصة التحقق مما اذا كانت الاحلام تسفر عن أي دليل يؤيد الاتصال العقلي عن بعد، أو التنبؤ والتحذير السابق.

وقد وضع ج. أ . هادفيلد أنواع ثلاثة من الحالات لمثل هذه الاحلام وهي:

أولاً: تلك الحالات التي تبدو في ظاهرها (تليباثية)، أي التجاوب العقلي عن بعد، أو تنبؤية، ولكنها على غرابتها يمكن تفسيرها على نحو أكثر بساطة.

ثانياً:ثم تلك الحالات التي يبدو فيها الحالم وكأنه يتلقى أنباء صادقة عن أمور تحدث في نفس الوقت، كموت قريب على مبعدة، مما لا يمكن التوصل اليه عن طريق الحواس المعروفة، أو أستنتاجية من علم سابق، ولكنه يفسر طبعاً لظاهرة التجاوب العقلي عن بعد اذا كنا نقبلها.

ثالثاً: ثم تلك الطائفة من الاحلام والخبرات الغريبة التي تبدو في ظاهرها تنبؤية، والتي لا يمكن تفسيرها طبقاً لأية قوانين معروفة، أو بالتليباثي، ومن ثم فهي لا تجد لها في الوقت الحاضر أي تفسير كاف.

وسوف أضع للقارئ هنا رسالة تلقيتها من أحد الاصدقاء يطلب مني تحليل حلمه وكيف صدق، وهاكم مضمونه.

لهذا الصديق ابن عم يخدم في الجيش على حدود العدو، وقد حلم في يوم من الأيام أن قريبه قد قتل، ولم ينم تلك الليلة من شدة القلق، وفي اليوم الثاني تحقق من الامر فكان حلمه صحيحاً وأن ابن عمه قتل تماماً في الوقت الذي حلم به بذلك.

إن الكثير من أمثال هذه الأحلام قد تضمنها كتابنا (الأحلام: تحليل مائة حالة نفسية) وكان تحليلنا في الغالب أن هذه الاحلام هي من وحي الصدفة، وتدعيماً لهذا الراي يقال أن المات قتلوا في ذلك البلد في الوقت ذاته، هذا الى أن الفكرة لا بد وأن تكون قد خطرت في بال المريض بأن ابن عمه يمكن أن يقتل. وهذا حق، ولكن لندخل في أعتبارنا أن الفكرة كانت أبعد ما تكون عن مجرد خاطر عابر، أو حلم مألوف لديه، اذ أن هذه المناسبة كانت الوحيدة التي حدث له فيها حلم من هذا القبيل، ثم أن وقوع الحلم في ذلك الصباح بالذات، بل في نفس الساعة على وجه التحديد، يكاد يكون أمراً ملفتاً للنظر، وأنه كان حلماً حياً الى حد ما، وانها توحي بأن ثمة أمراً يتجاوز المألوف له صلة بها. ومع ذلك فان حلماً هذا شأنه يمكن تفسيره على أنه من قبيل التجاوب العقلي عن بعد، اذا كنا نعتقد حقاً في هذه الظاهرة.

وفيما يتعلق بمشكلة أنتقال هذه الرسائل، إن كانت كذلك، فثمة نظرية جذابة تقول بأن هذه الرسائل تنتقل عن طريق موجات مخية فيزيائية، لأنه أصبح الآن من الثابت الوطيد أن المخ يبث موجات تتفاوت في قوتها وشكلها وحجمها. والواقع أن قياس هذه الموجات وتسجيلها قد اصبح أسلوباً مألوفاً في اجراءات التشخيص الطبي المعتادة. ولكن المسافة التي تعبرها هذه الموجات، التي كثيراً ما تعبر الشقة البعيدة بين طرف العالم والطرف الاخر، وقد أمتدت في حالة الجندي الذي ذكرناه، هذه المسافة الشاسعة تستبعد هذا الاحتمال فيمايظهر، وثمة حجج أخرى تناقض هذه النظرية اوردها (تيريل) ولا بد من أيجاد تفسير آخر لهذا الانتقال لا يذهب في المادية مذهب نظرية موجات المخ-إلا أن تفسيراً هذا شأنه ما زال في عالم الغيب.

تحفل مجلدات أعمال جمعية البحث الروحي(*) بوقائع أحلام كثيرة من تليباثية وانذارية منها هذا الحلم الانذاري:صادف أن كانت السيدة ك تعيش مع خالها الذي كانت تنزله من نفسها منزلة الاب. وحلمت ذات مرة أنها كانت جالسة في حجرة الاستقبال ببيته ومعها أختها.وكان يوماً بديعاً من أيام الربيع، وكانت الحديقة عامرة بالأزهار الكثيرة،ولكنها رغم ذلك كانت مكسوة بطبقة رقيقة من الثلج. وقد علمت في الحلم أن خالها عثر عليه ميتاً الى جوار طريق تمر به الخيول ويبعد عن البيت ثلاثةأميال، وأنه كان مرتدياً حلة قاتمة صنعت من غزل يدوي، وكان جواده واقفاً بجواره. وعلمت كذلك أن الجثة كانت في طريقها الى

(*) كتب الدكتور وليم جيمس الفيلسوف وعالم النفس الشهير في شأن هذه الجمعية قائلا: (اذا سئلت أن أدل أمرئ على مجلة علمية يتمثل فيها التزمت والشك الذي لا يغفل عن مصادر الخطأ أكمل تمثيل، فأني أعتقد أن من واجبي أن أحيله إلى مجلة أعمال جمعية البحث الروحي).ورد ذلك في كتاب جيمس (إرادة الاعتقاد، لندن ١٨٩٧).

البيت، محمولة على عربة ريفية يجرها حصانان، وقاع العربة مغطى بقش الحصاد.وكان الجميع ينتظرون وصول العربة تحمل الجثة الى البيت. ثم رأت العربة في الحلم تصل الى باب المنزل، ورأت رجلين تعرفهما جيداً يحملان الجثة ويصعدان بها الدرج بصعوبة كبيرة،حيث كان الخال رجلاً ربعة بديناً، وفي أثناء ذلك كانت اليد اليسرى للجثة متدلية. فأصطدمت بحاجز الدرج في أثناء صعود الرجال بها، ولشد ما راعها هذا حتى أستيقظت.

ولما أطل الصباح أحست باضطراب شديد، فأخبرت خالها بالأمر، وتوسلت إليه أن يعدها بألا يمر في هذا الطريق بمفرده، فوعد بأنه سيتلمس دائماً الأسباب لاصطحاب السائس معه كلما عن له أن يركب في هذا الطريق في المستقبل. ثم عفا النسيان بالتدريج على ذكرى هذا الحلم، ولكنه ما لبث أن عاودها بعد عامين في جملته وتفصيله. وأتهمت السيدة ك خالها بأنه أخل بوعده، فصارحها بأنه كان يفعل ذلك حقاً بين الفينة والفينة.ثم تزوجت السيدة بعد ذلك بأعوام أربعة، وغادرت بيت خالها، وأقامت في لندن تنتظر وليدها الأول . وفي الليلة السابقة على الوضع وقع لهاالحلم مرة أخرى، مع تغيير مفاده أنها كانت في حجرة نومها في لندن، ولم تكن في حجرة الجلوس ببيت عمها كما كان الحال من قبل.ومع ذلك فقد كان بوسعها أن تدرك المنظر كله كما حدث في المرات السابقة. ثم أستجدت نقطة أخرى، حيث حضر شخص يرتدي ثياباً سوداء كاملة، ولم تكن تستطيع رؤية وجهه، ووقف بجوار فراشها، وأخبرها بأن خالها قد توفي،فصحت من نومها وقد غمرتها الكآبة، ولكنها نظراً لما كانت عليه من مرض، فانها لم تشغل بالها كثيراً بهذا الحلم. وبعد بضعة أيام سمحوا لها بأن تكتب لخالها بضعة اسطر قليلة بالقلم الرصاص، وقد وصلته الرسالة الموجزة قبل وفاته بيومين أثنين.

كانت دهشتها كبيرة،في فترة النقاهة، أنها لم تعد تسمع عنه شيئاً، حتى جاءها ذات صباح نبأ بأن زوج أمها كان راغباً في رؤيتها، فأدخلوه عليها في الغرفة، وكان يرتدي ملابس سوداء، ووقف بجوار فراشها، فصاحت السيدة ك قائلة (لقد مات الكولونيل، أني أعلم كل شيء عن هذا الأمر، لطالما حلمت بذلك).

ويقول كاتب التقرير أن التحقيقات التي تلت ذلك دلت على أن الحلم تحقق في كل صغيرة من تفصيلاته حتى ما كان من أمر يد الجثة اليسرى التي كانت ترتطم بحاجز الدرج. ثم أن الرجال الذين حملوا الجثة كانوا هم بالذات الذين رأتهم في الحلم. أما النقطة الوحيدة التي لم تصدق فهي المتعلقة بالأزهار المكسوة بطبقة من الثلج، ولكن السيدة تبينت أن أحلام الأزهار والثلج كانت ترمز في أعتبار أفراد أسرتها الى الموت.

إن تفسير هذا الحلم متعدد ويتبع ذلك من الذي يفسره ولمن يتبع في المدرسة التحليلية، بيد أن تعليق المجلة كان أنه حلم يمتاز على العموم بأنه ملفت للنظر مثير للاهتمام بصفة خاصة. لا لأن تفاصيل الحلم السابق كانت كاملة ومتعددة فحسب، ولكن لأن تكرر وقوع الحلم للحالمة جعل منه حلماً ملفتاً للنظر، هذا فضلاً عن كونه مثالاً على التنبؤ البعيد المدى، اذ أن الحلم الأول حدث قبل وقوع الوفاة بست سنوات.

ويعلق ج.إ.هادفيلد على مثل هذه الحالات من الاحلام التي تتوفر فيها مجموعة كبيرة من التفصيلات الدقيقة الصادقة،ومن بينها أمر له طابع غير مألوف (يد الميت التي تصطدم بحاجز الدرج حيث كان محمولاً الى أعلى) يصبح القول بالاتفاق والصدفة مسألة مشكوكاً فيها!!

وهكذا فان الحدس المتنبيء له صفات ترد من ضرورات باطنية كما تأتي من قدوة خارجية أو ايحاء خارجي، وهي كلها تشكل قدر عظيم من المعرفة الذي تملكه عن التطور المعقد لفكرة الخالق.

★ ★ ★

ليس من السهل المرور على الاحلام التنبؤية ونحن في سياق حديثنا عن الحدس المتنبيء، فذلك الشأن من الاعتقادات الشائعة في أعتقاد الكثيرين،حتى أن الانسان البدائي كان يؤمن بهذه النظرية ايماناً راسخاً مطلقاً. ويعتبر حلم فرعون عن البقرات السمان والعجاف ورؤيا يوسف عن حزم القمح والنجوم من الاحلام التنبؤية. وكثير من الناس في أيامنا هذه يدعون أنهم يرون أحلاماً تنبيء عن النجاح أو الموت أو الكوارث. ولكي تصبح هذه النظرية مقبولة لدينا في مجموعها يجب علينابالطبع أن نؤمن بأن المستقبل ثابت محدد لا يتغير. ليس هذا فقط، بل يجب أيضاً أن نكون مؤمنين بأن من المستطاع أن نحيط به خبراً، وكلاهما أفتراض فلسفي الى حد بعيد، وأن لم يكن هناك بالضرورة ما يمنع من صحتهما.ويرى البروفيسور (دون) أننا اذا أحتفظنا بسجل لأحلامنا التي تحدث في بضعة شهور يتبين لنا أن نسبة كبيرة من هذه الأحلام قد حققتها الأيام. إن مناقشة نظرية كهذه تخرج عن نطاق بحثنا هذا، ومع ذلك فمن الحق أن نشير الى أن كثيراً من العلماء، حتى علماء الطبيعة أنفسهم، يعتقدون الآن أن التنبؤ عن طريق الأحلام أمر ممكن الحدوث.

ومهما يكن الأمر، وسواء أكانت هذه النظرية صادقة صدقاً موضوعياً أم لم تكن فمما لا شك فيه أن التنبؤ حقيقة سيكولوجية، طالما أمكن أن نستطلع المستقبل،الذي لا تراه أعيننا، بالهامنا وبطريقة شبه شعورية. فأنت قد تلتق في دنيا الواقع بشخص ما ولكنك تراه في الحلم

يمكر لك ويسيء اليك،ويرجع هذا الى أنك وأن كنت تعتبره لا بأس به فان حدسك والهامك وفطنتك يتلمس فيه الماكر الخداع. ونحن نعرف هذا الحدس بأنه استنتاج شبه شعوري، أي استنتاج مستمد من دلالات خفيفة عابرة لا ندركها أدراكاً شعورياً. وأمثال هذه الاستنتاجات كثيراً ما تكون مقبولة تماماً وقد تهيء لناأحكاماً وآراء في الناس والحوادث تفوق في دقتها ملاحظتنا الشعورية واستدلالنا العقلي.

إن الحلم الذي يفصح عن عمل منطقة شبه الشعور في العقل قد يعطينا بصيرة نافذة ندرك بها أخلاق الناس أو اتجاه الأحداث فيتحقق صدقها فيما بعد، وعلى أي حال فليست هذه العملية بالأمر الشاذ غير المألوف:فقد ينبئك بعض الناس بأن الطقس سيكون جميلاً دون ان يستطيعوا تعليل نبؤتهم هذه أو يبينوا كيف علموا هم بها، ولكنها الدلالات الصغيرة العابرة التي سجلوها من خبراتهم السابقة فيستقرئون معانيها بطريقة شبه شعورية. ولعل ما مر بيوسف عندما أتى الى مصر غريباً جعله يدرك عبر السنين ما لم يتهيأ لأهل البلاد إدراكه- ألا وهو أن السنين تدور بين حصاد طيب في آن وحصاد رديء في المقابل.

وعلى هذا، يمكن القول بأن الالهام ومن بعدها الاحلام يمكن أن تعطينا أنذار بما يجري في نفوسنا. فقد يشعر رجل بمنتهى الثقة بنفسه في عمله في حالة اليقظة ولكنه يحلم بالفشل في هذا العمل في نومه وعندئذ يخدع نفسه بأن الاحلام تفسر على نقيض فحواها على الدوام. ثم لا يلبث فيما بعد أن يخفق في عمله دون أن يتوقع ذلك، وبهذا تعتبر الرؤيا التي أرتآها من النوع التنبؤي،وهي كذلك حقاً،بمعنى أن الهامه كان يلفت نظره محذراً بأنه قد أسرف في الثقة بنفسه، وهو أمر يصح أن أصدقاءه صارحوه به، وأن هذا الاسراف أعمى بصيرته عن نواحي النقص فيه. وواقع الامر أن فرط وثوقه بنفسه لم يكن إلا ستاراً يخفي وراءه نقصه بل وأفراطه في التعويض عن هذا النقص. ولعل أحساسه بهذا القصور وما يصاحبه من غرور التعويض كانت هي العوامل الفعالة في انحطاط مستواه.فالحلم يطلعه على حقيقة أمره ومن ثم يبين له أنه لو أسترسل في هذا الاتجاه المفرط في الثقة فانه لا محالة فاشل، وهذا هو ما حدث تماماً.وحقيقة الامر أنه سقط لا لأنه حلم بهذا السقوط، ولكنه حلم بالسقوط، لأن الهامه انبأه بأن الافراط في الثقة في نفسه سوف يقوده الى كارثة لا محالة. فالحلم كان تنبؤياً من حيث كان نذيراً، ولكنه كان تنبؤياً من وجهة النظر النفسية لا من الناحية الموضوعية.

ثم أننا نجد من ناحية أخرى أن يوسف الذي رأى في منامه ربطات الحصاد التي لأخوته تنحني لربطته، وهو الحلم الذي تحقق عندما تبوأ مركز الصدارة في مصر، كان حلمه هذا تعبيراً

عن أحساسه احساساً شبه شعوري بالطموح الى العظمة، وهو أمر كان مركزه المتخلف به عن غيره في الاسرة يحول بينه وبين التعبير عنه تعبيراً صريحاً، هذا الحلم أيضاً كان تنبؤياً ولكن تحققه لم يأت من الحلم ولا من توقع الحوادث توقعاً موضوعياً، وإنما كان أمراًترتب على طموحه الكامن.

اما أحلام المرض العضوي التي سبقت الاشارة اليها فانها تضع أمامنا أمثلة واضحة للأحلام التي تبدو لنا أحلاماً تنبؤية، وإن كانت في حقيقتها أستنتاجاً شبه شعوري من أحساسات حاضرة.

ومن الحالات المثيرة للدهشة في هذا النوع حالة مريض حلم في مناسبات متعددة أنه أصيب بشلل في ذراعه وفمه أوقفهما عن العمل، ولم تنقض على حلمه هذا شهور قليلة حتى أصيبت فعلاً بالشلل بينما كان يصلح مذياعه وأصبح يعاني شللاً جزئياً.فهل كان حلمه تنبؤياً لتلك الصدمة؟ كلا! لقد كان ناشئاً عن أنسداد شرياني سببه زهري وراثي. أنه لا شك قد تعرض في مناسبات سابقة لاصابات خفيفة عابرة أثناء نومه كانت السبب في وقوع الحلم له، ثم لم يلبث أن تعرض آخر الأمر لانقباض شرياني خطير في حالة صحوه وبقي على عجزه زمناً طويلاً حتى شفي تماماً.

إن كافة النظريات التي تناولت ظاهرة الحدس المتنبئ في القديم كانت تعجز عجزاً كاملاً عن أن تحدد لنا اي تأثير لدوافع أخرى غير رغبة العقل في أن يتبين شيئاً يفهمه من مثيرات لا معنى لها، ولا تقيم قائم.

كما أننا لا نستطيع القول بأن النتائج التي نتوصل اليها في الحلم تكون بالضرورة في جانب الصواب، فما يتفق مع التفكير السليم القول بأن الاحلام اذا كانت تحاول حل المشكلات،فهي تتغير دائماً مجربة حلاً بعد الآخر، ومن ثم فهي بحاجة بعد ذلك الى أخضاعها لحكم العقل والاستدلال والبرهان المنطقي.ان انيشتاين،على حد قوله، لم يكن يستطيع الاستغناء عن أسلوب الحدس في كشوفه العظيمة، ولكن هذا لم يمنعه من أخضاع هذه الكشوف للتجريب والبرهان المنطقي.

ولنضرب على هذا مثلاً أكثر تواضعاً، قد تكون المرأة،التي تعتمد في حبها أو كراهيتها للرجال على أحكامها الحدسية، مخطئة كل الخطأ بسبب شعورها بالتحامل الناشئ عن تجربة سابقة مرت بها وأثارت لديها في حينها انفعالات لا صلة لها بالموقف الحاضر. فلعل رجلاً أدكن الشعر ذا شارب خيب آمالها ذات مرة حتى كرهت هذا الطراز من الرجال، في حين أن

الكثيرين من الرجال الذين تتوفر فيهم هذه الصفات قد يكونون جديرين تماماً بالأعجاب.

هذا الى أن الخطباء، وأهل السياسة منهم خاصة، يعمدون في كثير من الاحيان الى هذه الطريقة قصد تضليل السامعين، ذلك بأنهم حين يرغبون في تأكيد نقطة يحف بها الشك، وتعوزهم بصددها الحجة المنطقية، نراهم يلجأون الىأسلوب التشبيه بغية التغرير بالناس،وهذا هو فن أفاقي السياسة، وهو لسوء الحظ من يحظى في كثير من الاحيان بالنجاح،وهذا النجاح إنما يبرهن على الرأي الذي يقول أن الفرد في الجمهرة يفتقد قدرته على التفكير والنقد،ويتعطل لديه عمل اللحاء، وينفسح المجال امام المناطق الانفعالية دون اللحائية في المخ فتسيطر على الموقف. وكل حجة تبرز تحت هذه الظروف تستند الى دعامة الانفعالات والاستهواء أكثر مما تستند الى العقل والتفكير السليم. حتى اذا أعمل المستمعون تفكيرهم بدأوا (يحسون) أن ثمة شيئاً خاطئاً في الحجة المقدمة لهم، ولكن المنطق وحده هو الذي يستطيع الكشف عن موضع المغالطة والتشويش.

قوة الاستدلال ذاتية الحركة

أول من استعمل اصطلاح (ذاتية الحركة) في علم النفس هو العالم النفساني المشهور بيير جانيه في كتاب معروف بعنوان السيكولوجية الذاتية الحركة.

فهو يرى أن الانسان يتصرف في اليقظة تصرف الآلات،دون وعي، في هذه الاعمال التي نسميها أعمالاً عادية، دون أن نخطئ.فالخادم يصعد السلم ليلاً في الظلام وهو يحمل أدوات الطعام دون أن تقع منه، لأن رجليه قد حفظت المنحنيات والمنعطفات، فليس من الغريب أن ينهض خادم الفيلسوف جسندي يحمل على رأسه صينية مملوءة بالقوارير والزجاجات، ويرتقي درجاً ضيقاً،ويتفادى الاصطدام بأي عقبة في الطريق، حتى يبلغ الغرفة العليا، كل ذلك في الظلام وهو نائم.

وفي رأي لعالم النفس وليم ماكدوغال في كتاب (علم النفس الشاذ) ان ظاهرة الافعال ذاتية الحركة التي تحدث من الانسان في يقظته، وتلك التي تحدث منه في نومه كالكتابة والجولان من جوهر واحد، وهي صور مختلفة للأفعال ذاتية الحركة.

ومن الاشياءالتي تحدث للانسان، الكتابة في أثناء النوم، ويقال أن الشاعر الانكليزي كولردج الف قصيدة من الشعر تسمى (قبلان خان) سنة ١٧٩٧ وهو يقول أنه رأى القصيدة في الحلم، فلما استيقظ دونها، وذلك عقب قراءته وصف قصر قبلان خان حاكم الصين وحفيده جنكيز خان، فيما يرى بعض النقاد أن كولردج كان تحت تأثير المخدر الذي كان يتعاطاه.

لقد كان الرأي إلى عقود قليلة مضت أن النوم هو الوقت الذي يرتاح فيه الدماغ. ولكن العلماء اليوم يعلمون أن دماغ النائم نشط نشاط دماغ المستيقظ، وأنه في أوقات معينة من فترة النوم يكون في قمة النشاط عاملاً على ترتيب المعلومات وأعدادها.

ومن الواضح لنا أن اليد اذا كتبت، وجرت بالقلم على الورق، فإنما تفعل ذلك بناء على

الفكر الذي يملأ الذهن، ويكون قد نضج.وفي بعض الاحيان يكون التفكير عن وعي، وفي بعض الاحيان الاخرى يصدر من غير وعي.فنحن قد نفكر في حل تمرين هندسة ونحن نائمون،ونستيقظ لنجد الحل جاهزاً. وقد نمسك بالقلم ونخطط به على ورقة بيضاء،ونشعر بما نكتب عابثين.وفي بعض الأحيان تتحرك اليد وهي ممسكة بالقلم وتخط رسوماً أو تكتب عبارات ندهش بعد كتابتها.وفي بعض الاحيان يشعر المرء بما يكتب، ولكنه لا يعرف ماذايكتب بعد ذلك، وكيف يتم القصة، كأن يده هي الحالة التي تسوقه لا دماغه.

ومن الحالات الغريبة أن يقوم الشخص بعمل معين يشعر به، كأن يقرأ في كتاب مثلاً. ويترك يده تكتب بالقلم ما تشاء.وهذا دليل على أنحلال الشخصية،وعلى أن اللاشعور يتحرك. حكى أحد الاطباء النفسانيين أن مريضاً جاء إليه يشكو من وسوسة النظافة، وأنه يغسل يديه بأستمرار، فعالجه بطريقة (الكتابة ذاتية الحركة)، أي علمه أن يكتب بيده، ثم سأله عن سبب هذه الوسوسة، وأخذت يده تكتب قصة قديمة عن حياته حين كان في العاشرة من عمره، وكان عنده كلب يحبه حباًجماً. وذات يوم وقع الكلب في مجرور مياه آسنة وكاد أن يغرق.فدعا الغلام صديقاً له أمسكه من رجليه. ومد يديه وأنقذ الكلب من ذلك المكان القذر، بعد أن تلوثت ملابسه وجسمه. فلما عاد ضربه أبوه، وأخافه قائلاً له أنه بهذا العمل قد تعرض لكثير من الامراض. ومنذ ذلك الحين وهو يغسل يديه، ونشأت عنده عادة الوسوسة والنظافة.

في أعداد مجلة أعمال جمعية البحث الروحي التي يتغنى بها الكثير ممن يؤمنون بتقمص الارواح ومخاطبة الموتى نرى مواضيع الكتابة تتعلق بـ(الكتابة الروحية)، ربما كان هذا القارئ او ذلك لا يدري ما هي الكتابة الروحية، فعلينا أن نوضح أنها تتكون من أولئك الذين يزعمون أنهم يجلسون إلى منضدة، ويضعون كوباً يحركونه بينهم،وكل واحد منهم يكتب حرفاً أو كلمة، وتخرج من جملة كتابتهم الجمعية أجابات عن أسئلة معينة يعتقدون أن الروح هي التي تمليها. الواقع أنه ضرب من الكتابة.ذاتية الحركة تتم بصورة جمعية لا شعورية، ولذلك لا بد أن تكون الجماعةمؤتلفةفيما بينها، أي اذا دخل بينها شخص غير مؤمن بما يفعلون، لا تفلح الجلسة.واذا فحصت هؤلاء القوم الذين يقال عنهم روحانيين، ويمارسون لعبة المنضدة، رأيت أنهم يمشون في نومهم أو يكتبون، وأنهم من الذين يسهل تنويمهم مغناطيسياً.

يذكر ماكدوغال في كتابه علم النفس الشاذ هذه الحادثة. • وجد رجل في شبابه كان يشتغل سمساراً في البورصة، ويعيش معيشة أجتماعية عادية ويمارس الألعاب الرياضية، وكانت

أذواقه تشبه ما يجري بين أهل طبقته، ولم تكن عنده أي ميول أدبية، ولم يكن يحفل بالشعر الذي كان ينظر اليه على أنه عمل يليق بالنساء لا الرجال.وكان من عادته أن يظل راقداً بين اليقظة والنوم قبل أن ينهض من فراشه في الصباح.فلاحظ أنه وهو في تلك الحالة من اليقظة النائمة تفد على ذهنه أبيات خيل اليه أنه شعر. وراق له أن يدونها على الورق، وتبين أنها مؤتلفة متسلسلة تشبه ما يقرؤه من المنظوم،وعندئذ أرسل بعض هذا الشعر الذي دونه في هذه الحالة اللاشعورية الى احدى المجلات التي قبلت أن تنشره. وفي الوقت الذي كان يروى لي فيه هذه الوقائع (والحكاية على لسان ماكدوغال) كان كثير من قصائده التي نظمها في تلك الحالة قد نشر في كثير من المجلات المشهورة،وتناول عليهاأجراً. وقد كانت تلك القصائد جيدة السبك رفيعة الأسلوب، تنحو نحو المذهب الرومانسي.ومن غرائب هذا التأليف أن أبيات القصيدة بتمامها تفد على ذهنه ويشعر بها، ولكنها غير مرتبة اذ تكون أبياتها مختلطة، فيرتبها وهو في حالة اليقظة دون أي تغيير آخر.

إن الكثير من المعضلات العلمية قد تسنى حلها على هذاالنحو، وأن بعض الكشوف العلمية العظيمة قد دانت لأصحابها في أحلامهم، وأن هذه الطريقة يلجأ اليها العلماء قاصدين عندما تواجههم صعوبة ما.

ومن بين الأمثلة الكثيرة الشاهدة على ذلك تلك القصة الشائعة التي تقول بأن العالم الالماني (كيكوليه) عثر بطريق الصدفة على فكرة (حلقة البنزين)-تصور للتركيب الذري للبنزين،وهو مادة طيارة لا لون لها وقابلة للإشتعال، تشتق من قار الفحم، وتستخدم كمذيب للمواد الراتينجية- وهي فكرة أحدثت انقلاباً في الكيمياء العضوية.

ويورد (بفردج) في كتابه (فن التحقيق العلمي) على لسانه كيكوليه هذه القصة:

كنت جالساً أكتب مؤلفي في الكيمياء،ولكن الأمور لم تكون تجري حسبما ينبغي.. ولذا درت بمقعدي لأواجه المدفأة وأسلمت نفسي لغفوة خفيفة كنت خلالها بين النائم واليقظان. فرأيت كأن الذرات تتطاير أمام ناظري، لقد كانت تتلوى وتدور حول نفسها كالحيات.. ثم أنظر ما هذا؟ إن أحد تلك الحيات استدارت وقبضت ذيلها.. وسرعان ما دارت الصورة ساحرة أمام عيني.. ثم كأن ومضة من برق أيقظتني من سباتي، فقضيت ما تبقى من ليلتي أفكر في مختلف احتمالات هذا الفرض..أيها السادة: دعونا نتعلم كيف نحلم.

وفي هذه الحالة،كما هو الشأن في الأحلام، يتعلق الامر بحل مشكلة معقدة حلاً آلياً عن طريق عمليات تمت في مستوى دون الشعوري. وقد تسنى هذا،كما هو الحال في الأحلام،

باستخدام الرموز، لا عن طريق الاستدلال المنطقي الذي ثبت في الواقع غير جدارته هنا.

وهناك الكثير من الامثلة لكشوف علمية تيسرت بفضل ومضات البصيرة. فمن ذلك أن البروفيسور أوتوليفي، أستاذ علم العقاقير، أستيقظ ذات ليلة وفي رأسه فكرة باهرة عن التوسط الكيميائي واثره في السيالات العصبية.فعمد على التوالي تدوين الفكرة.وفي الصباح كان ذعره بالغاً عندما وجد نفسه عاجزاً عن فك رموزها. ومن حسن الحظ أنه في الليلةالتالية صحا من نومه على ومضة البصيرة نفسها،ولكنه أحتاط هذه المرة فلم يجازف بشيء، ولكن هذه الومضات لا تترك هكذا رهناً للصدف والظروف، وانما يعمد اليها بعض العلماء قاصدين، حيث يسلمون أنفسهم لحالة أسترخاء،سواء فعلوا ذلك وقت أنشغال عقولهم بالمشكلات التي يبحثونها، أو بعد أن يكونوا قد صرفوها من رؤوسهم،وعندها تتهيأ لهم هذه الومضات من هذا الشأن.

ان (بفدرج) يرى أننا في سعينا وراء الافكار المبتكرة الأصيلة، يكون من المجدي لنا أحياناً أن ننبذ التفكير الموجه المضبوط وأن نطلق سراح خيالنا كي يمرح منطلقاً في أحلام اليقظة. كما يذكر (كانون) طبيب الأمراض العصبية الشهير، أنه كان معتاداً منذ شبابه على أن يستلهم فطنته فيأتيه العون فجأة وعلى غير انتظار، وأنه كثيراً ما كان يذهب للنوم وعقله منشغل بالتفكير في شكل ما، ثم يصحو في صباحه وقد أصبح الحل في متناول يده. ويقول في ذلك (لقد أصبح من المألوف لدى أن أركن الى العمليات اللاشعورية واثقاً من أنها ستسدى الى خدمة ما) فكان من ثم يستخدم النوم في حل مشكلاته المستعصية.

* * *

يطلق اسم الجولان النومي، أو المشي أثناء النوم على الشخص في حالة نومه المغناطيسي أو الطبيعي، بمعنى أنه يأتي أفعالاً وهو نائم، سواء أكانت هذه الأفعال حركات كالمشي أو كلاماً، أي أن النائم يتجول ويتحرك، فاذا استيقظ لا يدري ماذا كان يفعل وهو نائم.

والجولان على صورتين، أما هرب، وأما مجرد حركة في أثناء النوم.وهذه الظاهرة شائعة،وكلنا شاهدها، على الأقل ملاحظة حديث النائم بصوت عال، وبخاصة الصبيان حتى سن الشباب. وأقل من ذلك حدوثا قيام النائم من سريره وتجوله في الدار، ثم عودته الى السرير بعد ذلك. ويبدو أن حديث النائم يكون أصرح منه وهو في حالة اليقظة.وقد روى المشتغلون بهذا الفن النفساني كثيراً من الروايات عن أشخاص كانوا ينهضون من فراشهم، ويأتون كثيراً من الأعمال المحيرة.

إن مانراه من أعمال شكسبير يحمل الكثير من طابع الجولان النومي. فمثلاً في مأساة ماكبث التي صور فيها الليدي ماكبث تطمع في الملك،فتحث زوجها على قتل الملك دنكان، وعلى قتل رفيقه بانكو.ويظهر شبح بانكو في مأدبة عظيمة ولا يراه إلا ماكبث.. أما الليدي ماكبث فيثقل عليها ضميرها، وتمشي في أثناء نومها متجولة، وتغسل يديها من آثار الدماء التي تتوهمها.

ويرى هادفيلد أن الذي يمشي وهو نائم يحلم، فإذا كنا في أحلامنا العادية نتخيل أنفسنا نتصرف بأساليب معينة، فإننا في هذه الحالة نتخذ خطوة عملية فعلية نحو ما يشغلنا.ويفصح تحليل حالات المشي في النوم عن أن الحالم يعالج مشكلة معينة ويحاول أن يجد لها حلاً

مثال على ذلك أن طفلة توعدها أبوها ذات مرة بشر مستطير، وقد احست بأن عليها أن تهرب من هذا الموقف غير المحتمل، ولماكانت مجرد طفلة لا تستطيع الهرب فلم يكن أمامها من سبيل إلاأن تكتب الرغبة التي راودتها.ولذلك نجدها في نومها لا تحلم بالهرب فقط، ولكنها تنهض بالفعل وتهبط الدرج لتفر، وذلك لأن حاجتها الى هذاالفرار كانت ملحةعاجلة. ثم أنها تجد حائطاً يعترض طريقها فتستيقظ من نومها دون أن تدرك ما وقع منها ولا السبب في أنهاوجدت نفسها حيث كانت. ولم يخفف من وقع الموقف أن والدها كان يقف على الدوام بجوارها في هذه الحالات ليعود بها الى فراشها.

أما ماكدوغال فيروي القصة التالية:

كان جندي يعمل في جبهة القتال ينقل الرسائل من مكان إلى آخر راكباً دراجة بخارية. وذات يوم وجد نفسه بعد عدة ساعات يمشي بدراجته في شوارع مدينة على ساحل البحر تبتعد عن جبهة القتال مائتي ميل. فإمتلات نفسه دهشة، وخشي الاتهام بالهرب من الجيش، فسلم نفسه للبوليس الحربي،ولم يستطع أن يفسر كيف أنتقل من الجبهة إلى الميناء البعيد.وبعد أن مكث في عدة مستشفيات،جاء تحت رعايتي. ولم تظهر عليه أي أعراض سوى هذا النسيان الخاص بهذه الفترة القصيرة مع شعور بالإنقباض والكآبة، وهو شيء طبيعي ينشأ من الظروف التي أحاطت بشخص في مثل ماضيه ومركزه ومسؤوليته. ولما لم تفلح معه طريقة الحديث عن اليقظة للتغلب على ذلك النسيان، فقد لجأت إلى التنويم المغناطيسي، فتذكر كيف أنفجرت قنبلة على مقربة منه فطرحته أرضا، ثم نهض، وركب دراجته وتوجه الى الميناء، مستدلاً بالعلامات الموجودة في الطريق، وبالسؤال،وهكذا اتضح أنه كان مسوقاً بالخوف الذي أتخذ هيئة الرغبة في الابتعاد عن منطقة الخطر.

وهذه قصة أخرى توضح الفرق بين الهرب اللاشعوري في النوم وبين الجولان.

أرسل جندي الى المستشفى عقب أن فقدوعيه في أنفجار قنبلة.وكشف عليه الطبيب، فلم يجد به أعراضاً مرضية، وكاد أن يكتب أمراً بعودته الى ميدان القتال، لولاً أن زملاءه في العنبر جاءوا يشكون أنه يتجول وهو نائم. وراقب الطبيب حالته، ووجد أنه ينهض كل ليلة عدة مرات، ويتوجه الى جانب سرير الشاويش الموجود في العنبر، ويظل واقفاً هناك حتى يقاد الى فراشه مرة ثانية، ولم يستطع الجندي تعليل هذه الظاهرة. وأستطاع في أثناء التنويم المغناطيسي أن يعيد وصف الحادثة التي وقعت له، فقد أنفجرت قنبلة فقتلت عدة جنود وجرحت البعض الاخر، وجرى صاحبنا الى الشاويش ليبلغه ما وقع، وبينما هو في طريقه اليه أنفجرت قنبلة أخرى افقدته وعيه. وكان في الجولان يعيد تمثيل هذا المنظر الذي أنحلت الذاكرة الخاصة به.

وبدأت سيدة متزوجة تسير وهي نائمة في حياتها الراشدة. وحدث لها ذلك في أول مرة عندما كان أبوها مريضاً مرضاًخطيراً، وكان عليها من وقت الى آخر أن تعوده في أثناء الليل لتطمئن على راحته. ثم توفي الرجل ولكنها أستمرت في عادتهاحتىأصبحت تسير وهي نائمة. أن مشكلتها تقتصر على كونها مجرد أمتداد لماأعتادته من رعاية الأب المريض،ولكنها كانت تدل على وجود صراع في عقلها. فهي من ناحية لم تكن راغبة في فقدان والدها، ولكنها من ناحية أخرى كانت تعلم بأن وفاته معناها أنتهاء متاعب زوجها المالية.ومن ثم كانت بعض دوافعها تحثها على أن ترعاه وهو سقيم، والبعض الاخر يحثها على أن تذهب لترى أنه قد قضى نحبه!

كما كان أحد طلاب الموسيقى ينهض ليلاً وهو نائم، فيكتب (النوتة)، ويصحح كثيراً من الاخطاء، ثم يعود بعد ذلك الى سريره.

والقصص عن الجولان النومي كثيرة منها أن شخصاً نهض من فراشه، وخرج من النافذة، ومشى على كورنيش الدار من الخارج، وتجمع الناس في الشارع يحبسون أنفاسهم خشية وقوعه، وظل النائم يمشي على الكورنيش مغمض العينين،حتى دار حول المنزل، وعاد الى النافذة، ودخل منها، وعاد الى سريره، فلما أستيقظ لم يذكر شيئاً مما حدث.

ويروي الدكتور أحمد فؤاد الاهواني في كتابه النوم والارق قصتين من هذا القبيل.

يقول في القصة الاولى (حدثتني أم أن أبنتها الصغيرة البالغة من العمر أربع سنوات قد أصابها مس من الجنون، أو الشيطان فهي ترقد الى جوارها، وفجأة أستيقظت البنت وأخذت تضرب أمها بيديها، ثم عادت الى نومها وأستغرقت فيه وذهلت الام للمفاجأة، ولم تستطع

تعليل هذه الظاهرة، فالبنت صغيرة السن، فضلاً عن ذهاب وعيها في النوم.قلت للأم: هل ضربت أبنتك في أثناء النهار؟ قالت:نعم، انها كثيرة الشقاوة، ولا تسمع الكلام،فقلت للأم:إليك البيان، وهذا هو التفسير لسلوك ابنتك.من الطبيعي أن يسعى المرء على رد العدوان عن نفسه، وبخاصة اذا شعر أن العدوان كان ظلماً، ولم تفعل أبنتك شيئاً يستحق الضرب، لأن الشقاوة أمر طبيعي في الاطفال،وقد حاولت الطفلة أن ترد عدوانك في حينه ولم تستطع لأنه أقوى منها، وأستمرت رغبتها في الانتقام موجودة في نفسها، وتذكرت الموقف في أثناء النوم، فقامت وأخذت تكيل لك الضربات حتى شفت غليلها، ثم عادت الى رقادها.واذا شئت الا تتكرر هذه الظاهرة،فعليك بالامتناع عن ضرب أبنتك بتاتاً، وليس الضرب سبيلاً الى التربية الصحيحة).

أما الحادثة الثانية التي يرويها الدكتور الاهواني فهي (جاءني شخص يصحب ابنه البالغ من العمر أحدى عشرة سنة، وهو طالب في المدارس الابتدائية. أما الأب فرجل رقيق الحال،يشتغل موظفاً بسيطاً في الحكومة،وهو يسكن في حجرتين في الدور الخامس بمنزل في حي العباسية، ذات ليلة، حول الساعة الحادية عشرة مساء، رأى البقال المجاور للمنزل هذاالصبي يمشي في الطريق، وهو يلبس الجلباب،فنادى عليه فلم يجب النداء، فجرى وراءه حتى أمسك به، وكانت دهشته عظيمة حين وجد الصبي نائماً فأيقظه، وأعاده الى المنزل، وأعتقد الاب أن أبنه قد أصيب بنوبة من نوبات الجنون، وجاء يلتمس مني النصيحة.قلت للأب: أتضرب أبنك: نعم، أنه لا يستذكر دروسه،كما يهرب من المدرسة. وعلمت أن الرجل قد توفت زوجته وهي أم الولد،وتزوج غيرها. وفسرت للرجل علة قيام أبنه ليلاً،وخروجه من البيت،فهذا دليل على سلوك بغير وعي، أو في هيئة هذا الجولان النومي).

إن مشي الأطفال في نومهم ظاهرة يجب أن نحملها محمل الجد حيث أنها تصور على الدوام مشكلة أو صعوبة تواجه الطفل،وهذا هو اللاشعور الذي ينشط فيحرك الانسان في نومه، ويتخذ مرة صورة الأحلام، ومرة أخرى صورة الجولان النومي.

ويبدو أن الانطباعات الحسية التي تنهال على عقولنا، ونتاج عملية ادراكنا، وتراكم خبراتنا المستمر،كل ذلك يجب أن يختزن في الذاكرة بشكل ما اذا كنا نريد أن نتذكرها بسرعة عندما نشعر بحاجة لها. والذاكرة أكثر من مجرد منحنى من أكثر مناحي النشاط العقلي الإنساني اثارة، فهي بوصفها ممهدة وضرورية للتفكير السليم والمنطقي يحتاجها الانسان في سلوكه الذكي، وتعتمد عليها قدرته على حل المشكلات أو حتى أدراك وجودها. ويبدون

الذاكرة يضطر بنو الانسان الى الانفعال بكل حادثة تعرضهم لها، كلما تكررت كما لو تحدث من قبل.فمثلاً، لو حرم الانسان من ذاكرته وقاد سيارته بفرض أنه يستطيع ذلك، فان عليه في كل مرة يصل الى تقاطع فيه أشارات مرور مضيئة باللون الاحمر أن يتعلم من جديد ماذا يعمل، كأن يلاحظ سلوك السائقين الآخرين والمشاة الذين يعبرون الشارع ويستنتج من ذلك أن السلوك المناسب هو أن يوقف سيارته،ويتكرر ذلك عند التقاطع التالي. وعلى هذا فان ادراك كل ضوء أحمر في اشارات المرور يكون، في غياب الذاكرة الكاملة، تجربة جديدة كلياً.

وقد أمضى وليم جيمس ذات مرة في محاولة لاكتشاف ما اذا كانت الذاكرة تتحسن بالمران والتدريب، ثمانية أيام متتابعة يستظهر مقطوعة من أحد مؤلفات فيكتور هيغو مكونة من ١٥٨ سطراً، وسجل الوقت الذي أستغرقه ذلك منه،ثم أمضى أكثر من خمسة أسابيع يستظهر شعر ميلتون. وبعد ذلك أعتبر نفسه مستعداً للجزء الهام من التجربة وهو تقرير ما اذا كانت حدة ذاكرته قد زادت نتيجة ما قام به من تدريب للذاكرة، بحيث يمكنه أستظهار مقطوعات من فكتور هيغو بسرعة أكبر من السابق؟وكان قد أستظهر في المرة الاولى ١٥٨ سطراً بمعدل ٥٠ ثانية للسطر الواحد. ولكنه في المرة الثانية قام باستظهار ١٥٨ سطراً من مؤلف آخر لفيكتور هيغو، فوجد أن عملية الاستظهار، بدلاً من أن تكون أسرع، كانت أبطأ من المرة الأولى بمعدل ٧ ثوان للسطر الواحد. وعلى ذلك أستنتج جيمس أن التمرينات لا تحسن الذاكرة كماتحسن التمرينات الجسدية الاداء الجسماني، وكذلك أستنتج أن البطء في الاستظهار في المرة الثانية كان بسبب الاجهاد أو التعب العقلي.

ظاهرة الطبيعة الفائقة

الطبيعة تمثل لنا لغزاً محيراً، استطاع العلماء في السنوات الماضية ازالة الكثير من اللبس مما كان يعتور وصفها، فيما بقيت أشياء أخرى لم تزل بعيدة عن تفسيرنا.

واذا تأخرنا عن معرفة (سر) أو (كنه) هذه الطبيعة، فذلك لأن بحوث سبقت أبحاث في هذا العلم أو ذاك، فحصل نوع من التخلخل في معرفة هذا السر أو ذاك.ولنضرب مثلاً على ذلك بالفضاء الخارجي، فإن التركيز على أبحاث الفضاء من قبل الاتحاد السوفيتي فتح آفاقاً واسعة لغزو هذا المجهول من تصورنا للكواكب الاخرى، بيد أن جهود العلماء والاموال الطائلة التي صرفت على مثل هذه المشاريع، أعاقت، مثلاً،القضاء على مرض الايدز، أو التسريع في القضاء على النقص في عدة أمور يحتاجها الانسان العادي.. الخ.

ومع ذلك سنورد رأي (ليال واتسون) في أمور الطبيعة الفائقة ونظرته لها ومن ثم نعقب برأينا.

يقول (واتسون) أن العقبة الكبرى أمام القبول العلمي بالظواهر غير الاعتيادية تعود الى طبيعتها البعيدة عن التناول، والى هذا الطابع الناجم عن الباراسيكولوجي،الاكثر صراحة من كل المقاربات الحالية، وذات السمعة الاقل سوءاً، وهي علم غير ناضج، خال من المبادئ الاساسية،والاكتشافات الثابتة، وغير الجدير أيضاً بتأدية الاختبارات. وبفعل فشل التجارب المختبرية، فان العلماء يقولون أن الطبيعة الفائقة هي سخافة، ولكن بالنسبة لواتسون وغيره من الاشخاص المنخرطين في الباراسيكولوجي، اي خارج جدران المختبرات، فمن الصعب أنكار حقيقة اختبار الطبيعة الفائقة،حتى ولو كان لا يتبع القاعدة العادية.

إن غير العادي أمر شائع في الكثير من الثقافات، ويعتقد واتسون أن ثمة شيئاً يستحق عناء البحث عنه. وقد شارك جميع الذين حاولوا علمياً تطويق التخاطر وأختبر نص الفشل نفسه الذي أختبروه هم باكتشافه الى اي حد تبدو هذه الظواهر غريبة جداً في متناول اليد، وهويفهم

خيبة أملهم، لكنه يعترف بأن شيئاً لم يحصل من خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة يمكن أن يغير أعتقاده. كما يعتقد واتسون أن الطبيعة الفائقة تحتاج الى دراسة جديدة، وأكثر عناية، وبنظرة متجددة، وببحث متعدد الثقافات لكل ما هو شبه عادي. ومثل هذه العملية الواسعة تحتاج أيضاً الى تمويل مناسب، وتهدف الى أعادة أحصاء وفهرسة وتصنيف كل الظواهر غير العادية، وعلى مستوى دولي شامل.

ويأسف هذا الكاتب لعدم وجود هذه الامكانات،وهذا العمل لا يمثل سوى محاولة، شخصية، لطرح معنى لكل ما رآه وسمعه على مدى السنوات الاخيرة، ولاعطائه تحديدات وأوصافاً بأكثر دقة ممكنة، وهو يعتقد بأن هذا الجهد ضروري لأنه ما زال علىأقتناع بأن هناك ظواهر تحصل حولنا لا يمكن تكييفها بسهولة مع قوالب معدة في السابق.

ويضيف قائلاً (على الرغم من مماحكات اللجان التي تعمل من أجل أزالة الفضول، فأنا أستمر في تعقب الاشباح حتى حدود الادراك، وأصر على جذب الانتباه إلى لا معقولية التاريخ الطبيعي، ليس لأن هذه اللامعقولية تعني شيئاً في حد ذاتها، ولكن لأنها يمكن أن تؤدي الى فهم أفضل لغير الاعتيادي بفضل التحليل الجديد بروح أكثر تقبلاً).

ويذكر واتسون (الجمل) مثالاً فيقول: بوصفه حصاناً ترسمه مجموعة، أو حيواناً يملك ميزة خبيثة، ورائحة كريهة، فان الجمل يتكيف تماماً مع محيطه، بأرجله الكبيرة المسطحة التي تناسب الرمال كما الثلج وبجيوبه المعدية المتنوعة التي يختزن فيها الماء، وبحدباته الزاخرة بمخزونات الطاقة، وبمشفريه القاسيين اللذين يتيحان له أخذ نصيبه من الادغال الاكثر شوكاً، وبعينيه المحميتين بأهداب طويلة من الجزيئات التي تحملها الرياح، وهذا المخلوق الضخم هو الافضل تسليحاً في العالم لكي يتعود على الصحاري،ولكن الاكثر غرابة في ملامحه الفريدة هو عنصر قلمايعر أهمية يتمثل في تمتع الجمل بركبتين متميزتين.فحين يلجأ الجمل الى النوم، ما يفعله غالباً، سواء لحماية نفسه من الهواء أو لاظهار نفوره من كل شكل من أشكال العمل، هو أن يبدأ في طي ركبتيه ، قائمتاه الاماميتان تنطويان مثل ورقة مطوية علىالطريقة اليابانية، القسم الاعلى من القائمة نحو الخلف، والقسم الاسفل نحو الامام،علماً بأن قوائم الجمل في وقت الراحة تكون تحت جسمه، ومرفوعة نحو الاعلى، بحيث أن الجمل يرتاح علىطول كل القسم الداخلي من الساق. ولعل هذا ما يفسر وجود كثافة من الجلد المتصلب على مستوى هذه المفاصل الخاضعة لاحتكاك مستديم. والمثير هو أن هذه الكثافة من الجلد المتصلب ليست مكتسبة، فمواليد الجمال هي أيضاً تتميز بمثل هذه الكثافة.

إن ذلك قاد الى نظرية هامة تطرح عدداً من الافتراضات:

الافتراض الاول هو أن التغييرات لدى الكائنات الحية تنجم عن تبدلات تحصل صدفة في قلب الجهاز الوراثي.

الافتراض الثاني هو أن هذه التغييرات تخضع لضغوط التبدل الطبيعي الذي يزيل ويهمل التحولات السامة.

والافتراض الثالث هو أن هذا الارث من التغييرات النافعة يخضع لقوانين الوراثة.

وبمعنى آخر، فان جينات الركب عند الجمل، الخاضعة للتأثيرات العادية،تتعرض من وقت لآخر،بصورة أحتمالية ونادرة لوهن. إن معظم هذه التغييرات سامة لأنها تميل نحو تدمير التوازن بين الجمل وبيئته وهي تختفي، اذا،قبل أن تنطلق.

وبصورة استثنائية، ومن قبيل الصدفة، يمكن لهذا التغيير او ذاك أن يبدو مفيداً، عن طريق إضافة طبقات مثناة إضافية لمفصل سيء الحماية،ومن طريق أنتاج جمال تملك ميزة الانتخاب ومؤهلة للمقاومة، أفضل من (بنات جنسها) التي تملك ركباً طيعة.

وقد كانت هذه هي نظرية شارل داروين، التي دعمتها في ما بعد قوانين غريغور ماندل الوراثية، والمعروفة الآن تحت أسم نظرية التطور النيو-داروينية. السيناريو سهل ومعقول ومقبول بأنه هو الوحيد الذي نجده في معظم الاحيان في غالبية الكتب، على الرغم من أن أي برهان مباشر لا يدعمه ولا يفسر كل شيء.

إن الجلد المتصلب لركب الجمل هو ذو ميزات وراثية، ويمكن ملاحظتها على ركب الصغار، وقبل أن تجثو هذه على أرض صخرية.واذا كانت سماكة الجلد تحدث بعد الولادة، وتنتج عن الاحتكاكات الدائمة، فانهالا تطرح اي مشكلة، لكنها تبدأ في التكوين لدى الجنين، وبالتحديد في المكان الذي كان (أجداده الجمال) بحاجة الى حماية،وسيكون من الصعب عدم التفكير بأن هذا الجلد المتصلب يمثل جواباً على ضغط بيئوي خاص تعرض له قدامى الجمال. ومن المستحيل تصويب هذا الجواب وفق عبارات النيو-داروينية، لكن هذه النظرية ليست الاولى من نوعها، ففي عام ١٨٠٣ أي قبل نصف قرن من صدور كتاب (اصل الأنواع) لداروين، لفت أحد العلماء الطبيعين الفرنسين، جون لا مارك، الانتباه الى أن الاجناس تتغير وتتطور. ومع أقتناعه بأن تجربة الاهل ليست ضائعة حتماً ولكنها يمكن أن تؤدي فائدة مباشرة، فان لامارك كان يعتقد بأن تغييرات تدريجية مرتبطة بالحاجات الحيوية للجنس، يمكنهاأن تنتقل بحكم الوراثة.

ذلك أن (اللاماركية)، أي نظرية أنتقال الاطباع المكتسبة كانت شائعة شعبياً، وداروين نفسه وافق عليها، ولكن عند منعطف القرن، أيقظت هذه النظرية جدلاً مؤثراً من الصعب بعد سنوات عدة، أدراك عنفه،والذين كانوا يعتقدون أن التغيرات تحصل لدى الكائنات الحية جواباً ـفي قسم منها على الاقل ـ على الظروف والاختبار كانوا يصطدمون بأولئك الذي كانوا يعتبرون بأن التغييرات هي تغييرات عرضية،وتخضع لضغوط التصنيف في حال حصولها. والذين كانوا يعتقدون بأن هناك بعض الامور المختلفة نوعياً في ما يخص الكائنات الحية كانوا في صراع مع أولئك الذين يعتقدون أن كل شيء يمكن أن يتراجع الى حدود المسألة الفيزيائية أو الكيميائية.ولكن المجادلات توقفت بشكل حاد عندما أعيد أكتشاف أعمال مندل في حقل علم الوراثة. وقد قدمت هذه الاعمال لألية التصنيف الطبيعي تفسيراً رائعاً دعم النظرية الداروينية، وقد جاء أنتصار الداروينين ليفرض نفسه بقوة في حين أن أفكار لامارك باتت توصف بأنها (جاهلة خرافية) ومحظرة على كل بيولوجي جاد. وقد بقيت كذلك، لكننا نلاحظ في الوقت الحاضر علامات أحياء تحت صورة النيو ماركية.

أما في مواجهة حالات رُكب الجمل، والمشاكل التي تطرحها أمام الداروينية، فيمكننا أن نعود بالذاكرة الى ما قاله لامارك فعلاً في موضوع تأثيرت الاختبار حول التطور، فقد كتب يقول (أن تغييراً في بيئة الحيوانات يقود الى تغير في بنيانها وتنظيمها.وهذا يعني بلغة الجمل، أنه عندما تصبح المراعي صحارى وتضطر الحيوانات للبقاء في هذه الاماكن، تشعر بالحاجة الى حماية نفسها من التطرف المناخي، برداً أو حراً، وأن كل تغيير بنيوي يلبي حاجات طريقة الحياة الجديدة ـ كوسادات الجلد المتصلب مثلاً التي تسمح لها بالنوم بصورة مريحة على الارض الجافة ـ يمكن أن تكون له فرص أكبر للترسخ، والانتقال بفعل الوراثة.

إن مثل هذه الفكرة لا يمكن أن تكون قد أستوحيت من خلال الجهل والخرافات، بل أنها تبدو مليئة بالصدق، ولا تبدو أنها تتعارض مع النظرية التطورية، وفي معظم الاحيان، تسلط الضوء على وجهة نظر مختلفة، راديكاليا،من طريق أتاحة المجال لرؤية التطور كعملية تجميعية وحساسة، وليس عرضية صرفاً. واذا كان البعض مندهشاً بقوة النظرية الداروينية التي نجحت في شرح كيفية حصول عملية التغيير، وكيف تأخذ مكانها، وكيف تتعارض الاجناس، فبالامكان الاستنتاج ايضاً بأنها لا تأخذ بعين الاعتبار التطورات التي تظهر، ليس كتعقيدات متنامية فقط، وإنما كتطورات مميزة بشكل مدهش أيضاً. ومن الصعب الاعتقاد بأنه، في وقت قصير نسبياً، يمكن أن يحصل تغيير عرضي، كما يمكن أن يؤدي ـ من دون تأثير للبيئة أو إختبار الاجيال السابقة ـ الى تكون الجلد المتصلب في ركب الجمال، وتحديداً في المكان الذي تبدو فيه انها مقيدة.

اذا كانت حالة ركب الجمل تبدو بدون شك، غير ذات أهمية كبرى، في ملحمة الحياة على سطح الكرة الارضية، فإن طبيعتها تتركنا في حالة حيرة وأرتباك، غير أن هذه الحالة ليست هي الوحيدة، ولكن حيوان الهلون الذي يقف على ركبتيه غالباً، يتميز بجلد متصلب مشابه في موضعه المناسب.

كذلك الحال بالنسبة للنعامة،فهي تتميز أيضاً بكثافات جلدية بصلية في الموضع نفسه الذي تستند إليه عندما تجلس. ولدى الكائن البشري، يكون الجلد الموجود على مستوى سطح القدم أكثر كثافة، حتى قبل أن تطأ هذه القدم الارض، اي عندما يكون الكائن البشري جنيناً في أحشاء أمه. أن تغييراً عرضياً، مضافاً الى ضرورة التصنيف الطبيعي الممتد على مسافة زمنية طويلة، لا يبدو أنه تفسير كاف، وأن قسماً كبيراً من التغييرات يمكن أن تكون ناجمة عن الصدفة.

ويذهب البعض الى أن معظم الظواهر تأتي من طريق الصدفة،ولكن هذالا يعني أنها تأتي من طريق العرض، فالصدفة تبدو أنها تملك تنظيماً وسبباً خاصين بها. وبعد حياة كرسها للأبحاث الفيزيائية كتب أروين شرودينغر أنه (في قسم كبير من الحوادث والظواهر، التي أدت بانتظام إلى تكون المسلمة السببية، فإن العنصر المشترك للمنطق الملموس هو الصدفة)، وبمعنى آخر فإن الطبيعة خاضعة لقوانين الصدفة.

بيد أن هذه الفكرة كانت تقلق أنيشتاين، ولكن بعد ثلاثين عاماً من وفاته بدأنا نرى أنفسنا جزءاً من لعبة واسعة، لعبة ترتكز الى قواعد على مستوى كوني.ففي السابق، كان الحظ يعني الصدفة، الكلمة مشتقة من اللغة الفرنسية القديمة وتعني (طريقة رمي الكشاتبين) والتي تبدو أنها تنسب، أساساً، إلى لعبة (الكشاتبين)، التي تعتبر من أقدم ألعاب الصدفة.ولكن اذا أمعنا النظر في تاريخ الألعاب،يمكننا أن نرى بشكل واضح أن أي لعبة صدفة لم تكن تعتبر، في حد ذاتها، لعبة صدفةمطلقة.كل هذه الالعاب كانت محاطة بشعائر تمثل محاولات للتحكم أو التأثير في المستقبل.

وفي القرن السادس عشر توطنت مبادئ العلم الكلاسيكي واصول الشك اليوناني بما فيه الكفاية في أيطاليا من أجل التهيئة لعصر النهضة. وهكذا حقق الاستقلال الجديد أنطلاقته.وفي هذا البحر من الابحاث، بدا طبيعياً جداً أن دائرة لاعبي (بيزا) تعرض مشاكلها لأكبر رجال العلم في ذلك. فغاليليه لم ير ما يعيب في قضاء نهاراته راكعاً على بساط يفكر أمام كشاتبينه،ومن هذه التأملات ولدت الصيغ التي أخضعت الحظ، للمرة الأولى، لقوانين اللعبة.

وبعد قرن من الزمن، حوّل عالما الرياضيات الشابان في فرنسا (بليز باسكال) و (بيير فيرما) هذه الصيغ إلى قوانين احتمالية.

• • •

يقول فونتنال: هلا نعلم جيداً ـ نحن البشر ـ الى اي حد يمكن للآخرين أن يكونوا إما دجالين أو مخدوعين؟ ونحن نقول: ربما كان جهل الناس بالعلل العقلية سبباً في أيمانهم بالترياق السحري وما إليه. ففي بداية هذا القرن وقف أعضاء بعثة (شكلتن) على ظهر باخرتهم في منطقة القطب الجنوبي يراقبون غياب الشمس في الافق. وما كان أشد ذهولهم! فإنه بعدأن توارت الشمس وراء الافق عادت فظهرت مرة أخرى ثم توارت ثانية. ولم يستطع العلماء الذين رافقوا البعثة يومئذ أن يعللوا تلك الظاهرة الغريبة، ولكن العلم يستطيع تعليلها اليوم فهي أثر من آثار السراب الذي يعرفه الكثيرون.

إن في الطبيعة ألغازاً كثيرة يستطيع العلم تعليلها إلا أن فيها ألغازاً أخرى لم يتمكن أحد من حلها حتى الآن. فالعلم يؤكد لنا أن بحر الظلمات الذي لا يبتعد كثيراً عن جزائر الكناري والذي لا تزال بعض السفن تخشى الدنو منه، إنما يكتسب أسمه من سحب الغبار الذي تثيره في سمائه رياح الصحراء الكبرى. وكذلك يستطيع العلم أن يعلل لماذا تبدو حافة الشمس العليا أحياناً خضراء زاهية قبيل الغروب، ولماذا تنفجر بعض الآبار العميقة قبل حدوث الزوابع، ولماذا تجمد بعض الانهار من اسفلها ثم يتدحرج تجمدها صعوداً إلى السطح.. ولماذا.. ولماذا.. ولماذا؟

يفسر المبدأ الصحيح مجموعة كاملة من المشكلات دفعة واحدة ويقضي بضربة واحدة على مجموعة كبيرة من المزاعم والأوهام. فقد ظل الناس مدة طويلة بعد اكتشاف دوران الارض حول الشمس يعتقدون أن مدار الارض دائري، ثم أوضح كبلر أن الكواكب تدور في مدارات بيضاوية، فتصحح بهذا كثيراً من التفكير العلمي. وعلم الفلك قد يبدو بعيداً عن شؤون الرجل العادي، ولكنه أقدم العلوم ويسترعي الانتباه لضخامة أسراره. أما الاهتمام العملي لدى الناس فبالطبيعة والكيمياء لإستخدامهما في حياة الناس اليومية، وهذان العلمان أمكن نموهما بسبب المكتشفات الضخمة في الأسباب والنتائج التي تفسر ظواهر الفلك.

واذا استطردنا في ذلك نرى أن الطيران بدأ بدراسة عملية التحليق عند الطيور، والطيار يحلق كالطائر نتيجة لدراسة مبادئ التوازن في تيارات الهواء، وكانت طيارات الورق ذات أثر كبير في جمع المعلومات.

إن الجناح الآلي للطائرة يعتمد على مجموعة من مبادئ الاحتراق والكهرباء وبناء المحركات، وكذلك تولد مبدأ أشعة أكس عن الدراسة المستفيضة في أطوال الموجات، البرق يعتمد على تطبيق مبدأ الكهرباء المغناطيسية،والهاتف يعتمد على تطبيق آخر للمبدأ ذاته. فالأختراعات هي تطبيقات للمبادئ العلمية، وقد بدأت كلها بملاحظات حسية لتلازم الأسباب وما ينجم عنها.

ويفترض الناس أن أعينهم تنقل صورة دقيقة للعالم الخارجي وترسل عبر الاعصاب إلى الدماغ حيث تتبلور الصورة هناك. وتشبه العملية هذه بما يحدث في آلة التصوير، ولكن التجارب اليومية تظهر أن البصر يسهل خداعه.فمثلاً اذا وضعنا عصاً مستقيمة في الماء تبدو للعين وكأنها مكسورة. وبالطبع يصحح ذكاؤنا هذا الانطباع البصري،فنعلم أن أشعة الضوء هي التي كسرت، لا العصا، بسبب مرورها من الهواء القليل الكثافة الى الماء الأكثف. ويمكن خداع البصر بسهولة بعدة طرق.مثلاً، اذا أغلقت عينيك وضغطت عليهما بأصبعيك تحس وكأنك ترى ومضة ضوء. وبذا تكون قد خدعت عينيك والعصبين البصريين والدماغ بأن جعلتها (ترى) ضوءاً دون أن يكون هناك ضوء. كما أن الناس لا يرون دوماً بالعيون، اذ يرون رؤى واضحة ومعقدة في الاحلام والهلوسات، عن طريق تبلور الصور في الدماغ دون واسطة العيون والاعصاب.

ومن الملاحظ أننا نعرف ما فيه الكفاية عن أسباب الكهرباء لنسيطر علىنتائجها،ولكن قليلين هم الذين يجسرون على محاولة فهم علة التيار الكهربائي.ونحن وان كنا نعرف أن البوصلة تشير دائماً الى الشمال لكننا لا نعرف لماذا، ومع ذلك تستخدم السفينة البوصلة بأمان عظيم. وعبور المحيطات بالطائرة يعتمد على بوصلة من نوع خاص يعمل بدقة فوق مستوى التيارات الأرضية. ومبادئ الكيمياء قامت عليها مئات من الصناعات ابتداء من دباغة الجلود إلى الطهو، ومن الصباغة الى صناعة الزجاج، الى غير ذلك.

إن كل ذلك تم بفعل اجراء التجارب،وهذا معناه جعل علل معينة تنشط لمراقبة ما قد تتمخض عنه من النتائج. وهذه هي البذرة الأولى للمعمل العلمي.وتنفق اليوم الملايين علىمعامل البحث العلمي لتوسيع معلوماتنا على علاقة العلة بالمعلول، وعلاقة المعلول بالعلة. فنحن نسأل ذلك السؤال العميق:ما هو سبب مرض السكري؟ ومتى حصلنا على معرفة كافية بالسبب، سألنا: وماذا يكون تأثير البنسلين في علاجه؟هذا التفكير في حدود السبب والنتيجة، أو العلة والمعلول هي لباب الاستدلال كله. ولكن هناك خطراً مستمراً قائماً عند الخلط بين علاقة الزمن وعلاقة السبب.

وعلى ذلك يمكننا القول أن الثلاثية المنطقية أتت من النتيجة والقاعدة والمثل أو الحالة، وهي بهذا الترتيب تجعل من البناء المنطقي تعليلاً للحوادث وتعريف التعليل أو التفسير أنه أستنتاج حالة جزئية من نتيجة وقاعدة. والنتيجة هنا نتيجة حسية وهي بخلاف النتيجة المنطقية أوالعقلية التي هي ثمرة الاستدلال.

أن علم القرن العشرين أكثر أتضاعاً من عُلم القرن التاسع عشر وأرحب منه صدراً، فان التقدم العلمي العجيب في القرن الماضي وما أحدثه في حياة الانسان من تحول وأنقلاب لم يمهد لهمامثيل في التاريخ، كان من جرائه أن أصيب العلم بنشوة زادته زهواً بنجاحه وأعتداداً بمقدرته، وذهب العلماء حيناً الى أن العلم المادي قد أحاط بسنن الكون الرئيسية وأن في أستطاعتهم تفسير جميع الظواهر تفسيراً مادياً، وكان قصدهم أن المعرفة العلمية تريد أن تنتهي آخر الامر الى قوانين ذات صياغة رياضية، تقوم عليها الحجة بسلامة الاستدلال المنطقي من جهة،وبصدق التطبيق من جهة أخرى.

ثم أن العلماء قد رأوا كثيراً من النظريات التي ظنوها ثابتة لا تتزعزع، رأوها تنهار وتندك من أساسها بين عشية وضحاها.هذا ما تم في جيل واحد من الناس وفي بضعة عقود من السنين، فلنتصور مايكون من مصير العلم بعد مائة سنة.. وبعد ألف سنة.. وبعد ذلك.

ان تاريخ التقدم العلمي ليس الا تاريخ الحقائق الجديدة تطرد من أمامها الحقائق القديمة وتحل محلها. فالحقيقة التي يكشفها البشر ليست هي الحقيقة الازلية المطلقة، ويندر ألا يصيبها الزمن بمعوله عاجلاً أم آجلاً، على الرغم مما قد يبذله أنصارها من المقاومة في أول الامر فان بعض الاوليات المقررة اليوم في أذهان الناشئة كانت يوماً ما مثاراً للجدل بل للفتن والمنازعات، ثم لم تلبث أن أنتصرت على ما سواها، وقد يجيء أجلها بعد حين ويختم عمرها أسوة بما تقدمها.. وهكذا دواليك.

* * *

ان التحول في الرأي العلمي يندر أن يتم بلا مقاومة. ولهذه الظاهرة - التي سماها البعض (نيوفوبي) أي كراهة الجديد تعليل مقبول، وذلك أن علماء كل جيل تستقر في أذهانهم بعض النظريات وتعد لديهم في منزلة الحقائق الثابتة التي يسكنون أليها ويطمئنون. فالانسان لا يطيق حالة الشك التي تنهك فكره بل ينشد راحة ذهنه على الدوام.

فاذا جاء باحث بجديد يترتب عليه زعزعة ماأستقر في الاذهان كان نصيبه العداء والمقاومة حتى قبل أن تبحث دعواه، لأن كل ما يتطلب جهداً أو يثير ساكناً ينفر منه الانسان

بفطرته،ولا سيما بعد أن يجاوز سناً معينة.فالعقل كالجسم يفقد مرونته مع السنين وتقل قابليته للنمو والتكيف.ومن العلماء من تتصلب آراؤهم فيتعصبون لها بعناد عجيب، وليس التعصب في ميدان البحث العلمي بأقل عماية وشناعة من التعصب الديني.

فقد عومل الفيلسوف جيوردانو برونو (١٥٤٨ . ١٦٠٠) معاملة وحشية من قبل الكنيسة لإيمانه بتعاليم كوبرنيكوس في أن الارض كوكب من عدة كواكب تدور حول الشمس وقال أن هناك كثيراً من الشموس، يدور حول كل منها عدد من الكرات الارضية، كما هي الحال في شمسنا وكواكبها السبعة.. وهذه الكرات أيضاً مسكونة بمخلوقات حية! ولكن الكنيسة كانت تؤمن بأن الارض مركز الكون وأن النجوم والكواكب ليست إلا أجساماً مضيئة خلقت لخدمة الانسان،الذي خلق على صورة الله ومثاله. وتبعاً لهذا الاعتقاد أعتبرت اراء برونو زندقة والحاد وأحرق الفيلسوف المذكور.

كذلك كان الشأن مع الفيلسوف أبيلارد الذي كانت أهم جوانب فلسفته تلك النزعة القوية الجريئة نحو تحرير العقل من ربقة العقيدة، وهو الذي قال أن العقيدة لا تستطيع أن تحيا مدعمة قوية بغير علم ومعرفة.

وقد أتهم أبيلارد بالخروج على مألوف العقيدة، فأنعقد لمحاكمته مجلس في (سنس) وقضى بأحراق كتابه (التثليث) وأمر به فحبس في دير حتى وافته منيته.

كماأتهم كثيرون من العلماء المخلصين لعلمهم ومنهم قسطنطين الافريقي وجربرت وألبرتس مجنز وروجر باكون وفنسنت البوفيسي بالسحر وبالاتصال بالشياطين لأن الناس لم يكونوا يصدقون أنهم حصلوا على علمهم بالوسائل الطبيعية.

واذا تصفحنا تاريخ العلوم وجدنا العلماء من هذا الطراز هم الأكثرية. فأكثر الحقائق التي قاومها الشعب ومن كان يسيره بحجة أنها مخالفة (للعلم) انما كانت مخالفة لعلمهم هم!!

وهذا كان شأن التخدير الجراحي فقد أنكره الشعب في أول امره.

وهذا أيضاً كان شأن (الميكروبات) فإن العلماء ظلوا عشرين سنة دون التسليم بوجودها.

وغاليليه سجن لأنه قال أن الارض تدور.

وأكد العالم لافوازيه الفرنسي-على سعة علمه-أنه يستحيل أن تسقط حجارة من السماء اذ ليس فيها حجارة!

والدورة الدموية لم تثبت صحتها إلا بعد جدال دام أربعين سنة!

وقس على ما تقدم أمثلة عدة، فتاريخ العلوم مملوء بما تلاقيه الحقائق العلمية من صنوف المقاومه قبل أن تستقر ويسلم بها العلماء. بل كثيراً ما كان العلماء انفسهم هم أكاد العقبات في سبيل تقدم العلوم، وسرعان ما كانوا يصمون الشيء الجديد الذي يجاوز علمهم بأنه مناقض للعلم. وشتان بين ما هو (جديد) في العلم وما هو (مناقض) له.

وبالوسع أن نضرب الكثير من الامثلة على التحيز غير العلمي لدى بعض العلماء المعنّيين في ذلك الزمان، وما كانوا يبدونه من عدم الاستعداد لفحص المسائل بعناية مادامت لا تتفق مع وجهة نظر العلم على وقتهم، وان كانت قد هوت الى دروب لم تطرق من قبل. وسأقتبس مثالين قد يكون في الرجوع اليهما ما يدعو الى التسلية الساخرة، ولكنهما يبينان كيف عميت أبصار رواد العلم عن بعض الخطوات التقدمية في الفكر والعمل التي تعتبر في وقتنا هذا من الأمور الدارجة المألوفة، وذلك أعتماداً على كونها في نظرهم (لا يمكن أن تعقل أو تتصور).فقد كتب السير وليم باريت يقول:

(كنت مقيماً ذات مرة في أدنبرة بصحبة الفيزيائي المشهور (تيت)، حين وردت لنا أنباء برقية بأختراع الهاتف، فسألت تيت رأيه في هذه الاكتشاف، وكان جوابه: الأمر كله هراء، فإن امتكشافنا هذا شأنه مستحيل استحالة مادية).

ويذكر كانن آلسون واعظ كنيسة تمبل بلندن أمثلة أخرى مقتبسة في كتابه (حقيقة العلم الروحي) . (لندن سنة١٩٤١)

(يروي فلاماريون الفلكي الفرنسي أنه كان حاضراً في أثناء فحص الاكاديمية للحاكي الذي صنعه أديسون،فأمسك أحد العلماء الحاضرين بخناق الأخصائي الذي كان يوضح أداء الجهاز وصاح فيه: أيها الشقي التعس، أننا لن نسلم أنفسنا ليغرر بنا شخص مثلك يتحدث من جوفه).

وللتوضيح فإن من يتحدث من جوفه أسم يطلق على الشخص الذي لديه القدرة على الكلام بطريقة خاصة بحيث يبدو وكأن الالفاظ لاتصدر من حنجرته كسائر الناس، وأنما من جوفه أو بطنه. وحقيقة الامر أن من نظنه خطأ يتحدث من جوفه أنما ينطق ويصدر الأصوات عن طريق الحنجرة كالعادة، ولكنه يعدل في الصوت، ويخفض مرتبته،ويقلل من حركة الشفتين إلى أقل قدر ممكن، وذلك ليوهم السامعين ويغرر بهم ويخفي مصدر الصوت.

وتعود القصة التي رواها فلاماريون إلى عام ١٨٧٨ ولكن الشخص نفسه،وبعد ذلك ببضعة اشهر، وكان قد فحص الحاكي بعناية، صرح ثانية قائلاً (أنه من المستحيل الأعتراف بأن مجرد المعدن الخسيس يمكن أن يؤدي وظيفة النطق البشري). فالحاكي في رأيه لم يعد أن يكون أيهاماً صوتياً ـ بمعنى أنه غير موجود لأنه لا يمكن أن يكون موجوداً، أنه أمر لا يمكن للعقل أن يفعله أو يتصوره ولذا فهو مستحيل الوجود.

ومثل هذا شأن موقف الكثير بأزاء أبحاث التجاوب العقلي عن بعد بصفة عامة.

إن ما تطرقنا إليه في فصول الكتاب هو غيض من فيض مما تحفل به الكتب والمجلات والصحف من مواضيع تعزوهاتارة إلى قوى خارقة أو سحرية أو تعللها علميا. ويبقى لنا القول أن روح البحث قد حطمت جميع القيود والاغلال، وأخذت تحلق في طبقات عليا ومراتب سامية حتى أصبح التعليل الطبيعي للأشياء هو الغالب في كل ميدان، ومع هذا، لا زالت فكرة القوى الخارقة ملحة مستقرة في عقول الناس، ولا زال المنطق العاطفي في التفكير مستمر إلى يومنا هذا. فارادة الاعتقاد أو التفكير بالتمني، ارادة متأثرة بالرغبة في التعزية أو الرضا أو الاثارة أو الطرافة.

المراجع

باللغة العربية

١ - أبو غنيمة، د.محمد: نظرة في أعماق الانسان - مؤسسة النوري - دمشق ١٩٥٨

٢ - الدباغ، د.فخري: اصول الطب النفساني - دار الطليعة - بيروت ١٩٨٣

٣ - الأهواني،أحمد فؤاد: النوم والارق - سلسلة أقرأ دار المعارف بمصر ١٩٥٩

٤ - بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٣

٥ - عبده، سمير: الأحلام: تحليل مائة حالة نفسية - دار الاضواء - بيروت ١٩٨٦

٦ - عبده، سمير: التحليل النفسي للأبراج - الطبعة الثانية - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٨٩

٧ - عبده، سمير: الخوارق النفسية - دار الاضواء - بيروت ١٩٨٦

٨ - مجلة أكتوبر - القاهرة - نفيسة عابد - سحروا أعين الناس وأسترهبوهم - العدد ٤٩٨ - ١١ مايو - أيار ١٩٨٦

٩ - روستان، جان:الانسان - ترجمة د.عبد الرحمن مرحبا - منشورات عويدات - بيروت ١٩٦٥

١٠ - رسل، برتراند: الفلسفة بنظرة علمية - ترجمة زكي نجيب محمود مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٠

١١ - ريشنباخ، هانز: نشأة الفلسفة العلمية - ترجمة د.فؤاد زكريا - دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٨

١٢ ـ فروم، اريك: الدين والتحليل النفسي ـ ترجمة فؤاد كامل ـ دار غريب للطباعة ـ القاهرة ١٩٧٧

١٣ ـ فلوجل، ج.ل: علم النفس في مائة عام ـ ترجمة لطفي فطيم ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٣

١٤ ـ فارب، بيتر: بنو الانسان ـ ترجمة زهير الكرمي ـ سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٦٧

١٥ ـ كزنوف، جان: السعادة والحضارة ـ ترجمة عادل العوا ـ مطبعة جامعة دمشق ١٩٧٢

١٦ ـ نييرنبرغ،جيرالد وهنري كاليرو: كيف تقرأ شخصاً كأنه كتاب ترجمة أديب خضور ـ دار الجليل ـ دمشق ١٩٩٠

١٧ ـ هادفيلد، ج.أ: الحلم والكابوس ـ ترجمة صلاح الدين محمد لطفي ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة

١٨ ـ يونغ، ك.غ: علم النفس التحليلي ـ ترجمة نهاد خياطة ـ دار الحوار ـ اللاذقية ١٩٨٥

١٩ ـ يونغ، ليلان: أسرار الوجه ـ ترجمة أندريه كاتب ـ دار الجليل ـ دمشق ١٩٨٨

باللغة الانكليزية

20 - Abraham، Karl، Dreams and Myths. Garden City Publishing Co. New York 1955

21 - Bronowski. j، The Common Sense of Science.A Pelican Books 1960

22 - Einstein، Albert، Relativity. Crown Publishers. Inc، New York 1961

23 - Freud، Sigmund، Collected Paper.the Hogarth Press، London 1956

24 - Freud، Sigmund، A General Introduction to Psychoanalysis. Garden City Publishing Co. New York 1957

25 - Hubbard.L. Ron، Dianetics، The Modern Science of Mental Health. Bridge Publication Inc. Los Angelos 1985

26 - Hubbard.L. Ron، Dianetics، The Evolution of a Science. Bridge Publication Inc. Los Angelos 1986

27 - Hubbard.L. Ron، Scientology،A New Slant on Life. Bridge Inc Los Angelos 1986

28 - Hubbard.L. Ron، Introduction to Scientology Ethics. Bridge Publication Inc. Los Angelos 1987

29 - Jones، Ernest، Paper on Psychoanalysis. William Ward Co، New york 1950

30 - Jung، Carl، Modern Man In Search of A Soul. Brace and Co. New York 1948

31 - Jung، Carl، Psychology and Religion. Yale University Press. New Halven 1953

32 - Mills،j.s ،logic. W.W.Norton & Co، New York 1951

33 - Nilśson،M، History of greek relligion. oxford University 1925

34 - Plato، The Repuplic، Translation With Introduction and Noteas، by Francis Macdonald Cornford، university Press، New York 1956

35 - Russell، Bertrand، The Impact of Science on Society. Unwin Books، London 1976

36 - Russell، Bertrand، Th Problems of Philosophy. Oxford University Press، London 1976

37 - Russell، Bertrand، Unpopular Essays. Simon Schuster. New York 1964

38 - Russell، Bertrand، Principles of Social Reconstruction. Unwin Books، London 1950

39 - Russell، Bertrand، Mysticism and Logic. Unwin Books، London 1963

40 - Russell، Bertrand، Religion and Science. Oxford University Press، London 1978

الفهرس

منشورات دار علاء الدين

١ . التشريعات البابلية . تأليف عبد الحكيم ذنون.

٢ . مذكرات عن الإنقلاب العسكري . م. غورباتشوف.

٣ . كيف تكونين جميلة . زويا ميخائيلينكو.

٤ . المساج النقطي . زويا ميخائيلينكو.

٥ . الطب الشعبي ومجالاته . جارويس.

٦ . دليل السائح الروسي . د. ماجد علاء الدين.

٧ . قصص قصيرة . ليف تولستوي . ترجمة رسلان علاء الدين.

٨ . قفزة . تأليف ليف تولستوي . ترجمة ريما علاء الدين.

٩ . قصة الوقت الضائع . ترجمة رسلان علاء الدين.

١٠ . حكاية العملاق العجيب جونغ . ترجمة ريما علاء الدين.

١١ . طائر الكريم . مجموعة قصص . تأليف: وهيب سراي الدين.

١٢ . أسرار الكون. تأليف مجموعة من العلماء.

١٣ . القوة العصبية. تأليف د. بول بريغ.

١٤ . العلاج بعصير الخضار والفواكه. تأليف: نورمان ووكر.

١٥ . دليل مريض السكر. ترجمة: لجنة الترجمة في دار علاء الدين.

١٦ . الطريق إلى الصحة: كيف يتغذى المعمرون.

١٧ . صفحات من تاريخ فن الرقص في العالم. إعداد: فائق شعبان.

١٨ . الأجسام الطائرة المجهولة. تأليف كوزوفكين وسميتوف.

١٩ . علاج الأمراض الجلدية بالأعشاب. تأليف: ب. داتسكوفسكي.

٢٠ . حلوى الأطفال: تأليف: مارغريت باول.

٢١ . التربية السليمة للطفل: تأليف موريس لين . ترجمة: سميح شيا.

٢٢ . دليل الحامل: ترجمة: لجنة الترجمة في دار علاء الدين.

٢٣ . تاريخ القانون في العراق: تأليف: عبد الحكيم الذنون.

٢٤ . تقليم أشجار الفاكهة:ترجمة وإعداد طه شيخ حسن.

٢٥ . طقوس الجنس المقدس . تأليف س. كريمر . طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٦ . الديانة الفرعونية . تأليف واليس بدج . طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٧ . الجنس في العالم القديم . بول فريشاور . طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٨ . شريعة حمورابي . مجموعة مؤلفين طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٩ . العرافة وسوسة أم ....؟ . مجموعة باحثين.

٣٠ . اللؤلؤة النادرة: حكاية شعبية فيتنامية. ترجمة: أكرم أبو راس.

٣١ . أعشاب الشفاء إعداد د. ماجد علاء الدين . زويا ميخائيلينكو.

٣٢. تحضير الكيك والكاتو والكريما . تأليف: مارغريت باتن

٣٣ . سلسلة القسام التعليمية . قصص وديع اسمندر.

SAMIR ABDOH

Reasoning

PSYCHO – ANALYSIS

PUBLISHER ALAEDIN

DAMASCUS:

P. O. Box: 30589

Tel: 427158 - 427353

Tlx: 412545 Fax: 427159

هذا الكتاب

منذ أرسطو والناس يقولون بأن لديهم خمس حواس (البصر والسمع والشم والذوق واللمس) ولكنهم مع ذلك يملكون حواس أخرى منها، حاسة وعي الاطراف، ووعي درجة التوتر العضلي، وحركة أكثر من مائة مفصل، وهذه الحاسة حيوية لجعل الانسان قادراً على الوقوف منتصباً والمشي والامساك بالأشياء والتحرك ضمن حدود البيئة. كذلك هناك حاسة الجاذبية الارضية والتوازن التي تعتمد على خلايا حسية في أعماق الأذن الداخلية.. وبالإضافة لحاسة اللمس توجد في الجلد ثلاث حواس أخرى على الأقل هي، حاسة الألم، وحاسة الحرارة، وحاسة البرودة.

واذا كان علماء النفس القدماء قد نسبوا قوة الاستدلال إلى مجموعة من الاحساسات، فإن الامر بالنسبة للمحدثين ليس مقصوراً على مجرد الاحساسات،وإنما يدخل فيه معلومات المرء وخبراته السابقة التي تعطي بدورها معنى الاحساسات التي تعتبر في حد ذاتها لب الاستدلال. فالإستدلال اذن ليس مجرد أنطباع صور الاشياء في الذهن، ولكنه استجابة معينة للإحساسات الراهنة تستخدم فيها الخبرات السابقة، كما تتأثر بإتجاهات الفرد وأسلوبه في الحياة.

وقد نسب الكثير للحواس والاستدلال، من ذلك الحاسة السادسة والاستدلال عن غير طريق الحواس، أو أن تكون قوة الاستدلال من السحر، أو من النظرة الاولى، وبالرجم بالغيب، أو الاتفاق العارض، وحالات الوعي المتغيرة، والاحلام كقوة للإستدلال، والحدس المتنبئ، وقوة الاستدلال ذاتية الحركة، وظاهرة الطبيعة الفائقة..

كل ذلك تناوله المؤلف عن طريق التحليل النفسي بأسلوب شيق وآخاذ .

الناشر

منشورات دار علاء الدين

دمشق - ص . ب : ٣٠٥٩٨

هاتف : ٤٢٧١٥٨ ـ ٤٢٧٣٥٣

